

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، وقائعها، نتائجها

محمد نعمة السماوي

الجزء الثالث

دار المرتضى


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com



٣

دار المرتضى

للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
تليفاكس ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
ص.ب.: ٢٥/١٥٥ الغبيري

E-mail: mortada14@hotmail.com

Printed in Lebanon

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

موسوعة

الثورة الحسينية

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، واقعها، نتائجها

أحاديث عن أنصارها ومناوئيها
ونتائجها المباشرة والبعيدة
وبحوث في تاريخ الإسلام والمسلمين
ومجتمعاتهم في ظل الخلاف والانحراف

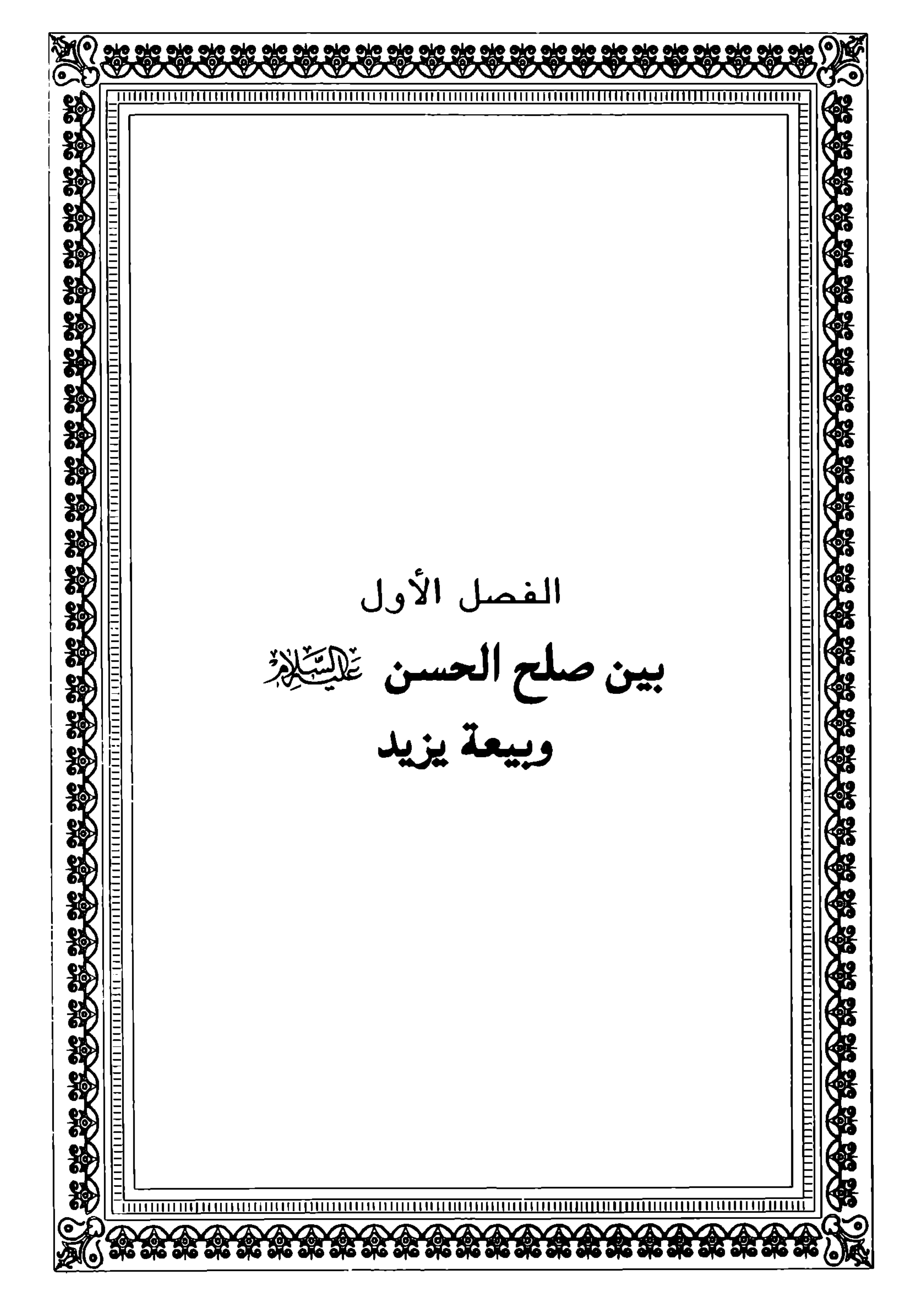
محمد نعمة السماوي

الجزء الثالث


بسم الله الرحمن الرحيم

مضامين الكتاب وبحوثه





الفصل الأول

بين صلح الحسن عليه السلام وبيعة يزيد

صلح الحسن عليه السلام
استمرار لمسيرة أمير المؤمنين عليه السلام

كان صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية من أكثر أحداث التاريخ الإسلامي إثارة للجدل والخلاف حتى بين بعض أولئك الذين يتبنون خط آل البيت عليهم السلام ومنهجهم. وقد رأى فيه العديدون أمراً مغايراً لما فعله أمير المؤمنين عليه السلام من قبل، وما فعله الحسين عليه السلام بعد ذلك. إذ كيف يقاتل أمير المؤمنين عليه السلام معاوية، بل يمضي فترة حكمه كلها مقاتلًا له وحتى ساعة استشهاده ويرى فيه شيطاناً رجيماً من شياطين الإنس، وكيف يثور الإمام الحسين عليه السلام على النظام الأموي ممثلًا بيزيد، الذي هو نتاج معاوية ونسخة مكرورة منه ـ باستثناء المكر والدهاء الذي اشتهر به ـ ويمضي في ثورته إلى حد الاستشهاد في ملحمة لم يشهد لها التاريخ الإسلامي وتاريخ العالم مثيلًا، بينما (يهادن) الحسن عليه السلام معاوية و(يسلم) إليه مقاليد المسلمين وأمور الخلافة ويؤثر السلام على الحرب؟.

ولفهم هذا الأمر علينا أن نحيط ببعض الأمور الأساسية، منها:

١ - طبيعة مهمات الإمام الحسن عليه السلام بين أبناء الأمة، ومدى مسؤولية لتصحيح الانحرافات القائمة والمتسارعة فيها.

٢ - واقع الصراع بين الأموية والإسلام ثم بين أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية.

٣ - الواقع التاريخي لميدان الصراع وعناصره، وطبيعة الأحداث التي مرت بها الأمة، وما يمكن أن يجره هذا الصراع لو استمر بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية إلى النهاية.

وبدون الإحاطة بهذه الأمور، فإننا سنظل مختلفين وحائرين بشأن الصلح ولن نتمكن من الوصول إلى قرار نهائي بشأن هذه المسألة التي تثير شجون البعض، وشماتة البعض الآخر، شجون المحبين الذين قد يرون من الإمام عليه السلام تنازلًا واستسلاماً، وشماتة القالين المبغضين الذين يرون في ذلك نصراً حاسماً لمعاوية.

وقد يشتط هؤلاء الأخيرون إلى حد الذهاب إلى أن معاوية كان محقاً، حتى

وهو يخرج على أمير المؤمنين عليه السلام ويقارعه، وأنه لو لم يكن كذلك، ولم يكن يتبنى قضايا عادلة لما هادنه الإمام الحسن عليه السلام بعد ذلك. إذ ليس من المعقول ـ بنظر هؤلاء ـ أن يسلم الإمام الحسن الخلافة لمعاوية ولا يمضي في حربه إلى النهاية إلى حد الاستشهاد ونهاية الحياة كما أراد أن يفعل أبوه عليه السلام من قبل وكما فعل أخوه عليه السلام من بعد.

وإذا ما طرحوا المسألة للنقاش (الموضوعي) وتنازلوا واعترفوا بوحدة دور الأئمة ومركزهم القيادي في الأمة، وتساءلوا: أليس شعورهم بالمسؤولية شعوراً واحداً ينبع من وضعهم الدقيق كأئمة وقادة لهذه الأمة؟ فلماذا التباين في الأدوار؟!.

وهذا أفضل طرح يمكن أن يسمعه المسلمون عن المسألة، إذا لم يتماد آخرون، متبنّين موقف معاوية منذ البداية، مثيرين التساؤلات والأقاويل والأكاذيب المضللة التي من شأنها أن تصور الأمر لصالح معاوية وحزبه جملة وتفصيلًا، بعد أن فعل معاوية ذلك وفعله (الخلفاء) الأمويون بعد انفرادهم بالسلطة والحكم.

وقد كان معاوية يرى نفسه (موفقاً) في هذا الأمر منذ البداية، حينما كان كل شيء مكرساً لتنفيذ خططه أيام حكمه، وقد (نجح) في تحريض المسلمين على أمير المؤمنين عليه السلام إلى حد قيامهم بسبه على منابر الإسلام لمدة تقارب الألف شهر ـ وهي مدة حكم الأمويين ـ وجعل سبه سنة يشب عليها الصغير ويشيب عليها الكبير. الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام نفسه يسمح لمن يتعرض لضغوط الدولة الظالمة أن يسبه في العلن، ولكن على أن لا يتبرأ منه (فأما السب فسبوني، فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرأوا مني، فإني ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة..)[1].

من هو الولي والإمام..؟

إننا في معرض تبيان وحدة مواقف الأئمة عليهم السلام، وهم في هذا البحث هنا، أمير المؤمنين وولداه الحسن والحسين عليهم السلام، لا بعد أن نتعرف على نمط تصوراتهم وأفكارهم وفهمهم للإسلام بشكل عام والخلافة بشكل خاص، وتقييمهم للأوضاع التي كانت تمر بها الأمة في ذلك الوقت أيضاً.

(١) نهج البلاغة ١٥٩.

وقد تعرفنا إلى موقف أمير المؤمنين عليه السلام من هذه المسائل، ورأينا كيف كان يتعامل مع المتغيرات التي مرت بها الأمة الإسلامية وكيف كان ينظر إلى الخلافة، لا على أنها مغنم شخصي وحق موروث مجرد، ولكن: على أنها مسؤولية قيادة الأمة وتربيتها عن نفس النمط الذي قادها ورباها عليه رسول الله صلى الله عليه وآله. أمة تشع على البشرية بإسلامها وإيمانها واستقامتها، ولا بد لهذا الإمام القائد أن يكون نفسه منسجماً مع الرسالة، يراها، ويرى فيها عظمة الله وقدرته وعدالته وحكمته. متخلقاً بأخلاق الإسلام. لا بخيل ولا جاهل ولا جاف ولا حائف للدول ولا مرتش ولا معطل للسنن. وقد أوجز عليه السلام بشأن من يصلح للحكم بعبادات قصيرة، تنسجم ومفاهيم الإسلام الصحيحة. (اللهم إنك تعلم أنه لم يكن منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك. اللهم إني أول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني إلا رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة.

وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة)[1].

كان أمير المؤمنين عليه السلام ـ انطلاقاً من تصوره وفهمه للخلافة ومسؤولياتها ـ يرى أنه بسلام، ما سلمت أمور المسلمين. ومع علمه الأكيد بمؤهلاته وحقه بالأمر، إلا أنه أوضح بجلاء أنه لم يكن يريد بخلافته إلا أن يقيم ما أقامه رسول الله صلى الله عليه وآله.. وما دام الأمر قد خرج من يده، فإنه أوضح بجلاء حقه فيه، وأنه قد اغتُصبَ هذا الحق، وما على الأمة ـ وقد حرمت من قيادته الفعلية، إلا أن تراقب من يلي أمورها، لترَ هل أن من أصبح خليفة يقوم بما ينبغي عليه أن يقوم به من واجبات الخلافة.

إنه جعل الأمة كلها مراقبة وشاهدة على من يلي أمرها وشؤونها، وعاملة على تقويم كل خطأ وانحراف قد يصدر عنهم. (لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري،

(١) المصدر السابق ٣٠٠-٣٠١.

والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة، إلتماساً لأجل ذلك وفضله وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه..)[1].

لماذا لم يعلن أمير المؤمنين عليه السلام الحرب على من سبقه؟

لقد أدرك الإمام عليه السلام موقف قريش منه وعرفه حق المعرفة. وقد رأينا كيف كان ينظر إليها وكيف كانت تنظر إليه. فقد أذل كبرياءها وجاهليتها وعصبيتها بسيفه وجعلها تنحني أمام الإسلام. وعلم أن الأمر أصبح أمر منافسة على زخرف وزبرج ومناصب وسلطان، وعرف أن المعركة ستكون بعد غياب رسول الله صلى الله عليه وآله، معركة شرسة؛ معركة وجود، وأنه إن قاتل دون حقه فإن قريشاً ستتحد وتقتله، وستقتل بسبب ذلك الأمة كلها وستتفرق وتتوزع، وسيؤول أمرها إلى أن تترك الإسلام صراحة ولما تكد تتعرف عليه وتقبل أن تحكمه في حياتها ووجودها.

وهنا يبرز حرصه على أمرين: وجوده وآل بيته أحياء، رغم الحيف الذي يلحقهم ورغم تجريدهم من المركز القيادي الفعلي للأمة، ووجود الأمة نفسها حية قوية متآلفة ومتماسكة. وبضمان هذين الأمرين، يضمن بقاء هذا الدين واستمراره وديمومته. وهو الشيء الذي له الأولوية المطلقة بنظر الإمام والذي يحرص عليه أشد الحرص.

فلماذا سكت إذاً (وهادن) و (صالح) الخلفاء قبله، مع أنه كان يعلم أنه صاحب الحق، وكان يعلن ذلك ولا يتكتمه أو يخفيه؟.. لماذا سكت شاباً وأشهر سيفه شيخاً..؟ أكانت طموحاته طموح شاب ملك رأى الأمر يخرج من بين يديه؟.

لقد كان في مقتبل حياته يفور غيرة وحماسة على الإسلام ولا يكاد أحد يصمد أمام سيفه وساعده. ولو كان حماسه لأجل مصلحته الشخصية لجعل الصراع يتخذ فعلًا أبعاداً دموية ولا نساق إلى الاغراءات والمحاولات التي أرادت جره إلى حلبة الصراع، غير أنه رأى أنه إذا ما انساق إلى ذلك فسيكون الإسلام هو الخاسر الوحيد، وأنه سيخسر عن الساحة بمثل السرعة التي امتد وانتشر فيها.

ولعل أبرز مظهر لقوته وبطولته هو سكوته عن حقه المغتصب، وربما فاق ذلك قوته البدنية والذهنية المشهورة، فهو لم يكن يريد أن يظل حياً لأنه كان يرهب

---

(١) نفس المصدر ص ١٧٨.

الموت، فهذا ما لا يمكن لأحد أن يدعيه.. بل لأنه كان يتوقع الانحراف، ويعلم أنه المؤهل الأول لتقويمه وإيقافه، وإذا ما اختفى من الساحة بوفاته أو قعوده واتخاذه موقفاً سلبياً خالصاً، فإن الانحراف سيشع منذ البداية، ولن يعود أحد يشعر بوجود شاهد أو مراقب واع يستطيع التقويم والتوجيه، ولن تتاح للمسلمين فرصة التقاط أنفاسهم، وهم يرون اتساع الخرق أمامهم ولا يستطيعون إيقاف ذلك.

كان الإمام بشهادة الجميع هو المؤهل الوحيد للتصدي والوقوف أمام كل المعضلات التي واجهت سابقيه ومعالجتها بنفس التصور والفهم الذي حمله رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه.

وقد رأينا ما قاله منافسوه أنفسهم فيه.

ورد الإمام على أولئك الذين اتهموه بالخوف من التصدي لمنافسيه على الخلافة والذين اتهموه بالحرص عليها رغبة فيها لنفسه وعلى أنها مكسب شخصي له قائلًا: (فإن أقل يقولوا حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت. هيهات بعد اللتيا والتي. والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجت على علم مكنون لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة)[1].

وقال في مناسبة أخرى، وقد حاول بعضهم تحذيره من الظهور في إزار ورداء خلال إحدى المعارك مع معاوية وأهل الشام: (أبالموت تخوفوني؟ فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط عليَّ)[2].

وبغض النظر عن قوله عليه السلام مع أنه القول الفصل والجواب الصحيح، وقد علم الجميع من هو، وحتى أولئك الذين يكنون له الكره ويضمرون له العداوة والسوء لم يستطيعوا أن يقولوا أنه كان يخاف من الموت في أي وقت من أوقات حياته صبياً أو شاباً أو شيخاً. لقد كان يقبل على الموت غير متحفظ ولا متحرز من أعدائه الأقوياء المدججين بالسلاح والحديد. وكان يقاتل وهو شيخ قد جاوز الستين بنفس قوة وحماس شباب العشرين. ولم يستطع أحد أن يصمد أمامه رغم كثرة هؤلاء الذين شاء

(١) نفس المصدر ٩٢-٩٤.

(٢) العقد الفريد ١-٩٤.

لهم سوء طالعهم الوقوف قبالته وربما تجاوزوا الألوف العديدة، حصدهم بسيفه. كان نصير الإسلام بحق، بشهادة أخيه وابن عمه وقائده رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه.

لم تكن فيه خصلة من خصال أعدائه، لا الطمع في الملك أو المال ولا الخوف من الموت، فما عسى أن يكون مصير من يتفانى في حب الله غير القرب منه..؟ غير أن الذي يريد أن يخاصم ويجادل ويحارب، ما عساه أن يقول غير ما قاله أعداء الإمام عليه السلام، وما عسى أن يكون رد الإمام غير ما سمعناه وخبرناه فعلًا عنه؟.

إن شعوره بالمسؤولية يبلغ من القوة أنه يتحد مع شعور الرسول المعصوم صلى الله عليه وآله، فهو ربيبه ونفسه ونسخة منه، وهو يسمع ما يسمع ويرى ما يرى، غير أنه ليس بنبي، كما أخبره الرسول صلى الله عليه وآله الذي كانت النبوة محصورة فيه، يقود الأمة إلى الإسلام ويجعلها تنهل من مائه العذب الصافي وتحلق في أجوائه. وكانت مهمته صلى الله عليه وآله مهمة الإمامة لهذه الأمة أيضاً، يقودها ويقف أمامها دائماً، ويجعل من سلوكه وأقواله وما يقره سنة لها تتطابق مع كتاب الله العزيز. ومن أقدر من الرسول صلى الله عليه وآله على توضيح الإسلام للأمة، وهو الذي اؤتمن من الله على هذه الرسالة واختصه بها.

وإذا كانت مهمة الرسالة قد انتهت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، فإن مهمة الإمامة لا بد أن تستمر، حتى بعد غيابه ووفاته صلى الله عليه وآله. لأن إعداد الأمة لم ينته بعد ولا بد من وقت طويل لتربيتها وإعدادها.. وقد يتطلب الأمر أجيالًا عديدة، وهذا يتطلب وجود أئمة يكملون المسيرة النبوية الأولى، ويتطلب بشراً معدين إعداداً خاصاً من رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، يتصفون بما اتصف به من صفات وسجايا نادرة، ليسوا بخلاء ولا جاهلين ولا جفاة ولا خائفين ولا مرتشين ولا معطلين للسنن. بل يتمتعون بأقصى قدر من الصفات النادرة المضادة لتلك.

ولكي يقيموا السنن، لا بد أن يتمتعوا بأكبر قدر من فهم هذه السنن؛ فهم الإسلام برمته، وفهم أحكامه ومبادئه وتشريعاته وامتلاك تصور واضح وكامل عنه، ولا بد أن يكونوا على قناعة تامة به، لا تساورهم أدنى ريبة بصلاحيته وقدرته على قيادة الحياة دائماً والاستجابة لمتغيراتها ومتطلباتها.

ولم يشر الإمام عليه السلام على نفسه كمؤهل وحيد لإكمال المسيرة ومسؤولية القيادة وإمامة المسلمين، بل أشار إلى أهل بيته وأولهم ابناه الحسن والحسين عليهما السلام

بنفس القوة والوضوح الذي أشار بهما رسول الله ﷺ إليهم، وقد كان يريد أن يعدهم لقيادة الأمة من بعده.

أهل البيت.. من خلال إشارات أمير المؤمنين عليه السلام

وكانت إشارات أمير المؤمنين إلى آل بيته عليهم السلام ـ بل تأكيداته عليهم ـ اشارات وتأكيدات موحية واضحة.. وكان يريد الأمة أن تستعد لتقبل قيادتهم لها بنفس الشعور من الرضى الذي قبلت فيه قيادة رسول الله ﷺ لها. وكان هو أول الأئمة الذين أراد الأمة أن تستعد لقبول قيادته. وبهذا الصدد، فإنه أشار إشارات واضحة لا لبس فيها إلى توحد النظرة والتصور عند رسول الله ﷺ وعنده، وأنه لم يكن ليقول إلا ما قاله الرسول ولم يفعل إلا ما فعله ﷺ (والله ما أسمعهم الرسول شيئاً إلا وها أنا ذا اليوم مسمعكموه، وما أسماعكم اليوم بدون أسماعهم بالأمس)(١).

إن إشارته الواضحة هذه إلى نفسه، ثم إلى آل بيته بعد ذلك، كان يريد بها من الأمة أن تلجأ إليهم وتقتدي بهم حينما تلتبس عليها الأمور والشبهات، وعندما تتلاحق وتتلاطم الأحداث. وكان يريد أن يطمئن الأمة مسبقاً إلى أن وجود الأئمة هو الضمانة لإنقاذها من أي انحراف أو خطأ.

وهكذا جاءت تصريحاته واضحة بهذا الخصوص.

(لا يقاس بآل محمد ﷺ من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين وعماد اليقين. إليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي. ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصية والوراثة)(٢).

(تالله لقد علمت بتبليغ الرسالات وإتمام العدات وتمام الكلمات، وعندنا أهل البيت أبواب الحكم وضياء الأمر)(٣).

(انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم)(٤).

(وخلف فينا راية الحق من تقدمها مرق، ومن تخلف عنها زهق، ومن لزمها لحق)(٥).

---

(١) - (٤) نهج البلاغة ٢٠٩-٨٣-٢٨٢-٢٤٠.

(٥) المصدر السابق ٢٤٤-٢٢٧-٢٢٨-٣٣٠-٢٣١-٥٣٣-٥٤٨-٦٨١-٧٠٠.

(ألا إن مثل آل محمد ﷺ كمثل نجوم السماء إذا هوى نجم طلع نجم)[١].

(وإنما الأئمة قوام الله)[٢].

(نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب)[٣].

(فيهم [آل البيت] كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن)[٤].

(وفي أيدينا بعد فضل النبوة)[٥].

(فإسلامنا قد سمع)[٦].

(نحن النمرقة الوسطى بها يلحق التالي وإليها يرجع الغالي)[٧].

ولم تكن المزايا التي ذكرها الإمام عليه السلام لنفسه ولآل بيته، والتي أشار بها رسول الله ﷺ قبلًا، والتي شهد بها القرآن الكريم أيضاً، قد اختصوا بها لمجرد أنهم من أقارب الرسول ﷺ، فأقاربه كثيرون، ولم يذكر لهم فضل بسبب ذلك، بل لعله قد أشير إلى بعضهم بالإساءة والابتعاد عن الإسلام. فمؤهل القرابة وحده لم يكن يتيح لهم تبوأ منصب إمامة المسلمين وقيادتهم. وما كان حق الصحابة المجرد وحده أيضاً يتيح ذلك ما لم تكن معه المؤهلات الكافية التي ذكرناها في هذه الدراسة، وأشار إليها القرآن الكريم والرسول ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام.

(واعجباه أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة)[٨].

(إن ولي محمد من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإن عدو محمد من عصى الله وإن قربت قرابته)[٩].

ضرورة وجود القيادة حتى وإن لم تكن في مركز الحكم

لقد كان من الضروري أن تظل القيادة الحقيقية شاخصة على الساحة، موجودة حية بعد اختفاء القائد الأول ﷺ ووفاته. إذ أن من شأن الأمة أن تتفرق وتتوزع إذا ما كانت خلف قيادة لا تحمل تصوراً واضحاً عن الإسلام لأن من شأن ذلك أن يجعلها غير قادرة على الاستمرار والتفاعل والعطاء ومواجهة الأزمات الطارئة والمواقف المستجدة.

(١) - (٩) المصدر السابق.

وقد وجد أمير المؤمنين عليه السلام أنه ينبغي أن يكون موجوداً ليقوم الانحراف، ويضع الصيغ العملية لتطبيق الأحكام الإلهية، ويعيش مع الأمة حياتها بكل ما تحفل به من مواقف ومستجدات وطوارىء وظروف اعتيادية وغير اعتيادية.

ومع أن الإمام عليه السلام قد لا يكون في مركز السلطة كخليفة، إلا أن المركز الذي يتمتع به بين جماهير الأمة، واتجاه الأنظار إليه وتطلعها الدائم إلى شخصيته وملاحظة نمط حياته، ومتابعة سيرته، وما يشير به في الأزمات، تجعل وجوده ضرورياً حتى مع وجود الخلافة غير الشرعية، وذلك لضمان استمرار قيام الدولة الإسلامية الموجودة بمتابعة خط الدولة الإسلامية الأولى بقيادة الرسول صلى الله عليه وآله.

ولم يكن وضع الإمام عليه السلام سلبياً تجاه الأمة أو تجاه الخلافة التي تربعت على كرسي الحكم، فغالباً ما كان يقوم بوضع الحلول اللازمة للأزمات والمشاكل والمواقف التي واجهت المتخلف على أمور المسلمين (إن الأئمة عليهم السلام بالرغم من التآمر على اقصائهم عن مجال الحكم، كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة، وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً. فكلما كان الانحراف يطغى ويشتد وينذر بخطر التردي إلى الهاوية، كان الأئمة يتخذون التدابير اللازمة ضد ذلك. وكلما وقعت التجربة الإسلامية أو العقيدة في محنة أو مشكلة وعجزت الزعامات المنحرفة عن علاجها بحكم عدم كفاءتها، بادر الأئمة إلى تقديم الحل ووقاية الأمة من الأخطار التي كانت تهددها.

وبكلمة مختصرة: كان الأئمة يحافظون على القياس العقائدي والرسالي في المجتمع الإسلامي، ويحرصون على أن لا يهبط إلى درجة تشكل خطراً ماحقاً. وهذا يعني ممارستهم جميعاً دوراً ايجابياً فعالاً في حماية العقيدة وتبني مصالح الرسالة والأمة.

تمثل هذا الدور الإيجابي في إيقاف الحاكم عن المزيد من الانحراف كما عبر عنه الإمام علي حين صعد عمر على المنبر وتساءل عن رد الفعل لو صرف الناس عما يعرفون إلى ما ينكرون. فرد عليه الإمام بكل وضوح وصراحة «إذاً لقومناك بسيوفنا».

وتتمثل في تعرية الزعامة المنحرفة إذا أصبحت تشكل خطراً ماحقاً ولو عن

طريق الاصطدام المسلح بها، والشهادة في سبيل كشف زيفها وشل تخطيطها كما صنع الإمام الحسين مع يزيد)[1].

أمثلة وشواهد

وكان أبرز مثال حول ضرورة وجود الإمام المعصوم ليقوم مسيرة الأمة تحت مختلف الظروف، وقوف الإمام عليه السلام من عمر، وقد شاوره في الخروج إلى غزو الروم بنفسه، فقد منعه الإمام من السير إليهم بنفسه باعتباره يمثل الأمة أمام أعدائها، وقد يقتل من قبل هؤلاء الأعداء الذين لا بد سيستثمرون الحماس الذي قد يثيره قتله بين صفوفهم متى ما علموا أنه كبير المسلمين، وقد يتمكنون من احراز انتصارات أخرى من شأنها أن تقضي على الإسلام نفسه، وفي ذلك ما فيه من خسارة كبيرة تكون نتيجتها تمزق المسلمين وخسارتهم أمام عدوهم. قال له الإمام عليه السلام : (إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم بشخصك فتُنكَب، لا تكن للمسلمين كانفه دون أقصى بلادهم ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلًا محرباً واحفز معه أهل البلاء والنصيحة. فإن أظهر الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين)[2].

وقال له أيضاً، عندما استشاره لقتال الفرس بنفسه قوله السابق، ومنعه من الذهاب إليهم باعتباره قيماً بالأمر. وقد وضع الإمام عليه السلام جملة من النتائج التي قد تترتب على خروج عمر بنفسه إلى مقاتلة الفرس ومنها احتمال قتله، مما يؤدي إلى تفرق المسلمين وعدم امكان عودتهم إلى ما كانوا عليه من النظام والالتزام، ومنها احتمال إنتفاضة العرب وتمردهم عليه إذا ما ترك مقر الخلافة إلى ذلك المكان البعيد. (ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه، فإن انقطع النظام، تفرق وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً. فكن قطباً واستدر للرحى بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتفضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك)[3].

---

(١) دور الأئمة في الحياة الإسلامية/ الشهيد الصدر ص ١١-١٢.

(٢) نهج البلاغة ٣٠٥-٣١٦.

(٣) المصدر السابق.

وكان بعض الذين يتملقون عمر في الظاهر ويكنون له العداوة في الباطن قد أشاروا عليه بالذهاب بنفسه إلى ساحة المعركة. . وقد أخذ عمر برأي الإمام مدركاً صوابه وصحته وواقعيته.

وهنا لا نرى الدور السلبي المنطلق من موقف الحقد والكره الذي قد يتصوره البعض ويحاول الصاقه بالأئمة ، من الزعامات التي سيطرت على الحكومة الإسلامية، مع أن بعض المواقف قد تبدو سلبية بنظر البعض، عندما كانت صراحة الأئمة تبدو وكأنها محاولات مجردة للانتقاص من قيمة المتخلفين عندما لا يستجيبون لطلبات الأمة ورغباتها ويتعمدون الانحراف والخطأ. مع أن مواقف الأئمة كانت تستهدف التقويم والتصحيح لا التشهير والتنكيل.

ولو كان معاوية مكان الإمام عليه السلام في هذين الموقفين، ويرى لنفسه، الحق في الخلافة بدلّا من عمر، واستشاره هذا في الذهاب لغزو الروم أو قتال الفرس بنفسه. . ماذا كان سيشير عليه في هذه الحال؟.

لا شك أن الذين يميلون إلى معاوية أنفسهم ويتبنون مواقفه سيجيبون بسرعة ودون روية قائلين: أنه كان سيشير عليه أن يذهب ويحسن له ذلك. . فربما قتل هناك، وهذا ما يريده معاوية ويتمناه حيث سيتخلص منه وسيخلو له الجو. وربما عمل هو نفسه على اثارة العرب من أطرافها وأقطارها بعد أن يذهب عمر لقتال الفرس أو الروم.

فلماذا لم يفعل الإمام عليه السلام ذلك، وهذه فرصة جيدة يخلو له فيها الجو وقد يقتل فيها عمر؟.

إنه لم يفعل ذلك لسبب بسيط أوضحه في جوابه لعمر نفسه. فقد أراد أن لا ينقطع النظام وتتفرق الأمة، ثم لا تجتمع أبداً. وهو ينطلق من شعوره العالي بمسؤولية الحفاظ على وحدة الأمة وتماسكها. ولا يهمه إن كان هو الحاكم أو غيره ـ مع أنه الأحق بهذا المركز ـ ما دام الحاكم يستجيب لبعض ما يراه الإمام له، ولا يصر على الخطأ، وما دام الإمام في موقع يمكنه أن يقوم المسيرة ويصحح الانحراف إذا ما وقع. وما دام تأثيره على الأمة لا يزال قوياً وهو خارج اطار الحكم وموقع السلطة.

فوجود الإمام بين الأمة، لا بد منه لضمان سلامة مسيرة هذه الأمة وعدم وقوعها في الخطأوالانحراف. وحياته ضرورية ولازمة للأمة، وغيابه سيجعلها تروح في متاهات بعيدة وتكون عرضة للانزلاق والوقوع في أحضان الكفر والشرك ثانية والابتعاد النهائي عن الإسلام وعدم عودتها إليه ثانية.

وكان أول من عبر عن ضرورة وجود الإمام بين الأمة هو رسول الله ﷺ نفسه ثم أمير المؤمنين والأئمة بعد ذلك.

بين تصوّر وتصوّر

إن حرص أمير المؤمنين عليه السلام على أن تبقى الإمامة من بعده متمثلة بأبنائه، لم يكن من نوع حرص معاوية للتمهيد ليزيد ليكون ولياً للعهد وخليفة على المسلمين. وإذا ما حاول معاوية أن يصور الأمر وكأنه تنافس بين الأبناء عندما مهد لخلافة يزيد بقوله: (أنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم فابني أحب إلي من أبنائهم)[1].

(قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء فابني أحب إلي من أبنائهم؛ مع أن ابني لو قاولتموه وجد مقاولًا)[2].

لم يقل أمير المؤمنين عليه السلام ذلك للأمة، ولم يكن يريد أن يقول انه يرغب أن يؤول الأمر إلى أبنائه هم أكثر الناس مؤهلات لتحمل مسؤوليات الإمامة بعده. وكانت هناك أخبار مؤكدة عن رسول الله ﷺ وشهادات واضحة من القرآن الكريم تشيد بفضلهم وتنزههم عن الرجس والانحراف، وما كان أمير المؤمنين ليصفهم إلا بصفاتهم الحقيقية التي خبرها وعرفها عنهم وإلا بما علمه علماً أكيداً عن رسول الله ﷺ بحقهم. كما رأينا في فصول هذا الكتاب.

وهكذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام عهد إلى الإمام الحسن عليه السلام قبيل وفاته بتولي الأمر بعده إماماً وقائداً للمسلمين، على أن يتسلسل بجماعة خاصة من آله بعد ذلك، وليس بأي فرد منهم. («يا بني، إنه أمرني رسول الله ﷺ أن أوصي إليك وأدفع إليك كتبي وسلاحي، كما أوصي إليَّ ودفع إلي كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين..» ثم أقبل على ابنه الحسين عليه السلام أن تدفعها

---

(١) العقد الفريد ٥-١١١.

(٢) الإمامة والسياسة ـ ابن قتيبة ـ القاهرة، مطبعة النيل ١٩٠٤ ص ٢٧٥.

إلى ابنك هذا» ثم أخذ بيد علي بن الحسين وقال له: «وآمرك رسول الله ﷺ أن تدفعها إلى محمد بن علي، فاقرأه من رسول الله ﷺ ومني السلام»[1].

كانت حياة الأئمة ضرورية للابقاء على حياة الأمة، على وجودها ووحدتها واستمرارها ونموها والتفافها حول الإسلام وقربها منه.

ومن هنا كان حرص الإمام عليه السلام على أهل بيته. لم يخف عليهم خوف الجزع من الموت الحريص على الحياة، فهو يعلم أنهم مثله على الطريق القويم وأن مصيرهم إذا ما توفوا سيكون نفس مصير رسول الله ﷺ. غير أن خوفه كان على الأمة نفسها أن تتمزق وتتفرق وتتبعثر وتبتعد عن الإسلام، وقد لا تعود إليه أبداً ولا تكون بنفس المسافة التي كانت منه في حياة رسول الله ﷺ إذا لم تكن معتصمة بقيادة واعية تتحمل أكبر قدر من الشعور بالمسؤولية الذي لا يحمله إلا أولئك الذين أعدوا اعداداً خاصاً، وفق النظرة الإلهية ـ لشغل المنصب الإلهي الخطير وتخليص الأمة من شوائب الشرك والجاهلية وأمراضها وسلبياتها.

وهكذا عبر أمير المؤمنين عليه السلام عن حرصه على استمرار الإمامة في أبنائه وبقائهم أحياء بين أبناء الأمة وفي أحضانها. وقد برر بذلك سكوته عن المطالبة بحقه في الخلافة، إذا كان من شأن النزاع في هذه المسألة أن يتسبب في استئصال آل البيت وقتلهم. وذلك يعني أن يحارب أبناء الأمة بعضهم بعضاً، ويعني الاقدام المباشر على خرق الإسلام والانحراف المعلن عنه دون حساب لوجود أية قيادة يمكن أن تستقطب الأمة وتوجهها وتعيدها إلى الصواب.

وقد أعرب عليه السلام عن خشيته من حدوث ذلك واختفاء آل البيت من الساحة التي ينبغي أن يكون ظهورهم عليها واضحاً ومؤثراً.

«فنظرت وإذا ليس لي معين إلا أهل بيتي، فضننت بهم عن الموت، وأغضيت على القذى وشربت على الشجى وصبرت على أخذ الكظم وعلى أمر من طعم العلقم»[2].

---

(١) كشف الغمة في معرفة الأئمة ـ الاربلي ـ النجف ١٩٧٠ ج ٢ ص ١٥٥ وأعلام الورى بأعلام الهدى ـ أبو علي الطبرسي النجفي ط ٣-١٩٧٠ ص١ وبحار الأنوار ـ للمجلسي محمد باقر ـ ط ـ دار الكتب الإسلامية ـ طهران ج ٤٢ ص ٢٥٠.

(٢) نهج البلاغة ١٢١-٤٦٥.

«املكوا عني هذا الغلام لا يهدني، فإنني أنفس بهذين [يعني الحسن والحسين] على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله ﷺ»[١] قالها لما رأى الحسن عليه السلام يتسرّع إلى الحرب في بعض أيام صفين.

«فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنية فاغضيت على القذى وجرعت ريقي على الشجى وصبرت على كظم الغيظ على أمر من العلقم وآلم للقلب من حر الشفار»[٢].

فخوفه عليهم، ليس خوف الذي يتوزع قلبه ويذهب شؤوناً حذر الموت، وإنما خوف المتفاني، المحب لله ولرسوله ﷺ ودينه الحق، وخوف الحريص على أمته أن لا تتفرق أو تتمزق أو ترتد أو تنحرف بعد أن ذاقت نعمة الإيمان ودخلت في رحاب الله ورحمته ودينه القويم.

ملامح من شخصية الإمام الحسن عليه السلام وسيرته

وقبل أن ندخل في ملابسات الصلح وظروفه، لا بد لنا من الحديث عن بعض ملامح شخصية الإمام الحسن عليه السلام. تلك الشخصية التي حاولت الدعاية الأموية التعتيم عليها بحملة ضخمة كرست لها جهود كل أجهزتها وخبرائها. وحاولت اظهاره كشخص ضعيف، محدود الاهتمامات والتجارب، وإن جل اهتمامه كان منصباً على الاكثار من الزوجات وتطليقهن حتى لامه أمير المؤمنين عليه السلام نفسه على ذلك. وبلغت قوة هذه الدعاية بشأنه أنها أخذت لها حيزاً في أذهان الكثيرين من المسلمين

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ٤٨٠ (راجع في ذلك كل كتب الحديث والتواريخ المعروفة كصحيحي مسلم والبخاري وتاريخ الطبري والعقد الفريد وتاريخ الخلفاء للسيوطي ١٧٥ وما بعدها وكتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة ـ أبو الحسن الاربلي ـ النجف ١٣٨٤ هـ وذخائر العقبى/ المحب الطبري ـ دار الكتب العراقية ١٩٦٧م وأعلام الورى بأعلام الهدى ـ الطبري ط ٣ النجف ١٩٧٠ والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ط ٣ النجف ١٩٦٢ والارشاد للشيخ المفيد ط٢/ ٧٢ النجف... وقد أوردنا أسماء بعض المصادر في الهوامش التي وثقنا بها بعض المعلومات والأخبار الواردة بحق الإمام عليه السلام ووالده وأخيه عليه السلام.. وقد ورد ذكر مناقبه وسجاياه وأخباره في عشرات من الكتب الأخرى المعنية بالحديث والتاريخ الإسلامي مما لا يسع ذكره في هذا المجال المحدود هنا.

على مر الأيام وحتى يومنا هذا، رغم ضعف الروايات الواردة بهذا الشأن وضعف رواتها. كما حاولت تصويره كفتى قرشي مترف أكبر همه عند الصلح مع معاوية الحصول على مكاسب شخصية له ولعائلته.

إن صورة الإمام الحسن عليه السلام الحقيقية، تتجلى من خلال شهادات القرآن الكريم، وجده الرسول صلى الله عليه وآله بحقه كما ورد بروايات وأحاديث مؤكدة تشيد به كرمز من رموز الإسلام، وشخصية جديرة بقيادة المسلمين. فهو خامس أهل الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وعصمهم من الشيطان وإدارته ودنياه المظلمة.. وكان حب رسول الله صلى الله عليه وآله له ولأخيه الحسين عليه السلام وإشادته بهما كسيدين من سادة الجنة بل (سيدا شباب أهل الجنة) وقوله صلى الله عليه وآله بأحاديث صحيحة متواترة (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة) ودعوة الناس لتوليهما وحبهما مما لا يمكن اخفاؤه.

وقد تمتع عليه السلام بمزايا روحية وخلقية وعلمية نادرة، جديرة بسليل الرسالة وخريج مدرسة النبوة. ومن كان جديراً بأن يكون سيداً لشباب أهل الجنة في الجنة، فإنه جدير أن يكون سيدهم في هذه الحياة وعلى هذه الأرض. وليس استحقاقه ذلك لمجرد قرابته من الرسول صلى الله عليه وآله، ولا بد أن صفات استثنائية وحصانة خاصة ضمنت له هذا المركز. وأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله بشأنه وخصوصاً حديثه هنا جديرة بالتأمل والملاحظة فما كان الرسول ينطق عن الهوى، وإنما كان ينطق عن الوحي وعن علم واخبار أكيد عن الله سبحانه وتعالى.

وعندما نرى حياته الحافلة المليئة بالأحداث والمزدحمة بزخم هائل من المفردات اليومية المتجهة بمجموعها مشكلة فرائض عبادية متصلة للتقرب من الله سبحانه، نرى أن الإشاعة الأموية لطمس شخصيته وسجاياه لا تصمد أمام واقع هذه الحياة العظيمة.

(أخرج الحاكم عن عبدالله بن عبيد بن عمير قال: لقد حج الحسن خمساً وعشرين حجة ماشياً وإن النجائب لتقاد معه)(١).

وقد ورد بأحاديث موثوقة عن صادق أهل البيت الإمام جعفر بن محمد قوله

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٧٧.

فيه: إن الحسن بن علي عليه السلام كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم، وأنه حج خمساً وعشرين حجة ماشياً وقاسم الله تعالى ماله مرتين أو ثلاث مرات.

وورد عن غيره أنه خرج من ماله مرتين وقاسم الله ماله ثلاث مرات.

وإذا ما ذكرت صلته بالله تعالى، وكيف كان يقبل على فرائضه وعباداته، علمنا أنه كان لا يتيح لنفسه مزيداً من الوقت للاهتمامات الدنيوية العادية التي كان يأخذ بها الشباب المترفون من قريش أنفسهم، وأدركنا بطلان وزيف الإشاعات والأكاذيب الأموية.

لقد كان الإمام الحسن عليه السلام وهو يعيش في صميم الأحداث والمتغيرات المثيرة التي حدثت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ويستوعب فحواها ومحتواها وأغراضها، مشاركاً فعالًا في العديد منها وخصوصاً خلال حكم عثمان وحكم أمير المؤمنين نفسه وبعيد وفاته عليه السلام. ولا شك أن أمير المؤمنين كان يعده لتولي المسؤولية القيادية الأولى في المجتمع الإسلامي، رغم علمه أن الأمور قد لا تصفو له كما لم تصف له هو عليه السلام. وإن الأحزاب التي دخلت بجبهة واسعة ضده بقيادة معاوية ربما ستصبح بوضع أفضل إذا ما غاب عن الساحة بوفاته. وهو ما حدث فعلًا، كما أشارت الأحداث التي وقعت عقيب اغتيال الإمام عليه السلام.

وقد رأينا كيف كان يسفر بين أبيه عليه السلام وبين عثمان إبَّان الأزمة التي نشبت في عهد هذا الأخير بسبب الانحرافات التي حدثت في عهده ورفضه تصحيحها وابعاد ولاة السوء وحاشية السوء من أقاربه ومريديه. (وكان علي كلما اشتكى الناسُ إليه أمر عثمان، أرسل ابنه الحسن إليه، فلما أكثر عليه قال له: إن أباك يرى أن أحداً لا يعلم ما يعلم، ونحن أعلم بما نفعل، فكف عنا! فلم يبعث علي ابنه في شيء بعد ذلك)[1].

وقد أرسل أمير المؤمنين عليه السلام الحسنين يدافعان عن عثمان، وقد روي أن الحسن عليه السلام ممن نصر عثمان[2] وكان ذلك بأمر من أبيه.

وحتى هذا أمر استغله أعداء أمير المؤمنين عليه السلام وقد أشاعوا أن الحسن عليه السلام عثماني الهوى ومعنى ذلك أنه قام بما قام به من السفارة بين أبيه وبين عثمان ثم الدفاع

(١) و(٢) العقد الفريد ٥-٥٨-٥٩-٤٢-٤٨ وتراجع مصادر أخرى ذكرناها عند التعرض لمقتل عثمان كتاريخ الطبري وابن الأثير والمسعودي وغيرهما.

عنه عند استفحال الفتنة واحتمال حدوث ما لا تحتمل عقباه بوحي من نفسه وأنه تصرف تصرفاً شخصياً بحتاً. مع أن الذي أرسله أمير المؤمنين عليه السلام، لأنه رأى كما عبر عن ذلك ـ إن هذا القتل إن تم فإنه سيفتح باباً للقتل والفتن أمام الأمة لن يسد بعد ذلك. وهكذا كان حريصاً بوحي من نظرته المبدئية وحرصه على مستقبل المسلمين أن يمنع الفتنة جهد امكانه مع أنه يرى أن الأحداث كانت تتسارع باتجاهها.

ولم يرو لنا كتاب واحد من كتب التاريخ أن الحسن عليه السلام كان يتصرف في هذه القضية خصوصاً دون استلام أوامر محددة من والده عليه السلام.

مواقف منسجمة مع الوعي والمسؤولية

وعند استلام أمير المؤمنين عليه السلام ارث الخلافة الذي شيب بالمشاكل والنزاعات والأحزاب والفتن، كان للإمام الحسن عليه السلام دور بارز في تعزيز مسيرة الإسلام وقطع الفتن. وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد (استنفر أهل الكوفة لحرب الجمل، فأقبلوا إليه مع ابنه الحسن رضي الله عنه)(١).

(ووجه علي بن أبي طالب الحسن ابنه، وعمار بن ياسر إلى أهل الكوفة يستنفرانهم فنفر معهما سبعة آلاف من أهل الكوفة.. وخرج علي في أربعة آلاف من أهل المدينة، فيهم ثمانمائة من الأنصار، وأربعمائة ممن شهد بيعة الرضوان مع النبي صلى الله عليه وآله. وراية علي مع ابنه محمد بن الحنفية، وعلى ميمنته الحسن وعلى ميسرته الحسين وعلى الخيل عمار بن ياسر وعلى الرجالة محمد بن أبي بكر وعلى المقدمة عبدالله بن عباس)(٢).

وقد رأينا دور الإمام الحسن في حرب صفين وكيف كان يندفع إلى القتال حتى كان الإمام عليه السلام يرسل خلفه من يمنعه من التوغل في صفوف العدو.

كان جندياً باسلًا من جنود الإسلام، لم يتردد لحظة في اقتفاء خطى والده عليه السلام والوقوف على الخط الأول في أي مواجهة أو حرب خاضها أمير المؤمنين ضد أعدائه.

(١) العقد الفريد ٤-١٦٠.

(٢) المصدر السابق ٦٣-٦٤.

صد التحركات الأموية

وكان ملاحظاً خبيراً وواعياً وراصداً جيداً لكل تحركات وأقوال وتصرفات الأعداء، ولم تفته الصفقة التي عقدها معاوية مع عمرو بن العاص وأدرك قذارتها وطبيعتها التساومية كما أدرك حاجة كل منهما للآخر وهما يتصديان لأمير المؤمنين عليه السلام. علماً أن هذه الصفقة انطلت على جماهير كثيرة من المسلمين عزز من ذلك حيلة ومكر الرجلين، حتى أنه عمراً كان وجهاً مقبولًا في مهزلة التحكيم. فقد روى أبو موسى الأشعري ـ الطرف الثاني في هذه المهزلة ـ قال: (أخبرني الحسن قال: علم معاوية والله، إن لم يبايعه عمرو لم يتم له أمر، فقال له يا عمرو، اتبعني. قال: لماذا؟ للآخرة؟ فوالله ما معك آخرة؛ أم للدنيا؟ فوالله حتى أكون شريكك فيها! قال: فأنت شريكي فيها. قال: فاكتب لي مصر وكورها. فكتب له مصر وكورها وكتب في آخر الكتاب: وعلى عمرو السمع والطاعة. قال عمرو: واكتب: أن السمع والطّاعة لا ينقصان من شرطه شيئاً. قال معاوية: لا ينظر الناس إلى هذا. قال عمرو: حتى تكتب. قال: فكتب، والله ما يجد بداً من كتابتها)[1]. فقد كان الحسن عليه السلام كما يلوح لنا متابعاً يقظاً لمناورات الأعداء وأحابيلهم، وكان منتبهاً إلى طبيعة الرجلين، اللذين قيض له أن يواجههما سوية في النهاية. رجلان يعترفان بأنهما يعملان للدنيا وأن لا آخرة معهما.. لا يعملان بوحي من دين أو عقيدة، وإنما بوحي من مصالح وطموح كبير للملك والسلطان والمغانم.

إن هذا يجعلنا نعلم أن الحسن عليه السلام كان يدرك تمام الادراك طبيعة الطرف الآخر المنافس، وأنه لا يتورع عن حرق الأرض بمن عليها لو أدرك أنه الخاسر في النهاية.

وقد لام عليه السلام حبيب بن مسلمة، بعد أن انحاز إلى صف معاوية مؤثراً ترك أمير المؤمنين عليه السلام قائلًا: (اطعت معاوية على دنيا قليلة، فلعمري لئن قام بك في دنياك، لقد قعد بك في دينك. ولو أنك إذ فعلت شراً قلت خيراً، كنت كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[2] ولكنك كما قال جل وعز: ﴿كَلَّا بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ

---

(١) نفس المصدر ٥-٩٢.

(٢) التوبة: ١٠٢.

قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1])[2].

كان الحسن عليه السلام واثقاً من نفسه ومركزه وعلمه، ولم يكن متردداً في أي موقف وقفه أيام حياته، وتجلت ثقته بنفسه وأهل بيته في تصريحات عديدة له حاول أن يبين للناس من هم آل البيت عليهم السلام وما هي منزلتهم عند الله وعند النبي صلى الله عليه وآله . . وكان هذا التصريح تأكيداً له دلالته الكبيرة بوجه كل من يحاول غمط فضائل آل البيت وطمسها أو التعتيم عليها، فقد قال عليه السلام: (من أتانا لم يعدم خصلة من أربع: آية محكمة وقضية عادلة وأخاً مستفاداً ومجالسة العلماء)[3].

اعتراف أموي بالفضائل العلوية

وحتى عدوه اللدود معاوية اعترف ـ لكن بمجلس خاص ـ بفضائل آل البيت، ويبدو من تصريحه أنه كان متيقناً من هذه الفضائل، لكن ما يفعل رجل مثل معاوية أمام اغراءات طويلة عريضة تتاح له وقد حان قطافها وأكلها. . فقد روى (العتبي عن أبيه: أن عتبة بن أبي سفيان قال: كنت مع معاوية في دار كندة، إذ أقبل الحسن والحسين ومحمد، بنو علي بن أبي طالب، فقلت: يا أمير المؤمنين إنَّ لهؤلاء القوم أشعاراً وأبشاراً وليس مثلهم كذب، فإذا قاموا فذكرني بالحديث، فلما قاموا، قلت يا أمير المؤمنين، ما سألتك عنه من الحديث؟ قال: كل القوم كان يعلم وكان أبوهم من أعلمهم)[4].

وطبيعي أن معاوية ما كان يحب لشهادته هذه أن تذيع بين المسلمين بحق علي وآله، ولم يطلع عليها إلا أخاه عتبة مطمئناً إلى كتمانه وصمته وانحيازه إليه.

إن بحثنا هنا ليس ترجمة كاملة للحسن عليه السلام وتناول كل جوانب حياته وأبعاد شخصيته العظيمة، فذلك ما لا يتمكن منه باحث واحد، غير أنه ينصب على الظروف التي دعته لمصالحة معاوية والتنازل عن حقه في الخلافة وهي المسألة التي ـ كما قلنا ـ أثارت جماهير واسعة من المسلمين وجعلتهم بين مؤيد له ومعارض. لأن ملابساتها

---

(١) المطففين ١٤.

(٢) و(٣) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ دار الفكر ج ٢ ص ٩٣ ـ ١٩٧ تحقيق عبد السلام محمد هارون.

(٤) العقد الفريد ٥-٣٥.

لا يمكن أن تحل إلا على ضوء فهم توجهات وتصورات وطموحات الإمام نفسه، وهذا ما نحاوله في هذا البحث الموجز.

(الصلح) لا يعني المساومة

وهناك نقطة جديرة بالتأمل وهي عدم لجوء الإمام الحسن عليه السلام إلى المساومة على حساب التنازل عن بعض مبادىء وقيم الإسلام، رغم أن موقف المساومة قد يكسبه قوة أو نصراً مؤقتاً بحساب القيم الأرضية البحتة، إلا أنه كان يشعر أنه سيكون ضعيفاً وخاسراً أمام الجهة الوحيدة التي كان يحسب لها حساباً حقيقياً، وهي الله سبحانه وتعالى. فكما لم يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ورفضه، ورفضه أمير المؤمنين عليه السلام من بعده عندما أبى أن يدع معاوية وعمال عثمان على مناصبهم، ورفضه الإمام الحسين عليه السلام كذلك فإن الإمام الحسن رفض اللجوء إلى هذا الأسلوب وآثر الفعل المباشر، شمّر للحرب بكل جد عندما وجد أَنّها الأسلوب الأمثل وصالح عدوّه وأعلن شروط الصلح على رؤوس الأشهاد عندما رأى أنه الأسلوب الأمثل للحفاظ على البقية من آل الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه ودينه.

كتب إليه عبدالله بن عباس عندما ولي أمر الناس بعد أمير المؤمنين: (أن شمّر للحرب، وجاهد عدوك، واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم دينك، وول أهل البيوتات تستصلح عشائرهم)[1].

فهو يدرك أنه إنْ لجأ إلى أسلوب معاوية وطريقته في معالجة الأمور ـ سيفقد ثقة المسلمين ويجعلهم ينظرون إليه كإنسان لا يختلف عن منافسه في شيء، ولعل معاوية سيكسب من ذلك الموقف أضعاف ما يتوقع أن يكسبه هو منه، هذا إضافة إلى أن اللجوء إلى أسلوب معاوية سيجعل اتجاه الصراع واحداً وهو الإتجاه الدنيوي البحت الذي لا يحسب أي حساب لقيم السماء العليا.

وهو أمر لا نستغربه من الإمام الحسن عليه السلام، كما لم يستغربه منا من اطلع على موقف مسلم بن عقيل وقد أتيحت له فرصة اغتيال ابن زياد، فرفض ذلك رغم أن قتله قد يغير من وجه المسألة كلها. وهو ليس عجيباً بنظر من عرف الإسلام وآمن به.

---

(١) العقد الفريد ٢٥-٢٦ و ٥-١٠٩.

ثورة الحسين عليه السلام نتيجة طبيعية لصلح الحسن عليه السلام

ولا بد لنا ـ أيضاً ـ قبل مناقشة موقف الإمام الحسن عليه السلام من معاوية بالذات بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام أن نعلم أن الأئمة كانوا ينطلقون في مواقفهم وتصرفاتهم من منطلق واحد ونظرة واحدة، وأن لهم معياراً واحداً لا يحيد فيه أي أحد منهم عن الآخرين. ولا بد أن نعلم أيضاً أن الإمام الحسن عليه السلام امتلك نفس التصور الذي حمله أمير المؤمنين عليه السلام، ونفس النظرة الكلية الشمولية للإسلام والحياة بشكل عام. . كما أن الإمام الحسين عليه السلام امتلك نفس تصورهما وشعورهما وانطلق في مواقفه وتصرفاته على هذا الأساس. كما سنبين ـ بعون الله ـ ذلك. . . رغم التباس الأمر على العديدين وتصورهم اختلاف موقفي الإمامين عليهما السلام من الدولة الأموية ومن معاوية بالذات. فمقابل الصلح الذي عقده الإمام الحسن عليه السلام بعد وفاة أمير المؤمنين، تصور البعض ان بامكانهم تحريض الامام الحسين عليه السلام بعد وفاة الامام الحسن عليه السلام وجره إلى مواجهة فعلية مع معاوية. وذلك ما رفضه الإمام الحسين عليه السلام لأنه أدرك أن المواجهة لن تكون في صالح المسلمين وستكون نتيجتها ابادة حملة الإسلام الحقيقيين واستئصالهم، واستمر عليه السلام على نفس النهج الذي سار عليه أخوه عليه السلام من قبل. مع أنه كان يستعد في الوقت المناسب للثورة على هذه الدولة، وذلك ما أضمره ونواه، وقام به في الوقت المناسب، عندما سقطت الأمة جثة هامدة بين يدي يزيد.

وقد عبر عن ذلك الإمام الحسين عليه السلام بنفسه عند وفاة الإمام الحسن عليه السلام، عندما قدم عليه المسيب بن عتبة الفزاري في عدة معه (فدعوه إلى خلع معاوية وقالوا: قد علمنا رأيك ورأي أخيك، فقال: إني لأرجو أن يعطي الله أخي على نيته في حبه الكف وأن يعطيني على نيتي جهاد الظالمين)[1].

وعلى ذلك فلا ينبغي أن نتصور تناقضاً في السلوك والمواقف بين الإمامين أو بين الأئمة فيما يبعد.

فالإمام الحسن عليه السلام كان نتاجاً طبيعياً لأمير المؤمنين عليه السلام. ولعل الفرص التي أتيحت له هو ولأخيه الحسين عليه السلام، لم تتح لأحد قبلهما قط، إذ أنهما شهدا رسول الله صلى الله عليه وآله وعاشا في ظله، وكانا الوحيدين اللذين بايعاه وهما لم يزالا بعد طفلين

---

(١) ابن كثير ٨-١٦٤.

بعد، وقد تعلما القرآن والتفسير عن والدهما وورثا عن أبيهما وجدهما كل صفاتهما الفائقة.

فقد روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: (بويع رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر وهم صغار ولم يبايع قط صغير إلّا هم)[1].

ولعل حنان جدهما صلى الله عليه وآله وحبه المفرط لهما، وحرصه عليهما كان يتجاوز حدود المحبة الابوية بين الأب وأبنائه.. ولقد كان حباً في الله. ولا بد أنه صلى الله عليه وآله كان يعلم الدور الذي سيلعبانه في حياة الأمة المسلمة، والظلم الذي سيلحق بهما وبأبويهما على أيدي من جاء لتخليصهم واخراجهم من الظلمات إلى النور، فتفيض نفسه حسرات على أولئك الذين كان ينبغي أن يطيعهم الجميع وينقادوا إليهم ويقتدوا بهم، بدلًا من التصدي لهم ومحاربتهم وسلبهم حقوقهم وعزلهم عن مركزهم ومراتبهم التي رتبهم الله فيها.

وكانت الفترة التي أقصي فيها أمير المؤمنين عليه السلام عن مركزه فتره طويلة نسبياً (حوالي ربع قرن)، أتيح فيها لولديه عليهما السلام أن يستفيدا من قربه منهما، وعدم انشغاله كلياً بالأمور العامة، فكانت فرصة عظيمة لهما لتلمس كل الجوانب العظيمة التي حفلت بها شخصيته وأن يستمدا منه جوانب قوته وعظمته ويكونا نسخة منه. وكانت تلك البدايات الأولى التي أتيح لهما فيها أن يتربيا في الأحضان الطاهرة لأبيهما رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه وأمهما الزهراء البتول وأبيهما أمير المؤمنين عليه السلام، كأنها كانت مكرسة لاعدادهما اعداداً خاصاً للقيام بأعظم الأدوار التاريخية التي شهدها الإسلام، لتصحيح الانحرافات في أخطر فترة عاشتها الأمة بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام.

ولم تكن تلك الانحرافات التي حصلت، بالتي يمكن تصحيحها بقول مجرد أو فعل عادي، كان لا بد من تحرك كبير يهز وجدان الأمة ويريها أنها تنحرف حقاً، وأنها قد ابتعدت عن الخط الذي رسمه لها رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهذا ما فعله الإمامان كلاهما.

وما قاما به قد هز وجدان الأمة حقاً، وأخرجها عن حالة الرتابة والجمود التي

---

(١) العقد الفريد ٥-٢٥.

وجدت نفسها عليها، بعد تسلط الطغمة الأموية وامتداد نفوذها وقوتها إلى أرجاء الوطن الإسلامي في ذلك الحين.

إنَّ إشادة أمير المؤمنين عليه السلام بآل بيت الرسول صلى الله عليه وآله لم يكن من قبيل التحيز المجرد للعائلة والقرابة كما يفعل البعض، وإنما كانت إشارة موحية للأمة للتمسك بهم وبنهجهم ـ كما رأينا في دعوته القوية والمستمرة لذلك. وإذا ما أباح أحدهم لنفسه أن يتشكك في موقف الإمام عليه السلام ويعزوه إلى عاطفة القرابة والرحم، فإن لنا في الشواهد العديدة التي دلت على فضل هؤلاء وفي مقدمتها القرآن الكريم، كلام الله المنزل، وأقوال رسول الله صلى الله عليه وآله، ما يجعلنا على يقين من مؤهلاتهم الاستثنائية وقدراتهم الفائقة، التي تشكل امتداداً طبيعياً لمؤهلات وقدرات الرسول الكريم صلى الله عليه وآله نفسه، الذي اختصه الله بالرسالة وحمله هذه الأمانة العظيمة ليوصلها إلى البشرية كافة في كل أنحاء المعمورة، وليظل خطابه مباشراً من خلالهم للناس كافة يمس قلوبهم وضمائرهم دائماً، وليظل قريباً من كل أحد عرف هذه الرسالة وشعر بحلاوتها وطعمها.

الذرائعية الأموية تمهيد للانحراف المعلن ــ معاوية مثالًا

وإذا ما تمادى أحد بالشك في فضل هؤلاء، وتأول في تفسير الآيات النازلة بحقهم، وفسر أقوال الرسول صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام بشأنهم بأنه نابع من عاطفة أبويه حميمة، وإذا ما ذهب آخرون بأن التأويلات والأحاديث التي وردت بحق آل البيت إنما كانت مصادرها كتب الشيعة وموروثاتهم الثقافية والأدبية وغيرها وحسب. فإن نظرة منصفة إلى تصنيفات ومؤلفات وصحاح وكتب المسلمين من أبناء السنة في التفسير والحديث السيرة، ترينا أنَّ المسألة تبعد عن ذلك بكثير. فهي ليست مسألة صراع بين السنة والشيعة، ذلك (الصراع) الموهوم الذي زرعه معاوية وبث بذوره منذ البداية وحاول أن يدخل طرفاً فيه، ويختار الجهة التي يمكن أن تقف إلى جانبه لمحاربة أمير المؤمنين عليه السلام، ولا شك أنه قد اختار أن يوحي بأن من كانوا شيعة لعلي عليه السلام والذين حاربوا تحت لوائه، كانوا أعداء لبقية المسلمين من (السنة والجماعة) الذين تزعمهم معاوية بعد (عام الجماعة) مع أن المذاهب الإسلامية قد ظهرت في عهد متأخر كما أوضحنا.

وكانت معادلة غريبة، أن يمثل معاوية هؤلاء جميعاً ويكوِّن منهم جبهة عريضة

من المسلمين، ويوحي لهم بأن أمير المؤمنين عليه السلام كان يعمل ضدهم وضد مصالحهم، هو وشيعته، وأنه، أي معاوية، كان الوحيد الذي يمثل هذه المصالح ويسعى لتحقيقها على أرض الواقع الذي ابتعد عنه الإمام كثيراً بزعمه. !!.

وقد دلت أحاديثه عل ذلك بوضوح ودون تحفظ. قال لأهل المدينة: (إني سلكت طريقاً لي فيه منفعة ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مؤاكله حسنة ومشاربه جميلة ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة. فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم)[1].. وقال لهم أيضاً: (فاقبلوا بما فينا، فإن ما وراءنا شرٌّ لكم وإن معروف زماننا منكر زمان مضى، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت)[2] .

وقال: (وأما أنا فمالت [الدنيا] بي وملت بها، فهي أمي وأنا ابنها، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم)[3].

إن كلام معاوية وخطبه تمهد لأوسع خطوات الانحراف المقبل الذي كان يعدُ له ويتوقعه من خليفته يزيد، وكان يعد الأمة لتركن إليه وتتقبله على أنه انحراف أو انحدار طبيعي لا بد منه، وأن تسكت عنه فلا تغير أو تبدل.

وقد أصبح نهج معاوية هذا الملائم والموافق لحاجات السلطان في كل زمان ومكان شريعة تفسخ شريعة محمد صلى الله عليه وآله الأولى، لأنها تحقق أكبر قدر من الفائدة له وتجعل الناس مستسلمين خانعين لا يتوقعون أي تغيير أو يسعون إليه بأي حال وتحت أي ظرف.

إن الأمر الوحيد الصحيح هو أن يكون الجميع شيعة لله وكتابه ورسوله صلى الله عليه وآله وسنته، لا شيعة لمعاوية وأتباعه ومريديه.

ولسنا بحاجة إلى أن نقارن بين من نصبوا من أنفسهم ممثلين للمسلمين ومصالحهم بحجة أنهم من أبناء (السنة والجماعة)، وبين من كان ممثلًا حقيقياً للإسلام بأفعاله وأقواله واستقامته.. وهو ممثل السنة والجماعة حقاً.

---

(١) ابن كثير ٨-١٣٢.

(٢) العقد الفريد ٤-٨٢-٨٣.

(٣) المصدر السابق ٣٦٤-٣٦٥.

غير أن دروب الانتهازية والمصالح والسياسة العمياء التي ترى مصالح السلطان فوق كل شيء، وتتخذ من الآخرين مطايا لتنفيذها، وتحمل عليهم ما تريد تحميله. وتجعل من المسلمين شيعاً وطوائف حتى تمرر عليهم مخططاتها وألاعيبها. . !.

إن تاريخ المسلمين أحرى أن يدرس من هذه الزاوية، ويرى الجميع كيف أن المطامع الشخصية والنزوات الحيوانية، ودوافع الجهل والغرور في نفوس الذين جعلوا من أنفسهم على رغم أنوف المسلمين (الملأ والصفوة والقادة)، ووثبوا على أكتاف الأمة في غفلة عنها. . هي التي حددت بعض ملامح ومسارات هذا التاريخ، وحاولت جعل الأغلبية من المسلمين من طائفة الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كل ناعق ليسهل التأثير عليهم وقيادتهم وجرهم لتنفيذ السياسات الجاهلية الرعناء.

لأن الأمة متى ما وصلت إلى هذا الحد تكون قد ماتت، لأنها لم تعد تمتلك مقومات الوجود والبقاء كأمة إسلامية، ولا تعود الأكثرية تشعر بالظلم والحرمان وحالات البؤس والجهل التي أوصلها إليها حكامها الطامعون على مر الزمان. وفي هذه البيئة، بيئة الجهل والانحطاط والانحراف وحدها يتمكن هؤلاء الحكام من تحقيق مصالحهم ويظلوا متسلقين فوق أكتاف الأمة يسيرونها كيف شاءوا ويجعلوها سلماً لأغراضهم.

مصادر أهل السنة تعلن الفضائل العلوية

نقول: إذا ما حاول أحد أن يدعي أن طائفة من المسلمين (وهم الشيعة هنا) بالذات، قد تأولوا الآيات المنزلة بحق آل البيت ونسبوا الفضل إليهم، وفسروا أحاديث الرسول ﷺ على هواهم، بل ربما قاموا هم بوضعها. . !! فإننا نرده إلى مصادر المسلمين من (أبناء السنة) أنفسهم، أولئك المنصفين، الذين لم ينجرفوا وراء تقسيمات معاوية المزعومة ومن جاء بعده للمسلمين على أساس يثبت مصالحهم كما تبين لنا وقائع التاريخ. وأوردوا (علماء السنة ومحدثوهم وعلماؤهم) من أهل البيت إشارات واضحة لا ينبغي بعدها أن تهمل أو تتغلف ببعض ظلال الشك التي حاول الحاقدون وضعها لطمس اليقين والقول الصّادق الفصل، فهل على المسلمين ان يتحملوا المزيد من الظلام والجهل، وقد أتيحت لهم فرص المعرفة والدرس والتمحيص والنظر والتدقيق. ؟ وهذا دينهم يدعوهم دائماً إلى ذلك ويحاول تحريرهم من كل جمود أو تحجر أو جهل.

فلنرجع إلى مصادر أهل السنة التي تحدثت عن فضائل آل البيت ونسبتها نسبة صحيحة إلى القرآن الكريم وإلى الرسول ﷺ . . لنرجع عشرات المصادر تلك ومنها كتب الصحاح، وإلى (السيوطي في كتابه (الدر المنثور في تفسير كتاب الله بالمأثور في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قال: أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبدالله. قال: كنا عند النبي ﷺ فأقبل علي عليه السلام فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ونزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾[1] وأورد السيوطي الحديث عن طرق أخرى، كابن عباس وابن مردويه، وروى بعض هذه الأحاديث عن ابن حجر في الصواعق المحرقة عن الدارقطني، وحدث أيضاً عن أم سلمة أن النبي ﷺ قال: «يا علي أنت وأصحابك في الجنة» ورويت أحاديث عديدة في نهاية ابن الأثير بهذا المعنى، وكذلك عن الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار) روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا علي إذا كان يوم القيامة أخذت بحجزة الله تعالى وأخذت أنت بحجزتي وأخذ ولدك بحجزتك وأخذ شيعة ولدك بحجزتهم، فترى أين يؤمر بنا».

ولو أراد المتتبع لكتب الحديث مثل مسند الإمام أحمد بن حنبل وخصائص النسائي وأمثالهما أن يجمع أضعاف هذا القدر لكان سهلًا عليه. .»[2].

وقد أوردنا بعض ما أحصاه الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي في كتابه المراجعات حول فضائل علي وآله عليهم السلام. ويعيينا أن نجد كتاباً من كتب الحديث أو التفسير أو السيرة يخلو من فضائلهم وإشادة القرآن والرسول الكريم ﷺ بهم.

وليس رسول الله ﷺ، المؤتمن على كلام الله وعلى رسالته مما يمكن أن تزين له نفسه بعض الأهواء البشرية العادية وينطق عن هوى وعاطفة مجردة. فهذا القائد الحاني الذي لا يرى أمامه إلا مصلحة أمته وسعادتها وخيرها لا يتكلم جزافاً ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾[3].

إنه ﷺ يرى في نفسه وفي أمير المؤمنين وولده عليهم السلام نماذج للإسلام الحي

---

(١) البينة: ٧.

(٢) أصل الشيعة ٨٧-٨٨.

(٣) النجم ٣-٥.

المتحرك، وقد أراد الجميع أن يكونوا شيعة لهم جميعاً معتقدين بهم متابعين لسيرتهم ملتزمين بذلك.

ولم يرد الرسول ﷺ أن يكوّن الإمام من بين المسلمين فئة خاصة به تتشيع له ويترك البقية يتخبطون في الظلام والجهل والضلال. بل أراد الجميع أن يسيروا على سنته ﷺ. ومن أجدر أن يفهم ويفسر ويمثل هذه السنة تمثيلًا حقيقياً من علي عليه السلام.

ونعيد هنا ما سبق أن قلناه: لنتخلص من آثار معاوية وقيوده وتأثيراته وطموحاته والركام الأسود الذي ألقاه في طريق المسلمين عبر مسيرتهم الطويلة.. ونتخلص من تلك المسميات التي قيدنا أنفسنا بها، وننظر إلى تاريخنا نظرة واعية متفحصة جديدة، وننظر مجدداً إلى أمير المؤمنين وآله وإلى معاوية وآله من خلال تصور إسلامي صحيح، قائم على المبادىء لا على المصالح الشخصية. لمجرد أن دولة قامت لآل أمية وتسلطت على المسلمين، وأنها تسمت بالإسلام ورفعت بعض شعاراته التي وظفتها الدولة لمصلحتها وفائدتها، ولنعزل معاوية عمن سبقه من الخلفاء، فهو نفسه قد اعترف بأنه لم يكن يسير سيرتهم وأنه ليس مثلهم. وأنه إذ يعترف بالعجز عن مجاراتهم، فإنه يعلن رفضه لهم. (لقد رميت نفسي على عمل بن أبي قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه، وأردتها على عمل بن الخطاب فكانت أشد نفوراً وأعظم حرباً من ذلك. وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبت عليَّ.. وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟.)[1] إضافة لتصريحات عديدة مماثلة أكد فيها أنه لا يمكن أن يستجيب لنهج من سبقه من الخلفاء. فهل كان سيستجيب لنهج رسول الله ﷺ أم أنه سيرى أنه نهج مستحيل التطبيق وغير عملي..؟ وكيف كان سيستجيب لمنهج أمير المؤمنين عليه السلام وعدله الصارم؟ أترى أنه أشاد بالخلفاء السابقين حباً بهم؟ أم كرهاً لأمير المؤمنين عليه السلام؟ ألم يتناولهم بالشتيمة والخروج عن الإسلام برسالته إلى محمد بن أبي بكر؟.

لننظر بعين أبي ذر وعمار بن ياسر لا بعين عمرو بن العاص والمغيرة وابن أبي معيط ومروان وأضرابهم.

---

(١) ابن كثير ٨-١٣٢.

لنزيح ذلك الظل الأسود الذي ألقاه الأمويون على تاريخ قادة الإسلام الحقيقيين فحاولوا تشويه شخصياتهم وعرضهم علينا كأناس بعيدين عن واقع الحياة، ولا يمكن أن يحققوا للأمة الإسلامية أو الدولة الإسلامية أية قوة أو رفعة أو نفوذ. وأنهم مجرد أناس حلقوا في أجواء حياة مثالية لم تتح للأمة أن تشهدها إلا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وحسب ولن يمكن إعادة هذه الأجواء ثانية.

لنتخلص من أفكار الدولة الطاغوتية وتصوراتها، ونعود إلى الدولة المحمدية ونبحث عن ممثليها الحقيقيين، وندرس بوعي الشخصيات التي أعدت لقيادة هذه الدولة وبسط سلطانها الذي هو سلطان الله على الأرض بالكيفية والشكل الذين أرادهما الله سبحانه ورسوله، لا تلك التي أرادها معاوية وحزبه والسائرون في ركابه من الانتهازيين والمصلحيين والمرتدين والجهلة وأضرابهم.

«.. والله للذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس

ولا شك أننا إذا تمعنا في تاريخنا وتراثنا الباقي الخالد الذي لا نتمسك به كأثر غابر قديم، بل كشيء حي يعايشنا ويشخص أمامنا دائماً ولا غنى لنا عنه، تتجلى لنا عظمة تلك الشخصيات الكبيرة التي لعبت أدواراً كبيرة في مسيرة الأحداث، والتي لقيت عنتاً وظلماً كبيرين لم يمنعها من أداء مهامها الدقيقة بمواظبة وعزم وجرأة.

ولا شك أن الإمام الحسن عليه السلام كان إحدى تلك الشخصيات التي برزت في أحلك وأقسى وأدق فترة مرت بها الأمة الإسلامية على الاطلاق، ولأنه كان صورة عن أبيه، يحمل نفس تصوراته ونفس فهمه للإسلام، استطاع بفضل ما امتلكه من علم كرس له حياته في رحاب أبيه وجده صلى الله عليه وآله، فإنه استطاع أن يصمد أمام معظلة كبيرة وقفت فيها الأمة على مفترق طرق متعددة، ويخرج منها بحل كان من شأنه أن يحفظ الإسلام والصفوة المختارة من المسلمين.

لقد كان معاوية يتزعم أكبر قوية عسكرية ضاربة متمثلة بستين ألف جندي مدججين بالسلاح، مطيعين، غير مخالفين ولا متسائلين ولا شاكين بنوايا معاوية وأغراضه وأهدافه، انقادوا وراءه انقياداً أعمى، تقف وراءهم فئة واسعة من أهل الشام والأحزاب الحاقدة على أمير المؤمنين عليه السلام وفي مقدمتها قريش. وقد رأى أن الفرصة أصبحت متاحة أمامه بعد اغتيال أمير المؤمنين عليه السلام للسيطرة الكاملة على أقطار المسلمين ومقدراتهم.

وكانت الأمة في تلك المرحلة الدقيقة قد بدأت بوادر استعدادها للاستسلام لمعاوية وألقت السلاح وأعربت عن استعدادها للتخلي عن الإمام الحسن عليه السلام وعن كل قضاياها المبدئية والتزامها بدينها القويم.

وهنا لا بد أن يبرز دور الإمام الحسن عليه السلام، القائد الحقيقي للأمة والمسؤول الأول عنها وعن مصيرها، لا على طريق شقها وتكبيدها المزيد من الخسائر والويلات وإنما لجمعها واستقرارها وثباتها واتاحة الفرصة أمامها لالتقاط أنفاسها والتفكير في الواقع المؤسف الذي وضعه فيها خروج معاوية على أمير المؤمنين عليه السلام، ولتتاح لها فرصة التفكير والمراجعة والنظر بأحوالها على ضوء هذا الواقع الذي وصلت إليه أو الذي أوصلها إليه أعداؤها في واقع الأمر.

وبغض النظر عن الروايات التي قيلت بشأن الإمام الحسن عليه السلام والتي نسبت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، بأن الله سيصلح به بين فئتين من المسلمين. فإن ما حدث فعلًا هو أنَّ الله قد جعل صلاح الأمة وثباتها على يديه، بل وجعل حياتها ومستقبلها رهينين بتصرفه في أحرج ظرف مرت به الأمة بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام وإلى هذا أشار الإمام محمد الباقر عليه السلام حفيد الحسين عليه السلام قائلًا: (والله للذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس)[1]. كما أن روايات أخرى صحيحة تدل على أنه ما كان يختار إلا طريق الإسلام واستقامته ونهجه، ذلك الذي رآه رؤية واضحة من خلال جده وأبيه، والذي لم يكن له هدف إلا انتهاجه دون أن يحيد ويتراجع أو يتعب.

وقد كان وعد رسول الله صلى الله عليه وآله له ولأخيه الحسين عليه السلام مسبقاً بأنهما سيدا شباب أهل الجنة بأحاديث صحيحة مسندة تجمع عليها كل كتب الحديث والسيرة، دليل على النظرة الصائبة للرسول صلى الله عليه وآله، وعلم من العلم الذي علمه الله سبحانه وتعالى، بأن هذين الإمامين ما كانا وهما ينشآن في مدرسة الرسول صلى الله عليه وآله نفسه ويكملان المسيرة في مدرسة أبيهما أمير المؤمنين عليه السلام، ما كانا إلا ليسيرا على نفس النهج الذي سار عليه أولئك القائدان العظيمان وما كانا إلا واصلين بر الأمان بنجاح رغم صعوبة الطريق وشراسة العدو.

(١) روضة الكافي ج ٨ ص ٣٣٠.

ولم تكن حياتهما في ظل أبيهما أمير المؤمنين عليه السلام مما يمكن أن تتشابه مع أمثال يزيد وأشباهه من العاطلين العابثين. فجشوبة العيش وخشونة الحياة التي أخذ أمير المؤمنين عليه السلام بها نفسه وعائلته، لم يكن يتحملها إلا أولئك الذين وجدوا مسرات أخرى تنسيهم هذه الحياة المادية الحافلة، خصوصاً وأن الكثيرين من أبناء (الصحابة) الذين استأثروا بالأموال الطائلة كانوا قريبين منهما، يعيشون مرفهين منعمين ميسورين.

وهناك العديد من الدلائل والأخبار التي تشير إلى التزامهما نهجاً صارماً في الحياة لا يقدر عليه إلا من فهم الإسلام حقاً ووعاه من الصفوة النادرة من آل الرسول صلى الله عليه وآله أنفسهم.

إن حلاوة الإسلام وحنان الأب الذي يحتضنهما، وهو يعدهما لمهمة قيادة الأمة بعده ورصد تصرفات أبنائها والعودة بها إلى الطريق السوي كلما حاول أن ينحرف بها منحرف جعلتهما ينسيان كل مغريات الحياة وترفها ونعيمها، ولا يتطلعان إلا لمثلهما الأعلى وخالقهما العظيم، فلا يريان أي شيء إلا ويريا الله معه وفيه وخلفه وأمامه كما كان أبوهما عليه السلام من قبل.

لقد أعدهما أبوهما عليه السلام على نهج رسول الله صلى الله عليه وآله ونهجه هو، قائدين للأمة وإمامين، لا مجرد متسلمين للسلطة. . كان لا بد للإمامة أن تستمر فيهما بعد أن ينتهي دور أبيهما عليه السلام بوفاته، وكان التزامهما بنهج جدهما صلى الله عليه وآله وأبيهما عليه السلام من بعده التزاماً دقيقاً وصارماً ضمانة كبيرة لاستكمال كفاءتهما وتأهلهما لهذه المهمة الكبيرة، مهمة قيادة الأمة على نفس النهج ومنعها من الانحراف والانزلاق والابتعاد عن خط الإسلام.

وهكذا فإن الرسول العظيم صلى الله عليه وآله قد أدرك ببصيرته الثاقبة وعلمه الذي تعلمه من لدن العليم الخبير هذه المهمة المعدة لهذين الإمامين بعد أن عمل على اعدادهما منذ البداية من خلال أمير المؤمنين عليه السلام، وأنهما سيكونان إمامي هذه الأمة يحفظانها بنفس الطريقة التي حفظها بها أبوهما رغم القوى التي تصدت لهما بشراسة وعنف.

ولقد صرح صلى الله عليه وآله بجلاء ووضوح ـ حفظته لنا كل كتب الحديث «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا» في أي حال يكونان عليه، وإمامتهما مفروضة على الأمة واجبة. ولا حاجة للأمة بأكثر من هذا التصريح.

عقلية قريش وعقلية الإسلام

أما قريش، فمن أعرف بها من رسول الله ﷺ، ومن أعرف من أمير المؤمنين عليه السلام بها. لقد وقفت منذ البداية ضد الإسلام وتصدت له بعنف، غير أنها استسلمت وتراجعت وأحنت رأسها أمام الموجه الإسلامية العظمى، وآثرت أن تسير معها بدلًا من أن تغرق و (تضيع) كما صور لها خيالها الجاهلي المريض. وكما دخلت الإسلام صاغرة منقادة، بعد أن هزمت في كل معاركها ضده، استطاعت بعد وفاة الرسول ﷺ أن تتسلق إلى مواقع قريبة من الزعامة، بل وأن تكون جزءاً منها وأن تسطو على مكاسب الأمة، وتشكل طبقة غنية جديدة (استثمرت) الإسلام، ووظفته لمصالحها وأغراضها.

وهل يتوقعا من قريش المنهزمة المهانة أن تنسى حقدها، وتنسى كرامتها وكبرياءها التي ديست ومصالحها التي حسبت أنها ستنهار إلى الأبد؟.

ولا بد أنها حسبت في النهاية، أنها لولا ما تتمتع به من ذكاء ودهاء ومكر وعقلية تجارية مشهود لها، لسحقها الإسلام إلى الأبد، ولما استطاعت أن تعود إلى مركزها وزعامتها، بل وإلى أقوى مما كانت عليه، بعد أن امتد الإسلام إلى كل أنحاء الجزيرة العربية وأنحاء أخرى من العالم. وهكذا أتيح لها أن تفكر بحساباتها هي وبعقليتها نفسها وتصوراتها نفسها أيضاً. تلك الحسابات والعقلية والتصورات الجاهلية القديمة التي كانت التجارة والربح والخسارة في مجال المال محورها. غير مستطيعة أن تفكر بمقياس القيم والمبادىء الجديدة التي أرساها الإسلام وأراد أن تقوم كل أمور الحياة عليها، ونسخ كل الأساليب والمبادىء والقيم الجاهلية القديمة البائدة.

أحنت قريش رأسها أمام رسول الله ﷺ، لم تستطع أن تخفي كراهيتها وحقدها على أمير المؤمنين عليه السلام، الذي أفلها وقتل رجالاتها و تحمل عبئاً كبيراً في حماية الإسلام، ورأت فيه مؤهلات نادرة وظفها لخدمة الإسلام ورأت فيه ميلًا كلياً إليه، أصبح معه لا يرى إلا الله وعدالته وحكمته وقدرته.

كان الإسلام كل شيء لديه، ولم يكن شيء ليثنيه عن القتال في سبيله وقول كلمة الحق التي عرفها حق المعرفة ودافع عنها بحياته. وكان إذا ما أخذ موقعه المرتقب خليفة على هذه الأمة، خليقاً أن لا يفسح المجال لتجار قريش وملئها

وكبارها ومترفيها أن يتزعموا مرة أخرى، ويتسلقوا إلى قمة السلطة والنفوذ مرة أخرى، كما أرادوا بعد وفاة رسول الله ﷺ. ولن يبدو أمامهم معه أي مجال للمساومة أو التنازل عن بعض المبادىء والقيم.

وعلي هو الذي كسر شوكتها بسيفه المجرد وصدره العاري وجسمه المكشوف فلم يصمد أمامه أحد في قتال أو نزال. كما لم يصمد أمامه أحد في رأي أو قول أو حكمة أو موقف. وكان من شأن العدالة التي لا بد أن يستمر في ارسائها واقامتها، كما أقامها رسول الله ﷺ، أن تميت ذلك الطموح القرشي المضطرم وذلك التوثب للصدارة دائماً. وكان شبابه عقبة كبيرة أمام شيوخها الطموحين الطامعين، وأمام شبابها النزقين المستهترين. ومن شأن الفترة الزمنية الطويلة التي سوف تمتد أمام هذه الفتوة وهذا الشباب أن تكبح إلى الأبد جماح القوة القرشية التي استسلمت مضطرة مخفية نواياها ومخططاتها الغادرة.

كما اختار الله الرسول ﷺ اختار الإمام عليه السلام

وحتى عند ما تردد الرسول ﷺ باعلام المسلمين عن وصيته بخصوص خلافة أمير المؤمنين عليه السلام من بعده، خشية قيام من يرد عليه الأمر، ويثير بسبب ذلك فتنة قد لا تنتهي، ورأى أن الأمر ثقيل على نفوس عديدة، ولن تتقبله عن رحابة صدر، وربما كادت للإسلام من خلال الكيد له عليه السلام مستغلة صلة القرابة الوثيقة والاخوة الحميمة بين النبي ﷺ والوصي عليه السلام لاثارة الشكوك حتى بنزاهة النبي ﷺ.!! مع أنه ﷺ أشار إليه إشارات واضحة في مناسبات عدّة، وأراد الأمة كلها أن تعرف عمق ما تمتع به من كفاءات نادرة وامكانات لم تكن لتتاح لأي فرد آخر منها، وقد أوردنا قسماً منها في الفصلين الأول والثاني من هذه الدراسة.

وكما اختار الله محمداً ﷺ لرسالته وهي خاتمة الرسالات، فلماذا لا ينبغي علينا أن ندرك من النص الصريح من رسوله الكريم ﷺ، أنه قد اختار علياً إماماً لاكمال المسيرة التي بدأها ﷺ وتوضيح مفردات الدين الإسلامي وتفصيلاته وتشريعاته وأموره العديدة التي امتدت لتشمل كل جوانب الحياة وتشعباتها مستجداتها ومتغيراتها.

وكان ينبغي لخاتمة الهالات، ان تكون مؤهلة لحل كل المشاكل الموجوده والمتوقعة التي قد تصطدم بها الامة وهي تعيش حياتها المتغيرة الحافلة.

يتلقى الامام كل ما ينبغي تعلمه من علم عن الهول مع تسديد الهي يعصمه من الخطأ كما يعصم الهول ﷺ نفسه، لتظل مسيرته صحيحة ونقة الامة به مطلعة لا تتردد ولا تجم عن السيرة وراءه لاكمال الشوط مهما كانت مصاعب الطريق ثقيلة وصعبة.

وكان ينبغي ان يكون الامام افضل أهل زمانه علمهم بدين الله واقومهم على الاسلام، وكانت الصفات الفضلى موجودة عند علي عليه السلام بلا شك وعند أولاده من بعده. وإذا ما طرحنا التحيز المسبق والمواقف المبينة المتوارثة عن الآباء والاجداد جانباً، وإذا ما درسنا حياة أولئك الأئمة الكرام دراسة موضوعية متفحصة دقيقة، واستندنا في ذلك إلى كتب أهل السنة وحدها فقط، فمن لم (يتشيعوا)، لرأينا ان آل البيت عليهم السلام قد امتازوا بصفات متفردة لا يساويهم بها احد، صفات الامامة والقيادة لهذه الامة على خط الهول ونهجه دون تعثر أو انحراف وميل أو ضلال. وذلك هو ما ادعى عدوهم اللدود انه غير قادر عليه، وادعى ان لا أحد من الأمة يقدر عليه، بل ويقدر حتى على سنيّات عثمان على حد تعبيره.

وكان النبي ﷺ محقاً بتردده في بداية الامر على النص على امامة أمير المؤمنين عليه السلام من بعده، لما كان يعرف من تأثير قريش على الناس، إلى ان حسمت المسألة بأمر الهي مباشر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾(١)، ورغم تصريحه ﷺ بعد ذلك في غدير خم على امامة أمير المؤمنين عليه السلام، فان قريشاً تناست ذلك وانكرته.

ان نفس السبب الذي دعا علياً عليه السلام إلى السكوت عن المطالبة بالخلافة لنفسه بعد وفاة رسول الله ﷺ وقد واجهته قريش كلها، هو نفس السبب الذي دعاه بعد ذلك إلى شن الحرب على معاوية، وهو: الحفاظ على الاسلام ووحدة المسلمين، وايقاف كل انحراف قد يقدم عليه الآخرون باسم الاسلام وفي ظله، رغم معرفته بنفسه ومن هو وما هو ومعرفته بقصد الآخرين عن مجاراته في أي مجال. وهو نفس السبب الذي دعا الإمام الحسن عليه السلام عن السكوت عن حقه رغم علمه بحقيقة معاوية، مع ان سكوته وصلحه ليس اقراراً نهائياً لمعاوية وسلالته بالبقاء على السلطة،

---

(١) المائدة: ٦٧.

وانما بالبقاء لأجل محدد، لحين وفات معاوية. ثم يعود الامر من بعده إليه، وإذا ما حدث له أمر فيعود الأمر إلى اخيه الحسين عليه السلام.

وقد اشترطت وثيقة الصلح اضافة لذلك التزام معاوية بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله [1] أي انه لم يمنح بموجبها حرية العمل بشكل كيفي كما يرى، وانما على أساس الاسلام ومبادئه وقيمه واحكامه.

وهكذا نالت قريش من علي واولاده عليهم السلام، وهكذا وقفت شوكة في حلقه وقذى في عينيه وشجى في قلبه، حتى اشتكى منها شكواه المرة، مرة بعد مرة، فقد علم انها تلعب بحماس وانها غير مستعدة للتنازل عن المكتسبات التي حققتها بعد غياب رسول الله صلى الله عليه وآله، مهما بذلت من خسائر، اذ ان معنى ذلك بالنسبة لها فقدان كل شيء، كيانها وشخصيتها ومكاسبها وكبرياءها. إلى الأبد، وهذا ما لم تكن لتسمح به على الاطلاق.

لا تبكيا على شيء زوي عنكما

ولعل أمير المؤمنين عليه السلام قد رأى بعين البصيرة الثاقبة موقف قريش وزعامتها الجديدة فيما بعد ويؤول الأمر بعده إلى الإمام الحسن عليه السلام فلا يستتب له ولا يستقيم، ويتكرر الأمر نفسه بعد ذلك مع الحسين عليه السلام، فأراد أن يعدهما لذلك، ويهون عليهما ما سيلقيانه من الطامعين والحاقدين والمارقين، فأوصاهما قبيل وفاته قائلًا: (أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء زوي عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، واغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصيماً وللمظلوم ناصراً واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم)[2].

فهو لم يوصهما بالقعود عن نصرة الحق واغاثة الملهوف والمظلوم، حتى وإن ظلما واغتصب حقهما. إنَّه يدعوهما لفعل ايجابي بناء من شأنه أن يري الأمة أن المبادىء وقيم الإسلام أهم لديهما من حقهما الخاص، وإن كلمة الحق والعمل بكتاب الله ومخاصمة الظالم، ينبغي أن لا تكون ذريعة القعود عنها، هو ما نالهما من

---

(١) الفصول المهمة ـ ابن الصباغ المالكي ط ٣/ المطبعة الحيدرية ـ النجف ١٩٦٢.

(٢) الكامل في التاريخ ٤/ ٢٥٧.

ظلم وما قد يتوقعانه من اضطهاد أو أذى. . وينبغي أن لا يتجرأ الحاكم على الأمة كلها من خلال التجري عليهما شخصياً. . وأن تشخص مظلمتهما أمام الأمة دائماً لا كأناس ضعاف لا يملكون دفاعاً عن أنفسهم، وإنما كممثلين حقيقيين للمبادىء والقيم، ظلماً على هذا الأساس ولهذا السبب.

وقد تزعم معاوية في النهاية حملة قريش ضد أمير المؤمنين عليه السلام، كما تزعمها أبوه من قبل ضد النبي صلى الله عليه وآله. واستمرت الحرب سجالًا بعد ذلك. وقد رأينا موقف الإمام عليه السلام الصلب من معاوية وأشباهه، وكيف أنه لم يساومه ولم يجامله ولم يقره على الشام كما أقره عليها من كان قبله.

وما كان معاوية بالذي ينسى كل ذلك، وما كان لينسى مواقف الرسول صلى الله عليه وآله ضد قريش وطغيانها وكبريائها، وينسى مواقف أمير المؤمنين عليه السلام الذي قتل من آل أمية مقتلة جسيمة، وما كان بالإنسان الذي لا يحقد ولا يضمر السوء. ومع وجود الإمام عليه السلام كان يرى لنفسه فرصة لسلب الخلافة والجلوس على كرسي رسول الله صلى الله عليه وآله والاستئثار به لنفسه، فكيف إذا ما خلت الساحة برحيل الإمام عليه السلام بعد اغتياله من قبل ابن ملجم الخارجي. ؟.

كيف كان معاوية سينظر إلى خلو الميدان من أمير المؤمنين عليه السلام؟ وكيف كان سيتحرك هذه المرة لمواجهة الإمام الحسن عليه السلام، الذي رأى أن رصيده لدى الأمة لم يكن ليبلغ نفس رصيد أمير المؤمنين؟.

وكيف كان سيحرك اعلامه وقصاصيه وفقهاءه وشعراءه و (صحابته) المحترفين المأجورين. ؟.

وكيف سيبث اشاعاته وألاعيبه وتلفيقاته بين صفوف المقاتلين السائرين خلف الحسن عليه السلام؟.

وكيف سيوزع (أمواله) ورشواته ولمن يمنحها هذه المرة؟.

لا بد أن (دهاءه) و (ابداعه في المكر) والخديعة سيعتمد استراتيجية جديدة.

لقد كان كل شيء مهيأ (لخدمته) وتنفيذ أغراضه. . فالجيش الذي يقوده الإمام الحسن عليه السلام وغالبيته من أبناء الكوفة قد تعب من شد الرحال إلى الشام منذ أيام صفين خلف أمير المؤمنين، وقد ترك خلفه منذ تلك الأيام آلاف الضحايا من الشهداء والأرامل واليتامى.

أما جيش معاوية فكان قريباً من الشام، باق في مكانه لم يشد الرحال إلى العراق.

لقد فقد العراقيون حماسهم الذي غالباً ما كان أمير المؤمنين عليه السلام يحاول تأجيجه كلما خمد وانطفأت جذوته، وهم يخوضون حرباً طويلة ضد معاوية، وقد فقدوا في النهاية قائدهم المحبوب العادل الذي جرعوه الغيظ اعتماداً منهم على عدالته وسماحته وعدم انجرافه وراء نزوات الغضب وسوء الظن والأخذ على التهمة والشك. وحسب كثيرون منهم أن معركتهم ستكون خاسرة بعد غياب الإمام عليه السلام حتى وإن كان يقودهم الحسن عليه السلام نفسه.

المغامرة.. أم كشف العدو

وننظر إلى بعض ملابسات القضية الأخرى: فنضيف إلى ما عرضناه بعض الأسباب الأخرى التي دعت الحسن عليه السلام للصلح مع معاوية، ونصف بعض الأحداث التي رافقت تلك الفترة العصيبة.

فقد استطاع معاوية استمالة أعداد كبيرة من الناس من ذوي التأثير والنفوذ إلى جانبه في حياة أمير المؤمنين عليه السلام وبعد وفاته. وإذ لم يجد بعضهم الجرأة لترك أمير المؤمنين عليه السلام واعطاء مجرد وعود لمعاوية بأنهم سيظلون على الحياد أو سيكونون إلى جانبه، فإن غياب أمير المؤمنين جعلهم يستعيدون بعض الجرأة المفقودة ويعلنون انحيازهم إلى صف معاوية. وكانت جرأته على أمير المؤمنين عليه السلام في حياته كفيلة بأن تقوى بعد وفاته على خليفته الإمام الحسن عليه السلام. وإذا ما أضفنا العوامل التي ذكرناها من قبل، وقيام معاوية باستنفار كل أجهزته للعمل بطاقتها القصوى لحسم المسألة وأن الإمام الحسن عليه السلام أصبح يواجه مجتمعاً مرهقاً متساهلًا بقضايا المبادىء والقيم. أصبحت الأسباب التي دعت الإمام الحسن عليه السلام إلى الصلح واضحة أمامنا. إذ معنى استمرار مقارعة معاوية وحربه، هو قيام الأخير باستئصال آل البيت وبقية المسلمين المخلصين استئصالًا نهائياً دون أن يجرؤ أحد من المسلمين على رفع يد أو سيف.

إن الجاهلية الأموية ستعلن عن وجهها القبيح حينذاك صراحة، ولن تلجأ حتى إلى رفع شعارات الإسلام الظاهرية. إن قتل الأئمة واستئصالهم من شأنه انقطاع دور الإمامة نهائياً. وقد علمنا فيما مضى أن معاوية لم يكن يتورّع حتى عن قتل الأطفال من

ذريتهم حتى تخلو له الساحة ولا يعد يمضه التفكير في القادمات من الأيام حيث يمكن أن يظهر من يطالب بالخلافة أو يتصدى لتقويم الانحراف.

إن معاوية الذي (اكتمل نصره) باغتيال أمير المؤمنين وأصبح يعيش حالة احتفالية استطاع من خلالها توظيف الأمور واظهارها وكأن الله سبحانه وتعالى كان يقف إلى جانبه وينصره.

وفي غمرة هذا النصر، كان معاوية سيقدم بجرأة بالغة وتنكر شديد لكل القيم التي ادعى التزامه بها وخروج معلن عن الإسلام وشراسة منقطعة النظير على استئصال آل البيت والصفوة من المسلمين. ولن يجد من يجرأ على الغضب لهم، ولن يثير كوامن السخط عند أولئك الذين قبلوه بديلًا لرسول الله ﷺ. وسيضيع دمهم هدراً في غمرة الضجة والأحداث المتلاحقة التي أَعقبت اغتيال الإمام عليه السلام.

وهذا أمر ينبغي الالتفات إليه هنا؛ فلا يحسبن أحد أن الإمام الحسن عليه السلام كان سيخطو خطوة مغامرة من شأنها القضاء عليهم نهائياً، وقد تسبب فرقة الأمة وتوزعها إلى الأبد. وقد تذل من قبل معاوية الذي أقبلت عليه الأيام وأصبح هو القوة الكبرى في العالم الإسلامي.

وكما حرص أمير المؤمنين عليه السلام على أهله منذ البداية، كما أوضح لنا هو في أسباب قعوده عن المطالبة بحقّه، حرص الامام الحسن عليه السلام على أهله كذلك وخاف عليهم، إذ لم يجد أحداً غيرهم معه في نهاية المطاف. وكأنه علم علم اليقين ببصيرته الثاقبة وقراءته لواقع الأمة إن الأمر سيسلب منهم في النهاية، وسينازعهم عليه قوم لا يضارعوهم بشيء، غير أنهم اتفقوا على حربهم والخروج عليهم. وقد قال لأخيه الحسين عليه السلام: «وإني والله ما أرى أن يجمع الله فينا أهل البيت النبوة والخلافة».. فعقلية قريش لا تتحمل ذلك. لا تتحمل أن يسود محمد ﷺ ودين محمد إلى النهاية.

اجتمعوا على باطلهم. وتفرقتم عن حقكم

على أن قوماً عديدين ممن لم يطلعوا على وقائع التاريخ يحسبون أن الإمام الحسن قد استسلم وصالح معاوية حال وفاة أمير المؤمنين ، وأنه سار إليه بمجرد إشارة من يده، متناسين أن معاوية قد طمع في الأمر لنفسه حال و فاة أمير المؤمنين

فعلًا، وأنه دعا الإمام الحسن للتنازل عن الخلافة، غير أنه جوابه بالرفض الشديد مع أنه كتب إليه يمنيه أموراً عديدة منها أن يكون هو الخليفة من بعده.

لقد استنفر الإمام الحسن جيشه فعلًا لمحاربة معاوية، وقد (خرج بالناس حتى نزل المدائن، وبعث قيس بن سعد على مقدمته في اثني عشر ألفاً، وأقبل معاوية في أهل الشام حتى نزل مسكن)[1] وهنا لعبت الإشاعة دورها الفاعل في جيش الإمام عليه السلام، الذي كان يعيش حالة نفسية سيئة اثر اغتيال أمير المؤمنين عليه السلام والذي أرهقه القتال المتواصل مع جيش الشام، والذي كان يعيش أيضاً حالة تمزق وفرقة نتيجة استمالة بعض رؤسائه وقادته وشرائهم من قبل معاوية، والذي كان أيضاً يختلف بمستواه الفكري ومستوى ولائه للقيادة العامة للدولة الإسلامية وقيادة القبيلة (فبينا الحسن في المدائن إذ نادى منادٍ في العسكر: إلا أن قيس بن سعد قد قتل، فانفروا، فنفروا ونهبوا سرادق الحسن عليه السلام حتى نازعوه بساطاً كان تحته)[2].

لقد بلغ من تخاذل وضعف الجيش الذي بعثه الإمام عليه السلام طليعة من قيس بن سعد، أنه اختار برمته الدخول في طاعة معاوية عندما (قام قيس بن سعد في الناس،

---

(١) و(٢) الطبري ٣-٦٥ وابن الاثير ٣-٢٧١.

على أن أخطر إشاعة روجتها الدعاية الأموية هي الادعاء بأن الإمام الحسن عليه السلام كان يكاتب معاوية سراً، وقد ثبت هذه الاشاعة بشكل واسع حتى أن بعض المؤرخين اعتقدوا بها وانطلت عليهم هذه الكذبة الفاضحة (وكان معاوية يدس إلى عسكر الحسن من يتحدث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه، ويوجه إلى عسكر قيس من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه.. ووجه معاوية إلى الحسن المغيرة بن شعبة وعبدالله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن أم الحكم، وأتوه بالمدائن نازل في مضاربه، ثم خرجوا من عنده، وهم يقولون ويسمعون الناس: إن الله قد حقن بابن رسول الله (ص) الدماء وسكن به الفتنة وأجاب إلى الصلح، فاضطرب العسكر ولم يشكك الناس في صدقهم فوثبوا بالحسن فانتهبوا مضاربه وما فيها فركب الحسن فرساً له ومضى في مظلم ساباط وقد كمن الجراح بن سنان الأسدي، فجرحه بمعول في فخذه... وحمل الحسن إلى المدائن وقد نزف نزفاً شديداً، واشتدت به العلة فافترق عنه الناس، وقدم معاوية العراق فغلب على الأمر، والحسن عليل شديد العلة، فلما رأى الحسن أن لا قوة به وأن أصحابه قد افترقوا عنه فلم يقوموا له صالح معاوية، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، وقد سالمت معاوية «وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين» تاريخ اليعقوبي ـ دار صادر ـ بيروت م ٢ ص ٢١٤-٢١٥.

فقال: يأيّها الناس، اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة، والقتال مع غير إمام؛ قالوا: لا بل تختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة، فبايعوا لمعاوية)[1].

وقد بدأت محاولة جدية لقتل الإمام عليه السلام بعد البيعة بقليل (فلم يلبث الحسن عليه السلام بعدما بايعوه إلا قليلًا حتى طعن طعنة اشوته، فازداد لهم بغضاً وازداد منهم ذعراً)[2].

ومما زاد الأمر سوءاً تراجع قائد جيش الإمام عليه السلام الذي بعثه طليعة لجيوشه، وربما كان عبيدالله بن عباس، وهو هذا القائد، قد لمس عوامل الضعف والانحلال والتخاذل في جيشه وربما أثرت عليه الاشاعات التي ترددت حول عزم الإمام على الصلح فأراد أن يبادر لاسترضاء معاوية بالتخلي عن الإمام عليه السلام وذلك دون علم الإمام، مما أتاح ذريعة لبعض الناس للانضمام إلى معسكر معاوية، فإذا كان قائد جيشه وابن عمه يفعل ذلك، فلا شك أنهم يواجهون قضية خاسرة، فقد كتب إلى معاوية (يسأله الأمان ويشترط لنفسه على الأموال التي أصاب، فشرط له ذلك معاوية وبعث إليه ابن عامر في خيل عظيمة، فخرج إليهم عبيدالله ليلًا حتى لحق بهم، ونزل وترك جنده الذي هو عليه لا أمير لهم فيهم قيس بن سعد)[3]. وهكذا جاء قولهم لقيس إنهم يختارون الدخول في طاعة إمام ضلالة، وهو معاوية، رغم معرفتهم وتيقنهم بأنه إمام ضلالة. إذ ما يفعل الجند أمام خيانة واستسلام قائدهم؟.

وفي هذا الحال، عندما استلم قيس قيادة طليعة الجيش المتخاذل وانتشرت إشاعة قتله بين جيش الإمام، كانت هذه الإشاعة هي المعول الذي دك آخر الحصون وقضى على آمال الإمام عليه السلام بالحفاظ على جيشه قوياً متماسكاً بمواجهة جيش معاوية القوي المتماسك والمستجيب لمعاوية والمندفع وراءه اندفاعاً تاماً دون حدود ودون تساؤلٍ عن طبيعة الحروب التي يخوضها والغرض منها، فقد روي عن عمرو بن العاص قوله: (رأيت معاوية في بعض أيامنا بصفين خرج في عدة لم أره خرج في مثلها، فوقف في قلب عسكره فجعل يلحظ ميمنته فيرى الخلل، فيبدر إليه من يسده. ثم يفعل ذلك بميسرته، فتغنيه اللحظة عن الإشارة)[4].

وكانت مواجهة ذلك الجيش المتماسك بشبح جيش، يعني التضحية

(١) المصدر السابق ١٦٥-٢٧٣.
(٢) نفس المصدر ١٦٧.
(٣) نفس المصدر ١٦٨.
(٤) العقد الفريد ١-٢٥.

بالمخلصين من جند الإمام عليه السلام الذين لا بد سيندفعون إلى النهاية وراءه ويعني الانتحار الأكيد والوقوع في أسر معاوية إلى قتله واستئصال آله وأصحابه. وستذهب دماؤهم هدراً في غمرة الأحداث المتلاحقة وفي غمرة شعور معاوية بالنصر والزهو، ولن تجد الأمة من يثأر لدمائهم أو يتصدى لفضح وكشف النظام الذي سينفرد بالسلطة.

إن بقاء الإمام عليه السلام حياً شاخصاً في الساحة أمام الأمة وتكريس وقته لتبصيرها بأمور دينها، سيتيح الفرصة أمامها لتكشف الفرق بينه وبين معاوية، وتكشف زيف الادعاءات الأموية بالحرص على مستقبل الإسلام وبقائه مشعاً، وأنهم لم يندفعوا إلا وراء الأطماع الشخصية لتخريب الإسلام وارجاع الأمة إلى جاهلية جديدة.

شروط الصلح

وهكذا وافق الإمام عليه السلام على الصلح وشرط على معاوية شروطاً ـ أخل بها معاوية في النهاية ـ. وتكشف الشروط المثبتة بوثيقة الصلح عن المستوى الإيماني الفريد الذي تمتع به الإمام، ومستوى الشعور بالمسؤولية والحرص العالي على تماسك الأمة واعادتها إلى وعيها وإلى مستواها الأول القريب من الإسلام.

ومما جاء في بنود الوثيقة أن يقوم معاوية بتولي شؤون الناس على أساس كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وأن يمتنع عن سب أمير المؤمنين عليه السلام، وأن يتولى الإمام عليه السلام شؤون الأمة وقيادتها بعد وفاة معاوية وإذا حل أجله فالحسين عليه السلام، وأن يصدر عفو عام عن كل من كان له موقف مناوىء لمعاوية، وأن يأخذ ما بيده من أموال. وهذا البند الأخير أراد منه الإمام التمتع بثروة يفتح له الصرف على من حرموا من العطاء في ظل التصرّف والتوزيع الكيفي للأموال، ومن هؤلاء بعض اتباع الإمام والموالين له.

وقد لخص الإمام الحسن عليه السلام موقفه من الصلح وسبب توقفه عن القتال عندما خطب قائلًا: (أنا والله ما ثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم امام دنياكم وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم)[1].

(١) ابن الأثير ٣-٢٧٢.

هكذا تبدلت معادلة الإيمان في نفوس المسلمين الذين كانوا يقاتلون مع أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وانحسر الإسلام من النفوس، وخالطت العداوةُ السلامة والجزَعُ الصبرَ، وضعفت قيم الإسلام في النفوس بفعل القوى المعادية، وأصبحت القيم الأرضية الواطئة تفعل فعلها في النفوس التي استسلمت وضعفت.

وكان الإمام عليه السلام يريد أن يلفت نظر المسلمين إلى حالهم ذاك. ولم يكن يريد أن يفعل ذلك لمجرد تقريعهم ومحاسبتهم والشماتة بهم، وإنما أراد أن ينتبهوا إلى أخطار الغزو الأموي للإسلام وإلى ما عصف بهم وجعلهم على هذه الحال التي وصلوها. وأرادهم أن يتخلصوا منها فيما بعد، بعد أن يروا ما ستؤول إليه أمورهم نتيجة هذا التخاذل المخزي والتخلي الفاضح عن المبادىء والقيم التي أراد أمير المؤمنين عليه السلام تربيتهم عليها واعدادهم على أساسها.

وقال عليه السلام، عندما سئل: (ما حملك على ما فعلت؟ كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبداً إلّا غلب. ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هوى، مختلفين لا نية لهم في خير ولا شر. لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً. فليت شعري لمن يصلحون بعدي؟)[1].

في مقابل جيش معاوية الذي لا يرى أمامه إلا معاوية سار الإمام بهذا الجيش المتخاذل المتفكك الذي لا يحمل توجهاً واحداً ولا رأياً أو هوى واحداً، والذي بدأ يمل الحرب والرحيل إلى الشام لمقاتلة معاوية منذ أواخر عهد أمير المؤمنين عليه السلام نفسه.

ولا بد أن نتيجة الاختلاف في الرأي والهوى ستكون الهزيمة الساحقة، ليس له شخصياً وإنما لهم؛ فهم شريحة مهمة من هذه الأمة، وواجهة من واجهاتها وقد نهضت للحرب، وكان مفترضاً فيها أن تكون من الشرائح وعياً وعلماً وادراكاً لواجباتها وقد أُتيح لها أن يعيش إمام الأمة عليه السلام بين ظهرانيها. فكيف بها وقد قعدت نهائياً ولم تنهض للقتال مع ابنه الإمام الحسن عليه السلام..؟.

ومع علمهم بوضعهم وتخاذلهم واختلافهم في الرأي والهوى، فقد واجه بعضهم الإمام عليه السلام بعد الصلح محتجين على ذلك، وقد أجابهم عليه السلام قائلًا: (يا

---

(١) المصدر السابق ٢٧٤.

أهل العراق، إنه سخي بنفسي عنكم ثلاث، قتلكم أبي، وطعنكم أياي، وانتهابكم متاعي)(١).

لقد كان موقف الإمام الحسن عليه السلام احتجاجاً قائماً على الأمة المتخاذلة، وتقريعاً شديداً لها؛ إذ تخلت عنه وهو يستعد لخوض معركته العادلة ضد معاوية، وتراجعت بكل صراحة حتى أعرب بعض أبنائها بكل جرأة عن رغبتهم الصريحة بالتسليم لإمام ضلالة. وهكذا أعربوا عن تنازلهم عن مبادئهم وقيمهم التي حاول أمير المؤمنين عليه السلام أن يربيهم وينشئهم عليها. وكان يريدهم أن يعودوا يوماً من الأيام، حتى وإن تطاول الزمن وابتعد، إلى موقفهم الأول، وكانوا يخوضون الحرب مع أمير المؤمنين في صفين ودينهم أمام دنياهم.. لقد كان عليه السلام يعلم أنهم سيتراجعون. ولم يكن من السهل عليه أن يستسلم لمعاوية أو يسلمه المتخاذلون أو المساومون إليه، ذلك الاستسلام الذي لا تفهمه الأمة وقد يكون هو شخصياً ضحية وهدفاً مباشراً له متعرضاً للوم اللائمين وشماتة العاذلين والقالين.

ولعل مسالمة معاوية وهو في موقف قوي ـ ولا يزال بعد قوياً ـ أفضل من مسالمته بعد قتال قد يسفر عن انتصار معاوية وأخذ الإمام أسيراً أو قتله، وفي الحالتين تكون الخسارة فادحة، كما عبر عن ذلك عليه السلام في بعض إشاراته.

لقد كان موقف الإمام عليه السلام حكيماً وصائباً حينما استطاع أن يمنع النهاية الفاجعة التي كانت ستنتهي بقتله وقتل آل بيته وأصحابه.

وقد علم ببصيرته النافذة وعلمه الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وبما امتلكه من إيمان ووعي أن خط أصحابه لن يكون ملتقياً مع خط الدولة الأموية المتجبرة، وأنها ستلجأ إلى منعهم أرزاقهم ومعاشاتهم وعطاءهم.. وهكذا فإنه عندما قبل أن يأخذ من معاوية المبالغ التي عرضها عليه، فإنه جنّبهم بها هوان الفقر وذل العوز والحاجة إلى الدولة الجديدة وتملقها والتنازل لها؛ هذه الدولة التي كانت ستمنع عنهم دون شك عطاءها ولن تبدي لهم الكرم الذي تبديه لأعوانها، وضمن عليه السلام لهم بذلك سبل المعيشة والارتزاق.

---

(١) المصدر السابق ٢٧٢ والطبري ٣-١٦٨-١٦٩-١٦٥.

فضح الحكومة الطاغوتية

وقد أثبت الإمام عليه السلام صلابته واستقلال موقفه بعد الصلح، وقد حاول معاوية جره إلى ألاعيبه واستخدامه لتنفيذ أغراضه حاسباً أنه سيتنازل إلى الحد الذي يتملقه فيه وينفذ كل رغباته، فعند خروجه من الكوفة إلى المدينة وجه إليه معاوية أن يكون هو المتولي لمحاربة الخوارج وقد رفض الحسن عليه السلام ذلك قائلًا: «والله لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين، وما أحسب أن ذلك يسعني؛ فكيف أن أقاتل قوماً أنت أولى بالقتال منهم؟ فلما رجع الجواب إليه وجه إليهم جيشاً أكثره من أهل الكوفة»[1]. فقد أفصح في جوابه لمعاوية عن رأيه فيه، وأنه لم يكف عن قتاله إلا خوفاً من حقن دماء المسلمين مع أنه كان أولى بالقتال من الخوارج، كما أنه ليس بصاحب قضية أو مبدأ يقاتل عنه، وإنما يقاتل لتوطيد ملكه وسلطانه. وما كان الإمام عليه السلام ليساعده بهذه المهمة. وقد عبر عن رفضه لذلك. كما عبر عن رؤيته الصادقة لآل محمد صلى الله عليه وآله، وتكلم عن سنة إلهية تتحدث عن دول الطواغيت القائمة على أسس واهية والتي تحمل معها عوامل سقوطها واندثارها، وكان ايجازه في التعبير وبلوغه القصد بكلمات قليلة مبعث تشاؤم لمعاوية الذي استجاب لعمرو بن العاص الذي حسب أن الإمام عليه السلام قد يضعف بعد الصلح وأنه إذا ما قام خطيباً أمام أهل الكوفة الذين كانوا وراءه بالأمس، فقد يعجز عن الكلام، فتقل قيمته في نظرهم (وكان عمرو بن العاص حين اجتمعوا بالكوفة قد كلم معاوية وأمره أن يأمر الحسن أن يقوم ويخطب الناس، فكره ذلك معاوية، وقال: ما تريد إلى أن يخطب الناس؟ فقال عمرو: لكني أريد أن يبدو عيُه للناس؛ فلم يزل عمرو بمعاوية حتى أطاعه، فخرج معاوية فخطب الناس، ثم أمر رجلًا فنادى الحسن بن علي عليهما السلام، فقال: قم يا حسن فكلم الناس، فتشهد في بديهة أمرٍ لم يروّ فيه، ثم قال: أما بعد، يا أيها الناس، فإن الله قد هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول، وأن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2])[3].

لقد كان عليه السلام يدرك أن عمر دولة الظلم لن يكون طويلًا، وكان كلامه تحذيراً لمعاوية من التمادي في الانحراف والخروج المتعمد عن الإسلام.

---

(١) العقد الفريد ١-١٨١.

(٢) الأنبياء: ١١١.

(٣) الطبري ٣-١٦٧-١٦٨.

نقض الوثيقة، تأكيد لمنهج الانحراف

لم يف معاوية بالطبع ما وعد به الإمام الحسن عليه السلام . . واعتبر وثيقة الصلح ملغية منذ اللحظة الأولى من توقيعها، فقد كانت الشروط الواردة فيها كفيلة بتقييده والحد من حركته. وربما كان الإمام عليه السلام يدرك ـ بل يعلمه معاوية ـ أنه لن يفعل ذلك. . غير أنه أراد بذلك أن يقر له معاوية بحقه الطبيعي في الخلافة، مع أخيه الحسين عليه السلام بعد ذلك وأنهما ليس بطارئين عليها ولا أحد أحق بها منهما.

كان معاوية ينظر للأمر كله وكأنه لعبة سياسية بحتة لا دخل فيها للدين والقيم الإلهية التي يرى أنها لا تصلح للحياة العملية ولا تتوافق مع الملك والسلطان، وكان ينظر إلى اليوم الذي يرى ابنه يزيد خليفة من بعده، وكان حبه له يفوق كل قيمة عليا لديه، وقد قال ـ هو نفسه ـ فيه: (ولولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي)[1]. . لقد كان يدرك خطل رأيه باستخلاف يزيد من بعده، وكان يدرك نقطة الضعف هذه لديه.

وكان الأمر أكبر ما يحتمله معاوية بعد ذلك ـ وهو ينظر نظرته الأرضية البحتة ـ عندما يرى ابنه يزيد ويرى أبناء الآخرين من المهاجرين والأنصار وعموم قريش والمسلمين. وحتى أبناء الرسول صلى الله عليه وآله أنفسهم، أولئك الذين شن عليهم حربه الظالمة، ورأى فيهم منافساً خطراً له. ولم يكن من المعقول أن يتنازل ويعطيهم عن طيب خاطر ما حارب لأجله ـ هو وآله ـ عشرات السنين.

قال معاوية: (أنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، فابني أحب إلي من أبنائهم)[2].

وهكذا امتد الانحراف واتسع حين قبلت الأمة أن يكون يزيد خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وبديلًا عن الحسن والحسين عليهما السلام، الإمامين بوصية جدهما صلى الله عليه وآله، سيدي شباب أهل الجنة.

تحصين الأمة ضد الانهيار.. مهمة دائمة لأهل البيت عليهم السلام

وقبل أن نختتم هذا القسم من هذا الفصل، ينبغي علينا أن نعلم مما استقرأناه من الحوادث التاريخية التي عاشها الإمامان أمير المؤمنين والحسن عليه السلام إن أمير المؤمنين كان يؤكد على حقه في استلام منصب الخلافة لتتسنى له حرية التحرك

(١) البداية والنهاية ٨-١٢١.

(٢) أهل البيت ٥٩.

بطلاقة ومرونة لاكمال نفس مسيرة الرسول ﷺ في مطلع حياة الدولة الإسلامية.. وحينما لم تتح له هذه الفرصة، وحجب منصب الخلافة عنه بفعل الظروف التي تكلمنا عنها.. كان عمله منصباً على حفظ التجربة ومنعها من الانحراف والسقوط، واعطاءها بعداً آخر من خلال وقوفه كطرف مقوّم ناقد، وشاهد على عصره. وقد أراد الأمة أن تقف نفس موقفه وهي خارج السلطة، لا ضمن الجهاز الحاكم، وأداء دورها المقوم الناقد، كما يفعل هو عليه السلام.

إن (الخط الثاني الذي عمل عليه الأئمة هو خط تحصين الأمة ضد الانهيار بعد سقوط التجربة واعطاؤها من المقومات القدر الكافي لكي تبقى وتقف على قدمها وتعيش المحنة بعد سقوط التجربة بقدم راسخة وبروح مجاهدة وبإيمان ثابت)(١).

وكان عمل الإمام الحسن عليه السلام يمتد بنفس هذا الاتجاه الذي قام عليه عمل والده عليه السلام من قبل، ومع أنه ـ بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام ـ لم يعش فترة طويلة من الصراع ضد معاوية، واستطاع هذا الأخير بما كان قد مهد له من قبل، الاستيلاء على السلطة بشكل رسمي ومعلن، فإن الإمام الحسن عليه السلام أراد أن يظل دوره مستمراً في قيادة الأمة لتحصينها من خطر معاوية وبقائها على موقفها الراصد المقوّم الناقد، ولم يرد لها أن تتخلى عن رسالتها إلى الأبد بفعل بعض عوامل الاحباط التي مرت بها.

وقد استمر بمهمته القيادية حتى بعد الصلح مباشرة واستمر بها إلى نهاية حياته عليه السلام.

وقد أكد على حق آل البيت في الخلافة قبل أن يتوجه من الكوفة إلى المدينة، وألقى خطبة مؤثرة حث فيها الناس على الالتزام بخط آل البيت. وقد جاء فيها: (يا أهل الكوفة، اتقوا الله في جيرانكم وضيفانكم، وفي أهل بيت نبيّكم ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)(٢).

أثار قلق الدولة فاغتالته

وفي المدينة التي استقبلته بحماس وفرح شديدين أتاح له التفرغ من مهام المسؤولية القيادية الأولى فرصة القيام باعداد جيل رسالي واع سائر على نهج آل البيت

(١) المصدر السابق.
(٢) الطبري ٣-١٦٩.

وتزويده بوعي ثقافي وقدرة على التحرك الاجتماعي الفاعل المؤثر القائم على أخلاقهم . . وقد ضرب بأخلاقه وقدرته على تحمل أخطاء الآخرين وتجاوزاتهم مثلًا أعلى لكل المتطلعين لأخلاق الإسلام الحقيقية.

وكانت مدرسته العلمية المكملة لمدرسة والده مثار قلق الدولة الأموية وعاهلها وقد عقدت جلسات عديدة لأقطاب هذه الدولة أقرت بعدها ضرورة القضاء على الإمام واغتياله. ومن شأن ذلك أن يجعل الساحة فارغة أمام يزيد، إلا من الحسين عليه السلام . ولن يعيا الدولة عندها أن تجد فرصة لقتله واستئصاله أن تصدى لها وعارض بيعة يزيد وجلوسه على العرش.

وقد طلب من جعدة بنت الأشعث بن قيس ـ زوجة الإمام أن تحتال على قتله بالسم واعطاءها مائة ألف درهم، وهو أسلوب مألوف طالما لجأ إليه مع معارضيه وأعدائه أمثال مالك الأشتر وغيره حتى أنه تندر بعد تلك العملية قائلًا لزميله وشريكه في الجريمة: إن لله جنوداً من عسل. . وكتب إلى جعدة: (إنك إن احتلت في قتل الحسن، وجهت إليك بمائة ألف درهم وزوجتك من يزيد. فكان ذلك الذي دفعها إلى سمه. فلما مات الحسن أرسلت إلى معاوية تستنجزه وعده فوفى لها معاوية بالمال وأرسله إليها مع رسالة يقول فيها: إننا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه)[1].

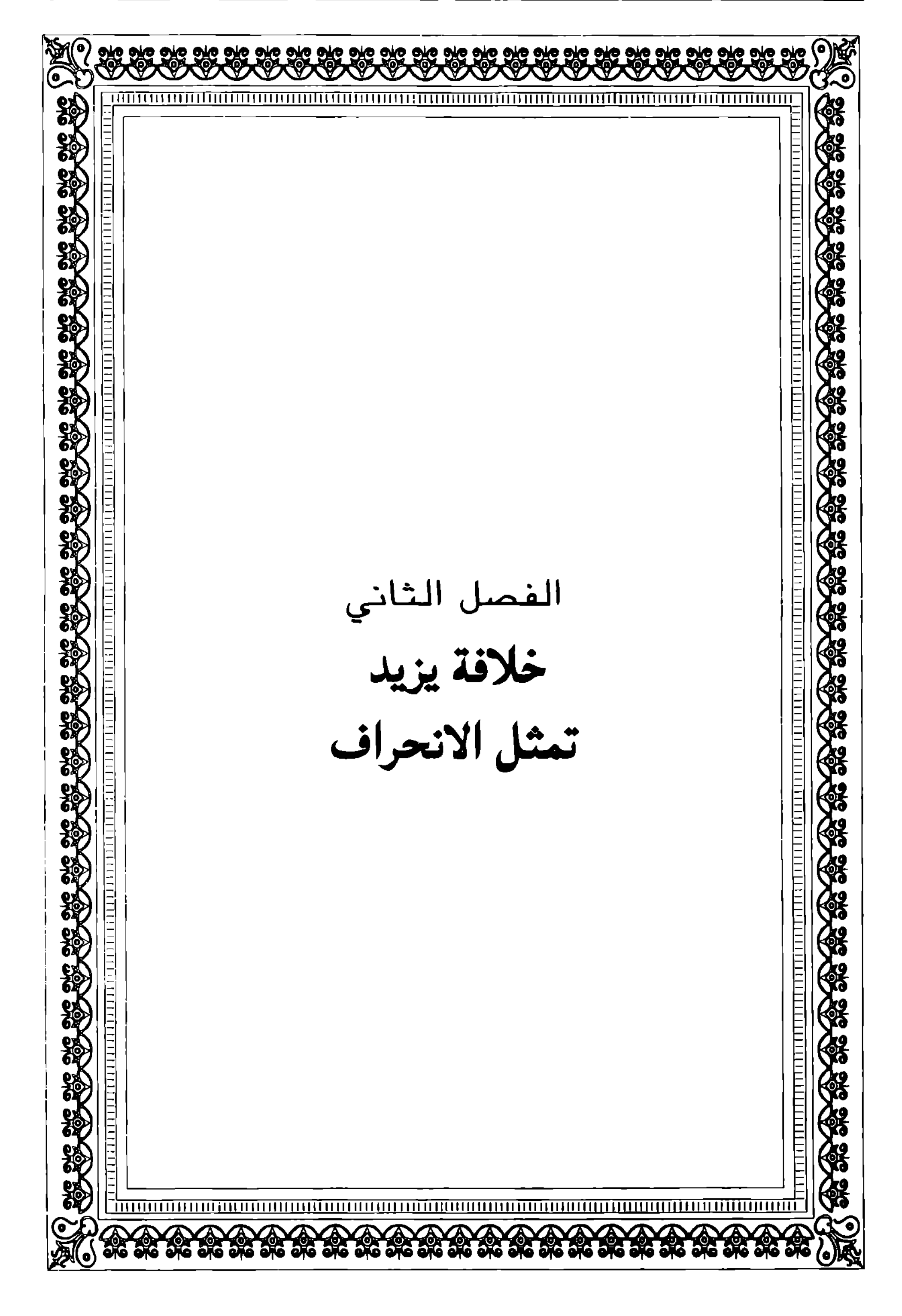
وقد كان معاوية متلهفاً لمعرفة نتيجة مساعي جعدة لاغتيال الإمام عليه السلام، مستعجلًا نتيجتها التي كان قد خطط هو لها، وقد كتب إلى عامله على المدينة قائلًا (إن استطعت أن لا يمضي بي يوم يمر إلا يأتيني منه خبره فافعل)[2] ولم يستطع أن يخفي فرحته بموت الإمام عليه السلام بعد ذلك.

وهكذا أراد أن يقطع أمل الأمة بوجود القيادة المؤهلة السائرة على خط الرسالة الصحيح والمتمثلة بالإمام الحسن عليه السلام الذي سبق وأن أوعده بعهد مكتوب أن يكون هو القائد الفعلي للأمة من بعده، إذ أن وجود الإمام الحسن عليه السلام كولي للعهد يتيح له عليه السلام أن يوجه الأمة على خطه الرسالي بكل حرية . . وهذا ما رفضه معاوية وحاربه.

(١) مروج الذهب ٣-٥.

(٢) الإمامة والسياسة ـ ابن قتيبة ـ تحقيق محمد محمود الرافعي ـ القاهرة ـ مطبعة النيل ١٩٠٤ ج ٢. ص ٢٧٦.

ولم يكتف معاوية بذلك، فراح في غمرة سعيه لاضعاف ثقة الأمة بقيادتها الحقيقية ينال من آل البيت عليهم السلام ابتداء من أمير المؤمنين وانتهاء بالحسن عليه السلام من خلال تصوير المسألة كلها وكأنها مسألة تنافس على الزعامة والرئاسة بين أبناء (المتنافسين) الأوائل، ومن خلال السباب البذيء لأمير المؤمنين، ودس الأخبار والاشاعات الكاذبة من خلال القصاصين ورواة السير وغيرهم ورسم صورة للإمام الحسن عليه السلام كشخص ضعيف لا تتعدى اهتماماته تكرار الزواج. وكأنه بذلك يريد تشويه صورته لتقترب من صور آل أمية ومنهم هو الذي كان معروفاً بميله إلى الافراط بالملذات الحسية والفواحش، واعداد المسلمين لتقبل أسوأ وأقبح صورة يمكن أن يشاهدوها على كرسي الخلافة، وهي صورة يزيد وقبوله كخليفة وأمير للمؤمنين. . !!.



الفصل الثاني

خلافة يزيد
تمثل الانحراف

بداية وضوح معالم الانحراف المعلن

تمهيد

لو أتيح للامة الاسلامية، وهي تعيش عهدها الزاهر، أواخر أيام رسول الله ﷺ، في ظل الدولة الاسلامية المحمدية، ان تتساءل: ترى كيف ستكون امورنا بعد نصف قرن..؟ ومن سيكون على رأس هذه الدولة في ذلك الحين اذا ما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى؟

ولو أن نموذجاً مشابهاً لشخصية يزيد، طرح على الامة وقيل لها: هذا هو خليفة رسول الله ﷺ وممثله، وقائد المسلمين وامامهم، ماذا ترى سيكون رد فعل ابنائها على ذلك؟ هل سيستقبلون هذا الامر بعين الرضا والارتياح؟ بل هل يتوقعون اصلًا ان يطرح عليهم هذا النموذج المشوه؟

والجواب معروف مسبقاً. لقد كانت الامة ستتصدى بعنف لمجرد طرح هذه الفكرة. فكيف، وقد اصبح الامر واقعاً، وجيء بيزيد خليفة لرسول الله ﷺ، وقائداً للامة الاسلامية؟ وهذا ما حصل بعد خمسين عاماً من وفاة الرسول ﷺ، وأصبح يزيد هو رأس الدولة المحمدية وإمامها والمتصرف الوحيد بشؤونها ومقدراتها.

فكيف قبلت الامة ذلك، وتخلت عن موقفها الحازم الذي كانت ستتخذه حتما قبل هذا، وتخلت عن قادتها الحقيقيين وتراجعت امام هذا الانحراف الكبير والخطأ الجسيم؟

ويمكننا تلخيص المسألة بأكملها قائلين: انها استدرجت لذلك الانحراف بخطى متصاعدة ومتسعة بعد ذلك، بدأت اولاها بانحراف بسيط غير ملحوظ متمثل بالتمييز في العطاء بين المسلمين، كما اوضحناه، ثم تقريب بعض الوجوه غير المؤهلة والبعيدة عن الاسلام اصلًا، من الحكم، واستلامها مناصب حساسة فيه كعمال وولاة وحاشية ومستشارين، وبلغ الامر غايته في اواخر عهد عثمان وعهد معاوية عندما استأثر هذا الاخير نهائياً [بملك] الدولة الاسلامية، واعلنها اقطاعية خاصة له ولآله، يتحكم ويلعب فيها كيف يشاء، مستغلًا خيرات وموارد هذه الدولة

لتعزيز نهجه في الحكم والحياة، لجعل نفسه وعائلته في المركز الاول للسلطة إلى الابد، مستثمراً الانحرافات السابقة، وحتى غير الملحوظة منها التي حدثت تدريجياً قبله، وجعلها حجة شرعية وسنداً قانونياً لقيام دولته على الاساس الذي بناه.

ان الامة، وقد رأت معاوية خليفة وقائداً يجلس على منبر رسول الله ﷺ، ويتحدث باسمه، لم تعد تستغرب اذا ما رأت يزيداً واشباهه على هذا المنبر. فمن هو يزيد هذا الذي احتل المركز الاول للقيادة الاسلامية بعد حوالي نصف قرن من وفاة الرسول ﷺ؟ وتقبلته الامة الاسلامية خليفة وقائدا واماماً..؟!

اما نسبه، فهو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف.

آل أمية وحقدهم التاريخي على الإسلام

فمن هم آل امية، وكيف كان حقدهم على آل الرسول. وكيف كان هذا الحقد متوارثاً متأصلاً، بدأه امية على هاشم، وحرب على عبد المطلب، وابو سفيان على الرسول ﷺ ومعاوية على آل الرسول؟ كانت عوامل الكره والبغضاء عديدة. حدثتنا عنها كتب التاريخ باسهاب، وقد عمق هذه العوامل ظهور الرسالة على من اختصه الله وشرفه بها دون البشر جميعاً، وجعله سيداً على العالمين، وهو الرسول الكريم محمد ﷺ فلم يكن مجال امام احد لمنافسته هذا الفضل، وان كان يلتقي معه بالنسب والقرابة، بل لعل حسد الاقرباء والعشيرة قد فاق حسد غيرهم، اذ لم يختصوا هم بما اختص به هو وحده ﷺ دون غيره. خصوصاً وانهم ربما كانوا يرون انفسهم اكثر جاهاً وثراء وأعز نفراً واعواناً.

ولم يكن دافع حقد أبي سفيان وابي لهب واضرابهما ممن كان لهم ان يغتبطوا ويفرحوا بما أختص الله به رسوله ﷺ من شرف رفيع مبرراً، غير انهم كانوا جزءاً من نظام جاهلي قبلي ظالم، يعتمد قيم الرق والاستغلال ولا يستنكر الفاحشة والمنكر. وكان من نصبوا أنفسهم سادة لهذا النظام الجاهلي وسدنة لقيمه واصنامه.... يرون في مسألة الرسالة الاسلامية مسألة تحدٍ شخصي لهم خاصة قبل أن يعتبروها مسألة إلهية تستهدف تغيير كل مجتمعات الارض على اساسها، لقد كان ذلك ما لم يستطيعوا ان يفهموه أو يهضموه أو يسكتوا عنه.

وقد عمق الكره والحقد وجود اسباب شخصية اخرى تمثلت بمقتل عدة اشخاص من آل امية في بدر منهم جد معاوية لأمه وخاله وعمه.

وكان تحرك أبي سفيان المستمر والدائب ضد الاسلام ورسوله ﷺ ملفتاً للنظر حقاً، لا تستطيع كتب التاريخ إلا ان تتحدث عنه باسهاب، حتى وان مال بعض المؤرخين إلى اخفاء بعض الحوادث وعدم التكلم عنها.

لقد شن ابو سفيان حربه الظالمة على الله ورسوله منذ ان اجاز الله لرسوله ﷺ اظهار هذه الرسالة واعلانها على الملأ، وجعل مهمته الاولى في الحياة تصعيد هذه الحرب الظالمة، ولو كان ابو سفيان يعلم ان اعلى منصب في الدولة الاسلامية سينتقل إلى اولاده، ليحتلوا مركز رسول الله ﷺ، وينصبوا من انفسهم سادة وملوكاً على المسلمين، يتحكمون في رقابهم واموالهم واعراضهم دون ضوابط وقيود، ويسرقون كل المكاسب التي حققها لهم الاسلام، لما نظنه قد وقف موقفه المناوىء للرسالة، منذ البداية وحتى دخوله المعلن في الاسلام مجبراً ذليلًا في عام الفتح، ولعمل على استثمار هذا الدين بعقليته التجارية التي تحسب كل شيء بحساب الربح والخسارة. وعلى العموم فقد كان هو [الرابح] الوحيد في عمليات الحكم المعقدة التي انتهت لصالحه في نهاية الامر، واصبحت مقدرات الامة بيد صبيان بني امية، مما اثلج صدر عميد العائلة الاموية فهتف بحضور عثمان مخاطباً الامويين قائلًا:

(يا بني أمية، تلاقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من جنة ولا نار، وما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة)[١]

وقد اتجه إلى قبر عدوه القديم حمزة منهياً الحساب معه بركلة اخيرة للقبر، وقال متهكماً:

يا ابا عمارة؛ ان الامر الذي اجتلدنا عليه امسى في يد غلماننا يتلعبون به[٢].

وقد كان الامر كذلك فعلًا كما حسب وخطط العميد الاموي والعائلة الاموية كلها، وكان وجود عثمان على سدة الحكم فرصة ذهبية أخيرة لجعل الحكم يظل بيد هذه العائلة، حتى وان راح عثمان نفسه ضحية لذلك.

(١) انساب الاشراف ٥/ ٢٨

(٢) شرح النهج ١/ ٦٧

وقد اطلعتنا كتب التاريخ على بعض الاسباب التي ادت إلى تقريب أبي سفيان وابنيه يزيد ومعاوية من مركز السلطة بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة. . وكيف [استثمر] معاوية بعد ذلك موقف عثمان ومقتله، ونصب من نفسه ولياً للقتيل، مطالباً بدمه.

وكانت النتيجة بحسابات معاوية لصالحه وصالح عائلته، اما بحسابات الاسلام فقد كانت اكبر نكسة لحقت بالامة طيلة تاريخها وحتى اليوم، عمقها تعاقب السلسلة الاموية، ثم السلاسل الطاغوتية الفرعونية بعد ذلك على سدة الحكم، خلفاء وامراء للمؤمنين ومفوضين الهيين ومتحكمين مطلقين في مصائر المسلمين وسائر الناس على وجه العموم، اذ لو لم يعمد معاوية إلى ما عمد اليه لكانت خارطة العالم الاسلامي قد تغيرت واصبحت غير ما هي عليه الآن، ولكان الاسلام قد امتد ليغيرها لصالح البشرية جمعاء ولجعل الناس يتنفسون برئة الاسلام الصحيحة هواءاً صحياً نقياً.

لكن تمرد طاغية واحد لم يؤمن بالاسلام اصلًا وطمعه وجشعه ادى إلى ذلك الدمار الكبيرالذي ظل الجميع يعانون منه طيلة هذه القرون الطويلة من الزمن، وهذا ما وقع بالفعل عندما لم يشأ معاوية ولو للحظة واحدة ان يقترب من الاسلام وينظر بمنظاره، واصبح العالم حتى الآن يعيش الآثار السلبية التي خلفها تمرد نفس شيطانية واحدة.

يزيد بن معاوية يستعرض نفسه ويشهد لأبيه

وقبل ان نتحدث عن يزيد ونشير إلى انطباعات معاصريه عنه وشهاداتهم بحقه لنستمع إلى شهادته هو عن نفسه، فعندما مات معاوية وافضى الامر اليه:

(أدخل منزله فلم يظهر للناس ثلاثا، فاجتمع ببابه أشراف العرب ووفود البلدان وامراء الأجناد لتعزيته بأبيه وتهنئته بالأمر، فلما كان في اليوم الرابع، خرج اشعث اغبر، فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه. .؟ ثم قال؛ ان معاوية كان حبلًا من حبال الله؛ مده الله ما شاء ان يمده، ثم قطعه حين شاء ان يقطعه، وكان دون من كان قبله وخير من بعده، ان يغفر الله له فهو أهله، وان يعذبه فبذنبه، وقد وليت الامر بعده، ولست اعتذر عن جهل ولا اشتغل بطلب علم، فعلى رسلكم، فان الله لو اراد شيئاً كان. .)[١].

---

(١) مروج الذهب ج ٢/ ٨٠

وقد روى ابن كثير الخطبة بشكل آخر مشابه لما اورده المسعودي وقد جاء فيها:

(.. ان معاوية كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه اليه رهو خير ممن بعده ودون من قبله ولا ازكيه على الله عز وجل فإنه أعلم به، ان غفر عنه فبرحمته، وان عاقبه فبذنبه. وقد وليت الامر من بعده، ولست آسي على طلب، ولا اعتذر من تفريط، واذا اراد الله شيئاً كان، ثم قال: وان معاوية كان يغزيكم في البحر واني لست حاملًا احداً من المسلمين في البحر، وان معاوية كان يشتيكم بأرض الروم ولست مشتياً أحداً بأرض الروم، وان معاوية كان يخرج لكم العطاء اثلاثاً وانا اجمعه لكم كله)[1].

ولا تهمنا شهادته هنا عن والده معاوية، فلسنا نلمس فيها ثقة اكيدة بسداد مواقف واعمال ذلك الاب الذي وفد على ربه، وكانت كل مزاياه انه وان كان دون من كان قبله، إلا انه خير من بعده، ومن هو بعده..؟ يزيد واضرابه دون شك، ونحن ان اخذنا هذه الاقوال من باب الظن بقائلها حسن الخلق والتواضع، فاننا لا نستطيع ان نفعل ذلك مع يزيد، فان الشيء المؤكد انه لم يكن يمتاز بهما ابداً.

كان بوصفه ذلك لمعاوية، يعيد اقوال معاوية نفسه، بانه كان دون من قبله وافضل ممن سيجيء بعده، وكأن المسألة برمتها يقصد منها التمهيد لقبول الامر الواقع المتدني، فإذا ما فكر امرؤ بعدم لياقته للخلافة لانه لا يتمتع بالمزايا التي تمتع بها من كانوا قبله، وانه اقل التزاماً منهم حتى بالامور المظهرية الشكلية، فانه يذكر ان اولئك الذين جاءوا قبلًا قد اعجزوا غيرهم، وانهم كانوا حالة خاصة استثنائية فريدة، ما دام احد لا يستطيع الوصول إلى مستواهم، اراد اقرار هذا كحقيقة.. واراد ان يقبلوه على علاته، وان لا يسألوا عنه ولا يطلبوا منه ان يكون كمن كان قبله من الخلفاء.

فقد قال معاوية عند استخلافه:

(ما انا بخيركم وان منكم لمن هو خير مني، ولكن عسى ان اكون انفعكم ولاية وانكأكم في عدوكم وأدرككم حلبا)[2].

فهو يشير إلى حقيقة انه اقل من غيره، لكنه هنا يلوح لهم بالمنافع التي

(١) و(٢) البداية والنهاية ٨/ ١٤٦-١٣٧.

سيجنونها منه ويعرض عليهم الرشوة مقابل قبولهم له، كما لوح لهم يزيد بعد ذلك ايضاً ببعض [المنافع] والامتيازات مثل عدم حمل احد على الغزو في البحر أو قضاء الشتاء بأرض الروم، أو دفع العطاء لهم مرة واحدة بعد ان كان يدفع لهم بأقساط ثلاثة، كما رأينا في خطبته الاولى بعد وفاة معاوية، كما ان آخر خطبة خطبها معاوية تشير إلى هذا المعنى نفسه:

(... واني وليتكم ولن يليكم احد بعدي خير مني وانما يليكم من هو شر مني، كما كان من وليكم قبلي خيراً مني)[1].

وقال:

(ولقد رميت نفسي على عمل ابن أبي قحافة فلم اجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه، واردتها على عمل ابن الخطاب فكانت اشد نفوراً واعظم حرباً من ذلك، وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبت علي. فأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على اعمالهم؟ هيهات ان يدرك فضلهم احد من بعدهم، غير اني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة ولكم فيه مثل ذلك ولكل فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة. (فان لم تجدوني خيركم فانا خير لكم)[2]، وقال: (فاقبلونا بما فينا فان ما وراءنا شرتكم، وان معروف زماننا منكر زمان مضى، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت)[3].

وقال ايضاً:

(ان ابا بكر رضي الله عنه لم يرد الدنيا ولم ترده، واما عمر فارادته ولم يردها، واما عثمان فنال منها ونالت منه، واما انا فمالت بي وملت بها، فهي امي وانا ابنها، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم)[4].

وعندما يعيد يزيد هذه المقولة المنتقاة بعناية وخبرة، فانه يستمر بوضع هذه الصيغة التنازلية لسلوك الحاكم (المسلم)، فما دام ابوه معاوية قد صرح بأنه لم يكن

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٤٤.
(٢) المصدر السابق ٨/ ١٣٢.
(٣) العقد الفريد ٤/ ٨٢-٨٣.
(٤) العقد الفريد ٥/ ٣٦٤-٣٦٥.

خيراً ممن كان قبله، ومع ذلك فانه قد (نجح) في حكمه إلى حد بعيد واخضع الناس وساسهم سياسة (حكيمة رشيدة) تقوم على [حلمه] واسلوبه في العطاء وتوزيع الرشاوى، وامضى بقية حياته بعيد اغتيال أمير المؤمنين عليه السلام وادعاً بين احضان أهل الشام وعموم المسلمين، و (استقر) الوضع في عهده، فهل لأحد ان يطلب دليلًا اكثر من ذلك يؤكد على استقرار الدولة الاموية وصلاحها وكفاءتها؟.

وها هو يزيد يعيد نفس تصريحات ابيه، ولكن ليضيف اليها اموراً اخرى على الجميع ان يعتبروها امراً واقعاً ليس لهم ان يتساءلوا عنه في المستقبل، واذ انه سيحاسب عليها ولن يتساهل مع اولئك الخائضين بها، لانه بيَّنها منذ البداية، فلم يعترض احد عليه، فها هو وقد اعلن انه الخليفة الجديد بعد ابيه يقول لهم صراحة:

(.. لست اعتذر عن جهل ولا اشتغل بطلب العلم) أو (ولست آسي على طلب ولا اعتذر من تفريط).

فهو هنا لا يريد ان يقول: ولست اعتذر عن جهل أو تفريط مضى وسوف اشتغل بطلب العلم، وانما يصر على قبولهم المطلق به حتى وهو مصر على جهله المطبق باحكام الاسلام وعزمه على الايغال بهذا الجهل، مع انه ينبغي ان يكون اكثر الناس علماً وفهماً بالشريعة التي يدعي تمثيلها وقيام حكومته على اساسها. واذا ما اباح جماعة لانفسهم الاعتراض على ذلك، فكيف يحكم امة الاسلام من لا يعرف الاسلام ولا يريد ان يعرفه، فهو يجيبهم مسبقاً وهو يعلم انهم لا يجرأون على الرد عليه لانه كان في غمرة حزنه على ابيه اشعث اغبر:

(فعلى رسلكم فان الله لو اراد شيئاً كان).

وهذه الكلمة الاخيرة لا تدل على وعي وفهم لطبيعة القدرة الالهية الحكيمة العادلة، وانما تدلل على ضبابية في التفكير والتصور، وعدم فهم للاسلام نهائياً، وان الامر برمته لا يعدو ان يكون بمشيئة الهية مجردة لا تجري سننها ونواميسها وفق ارادة الانسان وتصرفاته واستجابته الواعية لدين الله القويم واحكامه وتشريعاته، وكأن الحكمة الالهية شاءت ان يصل الامر إلى يزيد، لان مصلحة الامة في ذلك، وكأن معاوية لم ينتزع الامر من اصحابه الشرعيين على رغم الامة بعد ان استدرجها وانحرف بها وجعلها شيعاً وطوائف واحزاباً، وانها وصلت إلى حالها المزرية تلك بعد ان تخلت بعد مدة قصيرة عما سبق ان نادت به وضحت من اجله.

ولو ان شخصاً اراد اشغال وظيفة حكومية بسيطة محدودة الاهمية قليلة الراتب، تقدم وسئل عن مؤهلاته قبل منحه هذه الوظيفة، واجاب بنفس هذا الجواب الذي اجاب يزيد به الأمة وهويستعد لتولي زعامة المسلمين وخلافة رسول الله ﷺ، أكان يقبل في هذه الوظيفة المحدودة؟

هل كان يزيد يتحدى الامة وهو يجيبها بهذا الشكل المستفز المثير؟

بالتأكيد لم يكن ليجرؤ على ذلك لو كان يعلم ان جوابه هذا سيثيرها أو يستفزها. ولكنه علم ان الامر ممهد له، وان الانحراف قد بلغ مداه، وانها قد سقطت مستسلمة له. وربما جاء من يقول من بعده: كان يزيد خيراً مني، بل كان من اخيار الامة وامامها الشرعي المتفق على امامته، وان كان من سيأتي بعد يزيد ليس بحاجة إلى مثل هذه التصريحات اصلًا.

لقد وصل الأمر إلى هذا الحد فعلًا، إلى حد مطالبة عبيد الله بن زياد بالخلافة لنفسه في البصرة بعد وفاة يزيد، واستخلاف نماذج متدنية مشابهة ليزيد فيما بعد كالوليد ويزيد ابني عبد الملك واضرابهما.

لقد بلغ الانحراف مداه الاخير اذاً، ولو لم يكن كذلك لما بلغت الجرأة بيزيد إلى حد عرض نفسه بهذه الصورة قبل مباشرة مهماته (خليفة واماماً وقائداً) للمسلمين.

لقد اظهر يزيد نفسه مكشوفاً امام الامة، وكان يعلم انها تعرف عنه كل شيء، فليس هو بالشخصية المغمورة، ولم يكلف نفسه عناء اخفاء تصرفاته وشذوذه،

(كان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب)[1].

فهذا شائع ومعروف قبل تنصيبه، اما بعد ذلك فقد اتسع الخرق،

(وغلب على اصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي ايامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي، واظهر الناس شرب الشراب، وكان له قرد يكنى بأبي قيس يحضره مجلس منادمته، ويطرح له متكئاً وكان قرداً خبيثاً، وكان

(١) العقد الفريد ٥/ ٨٢.

يحمله على اتان وحشية قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام، ويسابق بها الخيل ايام الحلقة . .)[1].

لقد كان يزيد يريد ان يتباهى بقدرات استثنائية ربما مقابل تلك التي يتمتع بها اعداؤه من آل الرسول ﷺ على وجه الخصوص، وان يقوم باعمال خارقة لم يقم بها أحد غيره، وربما اراد ان يقول انا احسن ما لم يحسنه غيري، وتربية قرد ربما بدت اصعب من تربية انسان، وكان الترف والبطالة والمتملقون المتزلفون، قد أوحوا له بان ما يفعله هو حقاً غاية الظرف وانه قد أتى بما لم تأت به الاوائل اذا ما جالس قرده ابا قيس ينادمه وذلل له الخيل ليسابق بها في الحلبة، وما نظن ان احداً كان مزهوا بعمل مجيد فعله زهو يزيد بهذا العمل، وهو تدريب قرده على ركوب الخيل والتسابق بها، ولعله (برع) بأعمال (مجيدة) أخرى لم يجرؤ احد على القيام بها في ظل الاسلام. فقد روي:

(ان عبد الله بن حنظلة بن الغسيل قال: والله ما خرجنا على يزيد، حتى خفنا ان نرمى بالحجارة من السماء، ان كان رجلًا ينكح امهات الاولاد والبنات والاخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة)[2].

كما ليزيد:

(أخبار عجيبة ومقالب كثيرة من شرب الخمر وقتل ابن بنت الرسول ولعن الوصي وهدم البيت واحراقه وسفك الدماء والفسق والفجور وغير ذلك مما قد ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه كوروده فيمن جحد توحيده وخالف رسله)[3].

(وكان سبب خلع أهل المدينة له ان يزيد اسرف في المعاصي)[4].

ولعل اهم شهادات وردت بحقه هي شهادات آله وأقاربه من بني امية انفسهم، فقد روي عن نوفل بن أبي الفرات قوله:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الصواعق المحرقة، احمد بن حجر الهيتمي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، شركة الطباعة الفنية/ القاهرة ط ٢/ ١٩٦٥ ص ٢٢١ وتاريخ الخلفاء ص ١٩٥.

(٣) العقد الفريد ٥/ ٨٧

(٤) تاريخ الخلفاء١٩٥

(كنت عند عمر بن عبد العزيز، فذكر رجل يزيد، فقال: قال أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، فقال: تقول: أمير المؤمنين؟ وأمر به فضرب عشرين سوطاً)[1].

وحتى هو نفسه، وحتى والده معاوية لم يستطيعا اخراج كلمة تروي فضلًا أو مأثرة له أو علماً، ان مسألة تعيينه [خليفة] كانت تعد اكبر مهزلة تعرض على المسلمين باعترافه هو واعتراف ابيه ايضاً فقد روي:

(ان يزيد بن معاوية قال لمعاوية في يوم بويع له على عهده فجعل الناس يمدحونه ويقرظونه: يا أمير المؤمنين؛ والله ما ندري انخدع الناس ام يخدعوننا، فقال له معاوية: كل من اردت خديعته فتخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته)[2].

غير ان الامر الذي رآه يزيد، ورآه معاوية قبله هو ان كل شيء يمكن ان يشترى ويمهد له بالرشوة والعطاء، هذا ما استبان لنا من خطابه الاول وعروضه على أهل الشام، كما استبان لنا ما كان يفعله ابوه من قبل.

وسنعود إلى هذه الشهادات بحق يزيد، وسنجد انها لم تصدر جميعها عن اناس يكنون له الكره لما اقترفه بحق الاسلام، بل ان معظمها صادر عن اناس يمتون اليه بصلات حميمة ويكنون له الود والحب.

اما ما قام به في مذبحة كربلاء وقتله الإمام الحسين «ع» واصحابه، وقتله أهل المدينة واستباحتها ورمي الكعبة بالمنجنيق، فهذا ما سنترك الحديث عنه الآن، وسيكون من شأن استعراضه ان يجعلنا ندرك ابعاد الشخصية التي تزعمت المسلمين وتسلطت على رقابهم ومقدراتهم.

(قال الطبراني: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي ثنا ابن عائشة عن ابيه قال: كان يزيد في حداثته صاحب شراب يأخذ مأخذ الاحداث، فأحس معاوية بذلك، فأحب ان يعظه برفق فقال: يا بني ما اقدرك على ان تصل إلى حاجتك من غير تهتك يذهب بمروءتك وقدرك وتشمت بك عدوك ويسيء بك صديقك.. ثم قال: يا بني اني منشدك ابياتاً، فتأدب بها واحفظها، فأنشده:

---

(١) المصدر السابق ١٩٤

(٢) الكامل للمبرد ٢/ ٨٧.

أنصب نهاراً في طلاب العلا واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى إذا الليل أتى بالدجى واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي فإنما الليل نهار الأريب
كم فاسق تحسبه ناسكاً قد باشر الليل بأمر عجيب
غطى عليه الليل استاره فبات في أمن وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة يسعى بها كل عدو مريب)[1]

فمعاوية هنا لا يستنكر تهتك يزيد واباحيته، وهو يبيح له ذلك، ويرى انه امر طبيعي لشاب موفور الثراء والشباب مثله، غير انه كان حريصاً على ان لا يجاهر بذلك امام المجتمع الذي كان يعده لاستقباله [خليفة] و [اميراً للمؤمنين]، وما نحسب إلا ان هذه [النصائح] تعبر بشكل جلي عن فلسفة معاوية في الحياة والاخلاق وفي كل شيء، فحياة الليل والظلام جديرة بتنفيذ خططه الشيطانية والاعيبه السرية بعيداً عن عيون الناس ومراقبتهم، فهو يعيش في مجتمع اسلامي، بل ويتزعم هذا المجتمع ويحكم باسم الاسلام، فكيف يستطيع ان يفعل علناً ما لا يمكن ان يقبله هذا المجتمع، غير ان يزيد لم يكن يريد ان يكلف نفسه عناء التستر، ولو للافادة من ذلك واستثماره امام الناس أو على سبيل الاخذ بالحديث الشريف المنسوب إلى رسول الله ﷺ كما ذكر ابن كثير:

«من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله عز رجل»[2]،

ويبدو ان معاوية قد استفاد كثيراً من هذا الحديث على فرض صحته، اما يزيد فلم يكلف نفسه عناء ذلك.

فضائل يزيد بين الجاهلية والاسلام

لم ينسب احد فضيلة من فضائل الاسلام أو أخلاقه إلى يزيد، وحتى من انحازوا اليه، اذا ما تحدثوا عنه متجاهلين صفاته غير اللائقة واسرافه على نفسه وفجوره، يتحدثون وكأنهم يوجهون الخطاب إلى مجتمع جاهلي لا يعرف إلا تلك الفضائل التي نسبت للعرب في جاهليتهم كالفصاحة والكرم والشجاعة، الخ، ولم

---

(١) ابن كثير ٨/ ٢٣١.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٢٣١.

يضيفوا اليها تلك التي ينبغي ان يتصفوا بها في اسلامهم كالايمان بالله والتمسك باوامره وتعاليمه ونبذ ما ينهى عنه، لانهم علموا انهم لو خاضوا بفضائل الاسلام الحقيقية لما وجدوا ما ينسبونه إلى يزيد منها، ولعل النص التالي يمثل أخف وأهون ما قيل في حقه:

(وقد كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال حسن المعاشرة وكان فيه ايضاً اقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الاوقات واماتتها في غالب الاوقات)[١].

فهل هذه مؤهلات جديرة بأكبر زعيم للمسلمين، بل خليفة رسول الله ﷺ، ومن يفترض فيه ان يكون مبلغ سره وحامل أمانته؟، ان أي شاطر من شطار بغداد وفتوتها في العهد العباسي المتأخر، ما كان يفخر بهذه الصفات لو نسبت اليه، فربما كان يأنف من ان ينسب إلى الاقبال على الشهوات وترك الصلاة واماتتها، وربما عد ذلك مما يخل بفروسيته وشجاعته.

لقد رويت لنا الاشعار التي تداولها وقالها، وكلها تدل على تهتك ومجون وكفر صريح بالاسلام ولم ترو لنا إلا نتفاً صغيرة من اقواله وتصريحاته وتصرفاته لكي نتمكن من تكوين صورة واضحة للفصاحة والحلم المزعومين، ولعل مجمل سلوكه يشكل حماقة مستمرة لم يستطع معاوية نفسه بكل مؤهلاته ان يحد أو يخفف منها.

غير ان (خليفة المسلمين) لم يقلل من قيمته في نظر البعض، الاقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الاوقات واماتتها في اغلب الاوقات؛ ما دامت فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وما دام ذا جمال، وحسن معاشرة.. اليس هو المفوض المتصرف النائب عن الله في كل شيء كما سبق ان عبر عن ذلك أبوه معاوية..؟ حينما خطب قائلًا يوم جمعة:

(انما المال مالنا والفيء فيئنا فمن شئنا منعناه)[٢].

---

(١) المصدر السابق ٨/ ٢٣٣.

(٢) تطهير الجنان واللسان، ابن حجر الهيثمي، مكتبة القاهرة، ط ٢/ ص ٢٦

ويبدو ان بعضهم لم يروا فائدة من تبرير أي عمل مفضوح من اعمال يزيد، ورأوا انهم سيفشلون في هذه المهمة امام جماهير المسلمين المطلعين على سلوكه وتصرفاته المفضوحة، ورأوا ان ينقذوا معاوية على الاقل ويلحقوه بمن سبقه من الخلفاء كخليفة عادل، مؤهل لزعامة المسلمين ورووا بحقه روايات تعادل وربما تفوق تلك التي رويت بحقهم. وقد رووا عن رسول الله ﷺ انه قال:

(لا يزال امر امتي قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني اميه يقال له يزيد)[١].

وكأن معاوية لم يقم بهذا الثلم قبلًا وجعلوا من هذا [الحديث] شهادة بحق معاوية. ووضعوا حديثاً آخر يشابه مضمون هذا[٢]، واستدلوا بهما على عدالة معاوية وكفاءته وجدارته بقيادة المسلمين.

(وفي هذين الحديثين دليل أي دليل على ان خلافة معاوية لم تكن كخلافة من جاء بعده من بني امية، فانه ﷺ اخبر ان اول من يثلم امر امته، ويبدل سنته يزيد، فافهم ان معاوية لم يثلم ولم يبدل وهو كذلك لما مر انه مجتهد)[٣].

وهنا لنا تساؤلات عديدة: هل كان معاوية يعلم بمضمون هذا [الحديث]؟ وهو من كتابه كما زعموا بل من كتاب الوحي؟ وهو من دعا له الرسول ﷺ بان يعلمه الله الكتاب والحساب؟.

فاذا كان يعلم فكيف جاء بيزيد خلفة مع علمه بذلك؟

ورغم علمه بما في يزيد وبما يفعله يزيد؟ فمن يتحمل وزر ذلك؟

فلو لم يكن لمعاوية من مثلبة إلا استخلافه يزيد لكفاه بذلك اثماً يلحقه إلى الابد.

كيف ينصبه خليفة رغم علمه بحديث رسول الله ﷺ، وكيف اجتهد امام النص الصريح، وكيف برر ذلك، لنستمع اليه نفسه وهو يقول:

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٢٣٤. وتاريخ الخلفاء ١٩٤، والصواعق المحرقة، ابن حجر ٢٢١

(٢) ورد في الصواعق المحرقة عن الروياني في مسند عن ابي الدرداء قال: (سمعت النبي ﷺ يقول: «اول من يبدل سنتي رجل من بني امية يقال له يزيد») ص ٢٢١.

(٣) المصدر السابق ٢٢١.

(ولولا هواي في يزيد ابصرت قصدي)[1].

لم يتوقع معاوية ان تستجيب الامة لمسعاه في تنصيب يزيد خليفة من بعده لو لم تدغدغ امانيه بعض همسات المنتفعين والمنافقين امثال المغيرة بن شعبة الذي طمأنه إلى انه قد مهد له الجو في العراق، وذلك هو مركز المعارضة الاول الذي كان يخشاه معاوية. وكان عمله الدؤوب المنتظم طيلة حوالي عشر سنين واخراجه لمسرحيات ضخمة مهد فيها الجو لقبول يزيد رغم علمه بوجود من هو اكثر كفاءة منه يدلل على تعمده اسقاط الامة وحرفها إلى الابد، وان انتهاج خط الاسلام هو آخر ما كان يفكر فيه، فكيف ذهب الامر بكتاب المسلمين وعلمائهم إلى التهوين من شأن ذلك واعتباره قضية خطأ في اجتهاد يثاب عليه معاوية في نهاية الامر.

هل ينبغي معالجة قضايا الاسلام المصيرية بهذه الرخاوة وهذا التساهل؟

لو ان من فعل ذلك غير معاوية، وكان من الموالين لعلي بن أبي طالب عليه السلام.. أكانت المسألة تعالج وينظر اليها بهذا الشكل؟

ورحم الله احمد بن حنبل عندما سأله ابنه عن علي ومعاوية، فقال:

(اعلم ان علياً كان كثير الاعداء، ففتش له اعداؤه عيباً فلم يجدوا، فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كياداً منهم له)[2].

فهل اضروا بذلك علياً امام الله ام نفعوا معاوية، واذا ما جنب هؤلاء معاوية ما نسب اليه، فانهم بذلك قد جعلوا الموقف الاموي المناوىء لموقف أمير المؤمنين عليه السلام موقفاً يحتمل وجهات نظر معينة، وانه موقف مجتهد، اجتهد وتأول واخطأ وهو مأجور في جميع الحالات، لانه انطلق في اجتهاده من حرصه على اقامة حدود الدين ووحدة الامة.

وحتى في مسألة استخلاف يزيد وضعوا قولاً على لسان معاوية، وربما قاله فعلاً ليبرر تردده في امر ولده وعدم تأكده من انحرافه وفساده، وبدا معاوية بذلك القول وكأنه لم يستهدف إلا مصلحة المسلمين، وبدا كأن دعاءه هو الذي سبب موت يزيد بعدما تمادى في شروره وآثامه، فقد روي ان معاوية:

---

(١) تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب سيدنا معاوية بن ابي سفيان، ابن حجر الهيثمي، مكتبة القاهرة مصر ط ٢، ١٩٦٥ ص ٥٢٥.

(٢) تاريخ الخلفاء ١٨٦.

(ليم على عهده اليه، فخطب وقال: اللهم ان كنت انما عاهدت ليزيد لما رأيت من فعله، فبلغه ما املته وأعنه، وان كنت انما حملني حب الوالد لولده، وانه ليس لما صنعت به اهلًا، فاقبضه قبل ان يبلغ ذلك.. فكان كذلك)[1].

وبذلك برئت ذمته واستجاب الله دعاءه، وكفى المؤمنين القتال فهو انما عهد ليزيد لما رأى من فعله، وهو فعل طيب حسن لا بد، وربما وقع منه الانحراف بعد وفاة أبية، فلماذا لم يعمد معاوية إلى نشر فضائل يزيد واعلام الامة بها، واكتفى بحفظ ما علمه عنه في صدره؟ واي فضائل رآها معاوية ليزيد؟

من لنا بمن يروي لنا بعض هذه الفضائل التي رآها ابوه فيه فقال مقالته تلك؟

ومهما بالغ بعض المؤرخين في اخفاء عيوب يزيد، إلا انهم لم يستطيعوا ان يتستروا على ما ظهر منها وشاع.

«وقد روي ان يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا يصبح فيه مخموراً، وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به ويلبس القرد قلانس الذهب وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل، وكان اذا مات القرد حزن عليه، وقيل ان سبب موته انه حمل قرده وجعل ينقزها فعضته، وذكروا عنه غير ذلك)[2].

ومما يبدو لنا من هذا النص أنه استمر في عبثه حتى نهاية حياته، وان عبثه ذلك لم يكن مقصوراً على المرحلة الاولى من شبابه كما روى بعضهم، يؤيد ذلك نصوص اخرى تثبت ان مركز الخلافة قد جعله يتمادى في ابتكار المزيد من وسائل العبث واللهو.

ولزياد بن أبيه شهادة مهمة بحق يزيد، رغم انه (ابن اخيه)، فعندما اراد معاوية ان يبايع ليزيد كتب إلى زياد يستشيره، فبعث زياد إلى احد مستشاريه وقال له:

(.. ان أمير المؤمنين كتب الي يزعم انه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوف نفرة الناس، ويرجو مطابقتهم ويستشيرني، وعلاقة امر الاسلام وضمانه عظيم، ويزيد

---

(١) الصواعق المحرقة ٢٢٤.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٢٣٩.

صاحب رسلة وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فالق أمير المؤمنين مؤدياً عني، فأخبره عن فعلات يزيد، فقال له: رويدك بالأمر فأقمن ان يتم لك ما تريد، لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقت اليه ابنه، والقى انا يزيد سراً عن معاوية فأخبره عنك ان أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك في بيعته، وانك تخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه، وانك ترى له ما ترى له ترك ما ينقم عليه، فيستحكم لأمير المؤمنين الحجة على الناس ويسهل لك ما تريد، فتكون قد نصحت ليزيد وارضيت أمير المؤمنين، فقدم على يزيد فذاكره ذلك، وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة، والا يعجل، فقبل ذلك معاوية وكف يزيد عن كثير مما كان يصنع)[١].

وقد اورد اليعقوبي في تاريخه نفس الخبر بطريقة اخرى: ان معاوية كتب إلى زياد يستحثه لدعوة أهل البصرة [لابن اخيه] على حد تعبيره، وقد رد عليه زياد بقوله:

(يا أمير المؤمنين. . ان كتابك ورد عليَّ بكذا، فما يقول الناس اذا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبغ ويدمن الشراب، ويمشي على الدفوف، وبحضرتهم الحسين ين علي، وعبدالله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، ولكن تأمره، ويتخلق بأخلاق هؤلاء حولاً وحولين، فعسينا ان نموه الناس فلما صار الرسول إلى معاوية وادى اليه الرسالة، قال: ويلي على ابن عبيد؛ لقد بلغني ان الحادي حدا له ان الامير بعدي زياد، والله لاردنه إلى امه سمية وابيه عبيد)[٢].

ويبدو لنا ان معاوية نفسه كان متردداً في امر الخطوة التي كان يعتزم ان يخطوها بالبيعة ليزيد ويتخوف نفرة الناس ورفضهم لذلك لما عرفوه عنه، وكان من شأن رفض زياد لفكرة استخلاف يزيد ان يكشف نواياه هو، وقد بلغ معاوية ان زياداً قد تطلع للخلافة ايضاً وان الحادي يحدو له، وما نحسب ان احداً يرى ان زياداً كان يخاف على الاسلام، فهو اذكى من ان ينطلي عليه الواقع البعيد عن الاسلام الذي اوجده معاوية بمساعدته وامثاله، وما دام يزيد قد ترشح لهذا المنصب، فزياد يرى نفسه اكثر اهلية وقدرة للقيام به، وكانت خطة مستشار زياد كفيلة بتجنيبه مواجهة مباشرة مع معاوية، وهو ما لم يكن زياد قادراً عليه، وقد ادرك ان توجيه النصح وحده ليزيد لن يكفي لردعه ورده إلى الطريق القويم، وانه سيكون حجة له هو في المستقبل اذا ما ثارت

(١) الطبري: ٣/ ٢٤٧، ٢٤٨.
(٢) اليعقوبي: ٢/ ٢٢٠.

الامة على يزيد ورفضته، وربما وجد حينذاك الفرصة للوثوب على كرسيه، غير ان هذا لم يتم، وهلك زياد قبل يزيد.

كما ان معاوية بدوره كان يدرك ان زياداً اكثر أهلية من ولده يزيد، وانه قد يثب عليه وينتزع الخلافة منه، وربما كان معاوية يرى امكانية قيام زياد بمهمة الخلافة، وربما عمد إلى قتله بالسم أو غيره كما فعل مع كثيرين من قبله.

وعلى اية حال: كان معاوية يرى في زياد عقبة في طريق يزيد، وربما رأى ان مهمة زياد قد انتهت وان كل شيء قد استقر الآن لصالحه، وعند موت زياد اسرع معاوية. و(اظهر عهداً مفتعلًا فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده، وانما اراد ان يسهل بذلك بيعة يزيد، فلم يزل يروض الناس لبيعته سبع سنين، ويشاور، ويعطي الأقارب ويداني الأباعد، حتى استوثق له من اكثر الناس)[١].

وللحجاج الثقفي شهادة ظريفة بحق يزيد، عندما استفزه خالد ابنه، بكلام سمعه الحجاج فرد عليه:

(انا ابن الاشياخ من ثقيف والعقائل من قريش والذي ضرب مائة بسيفه هذا كلهم يشهدون على ابيك بالكفر وشرب الخمر، حتى اقروا انه خليفة)[٢].

لقد اعترف الحجاج في غمرة غضبه من خالد بحقيقة المسألة كلها، وعرفه حقيقة أبيه فهو كان احد المتورطين بمسألة المجيء بيزيد إلى كرسي الحكم، وقد اجبر كثيرا من الناس كلهم يشهدون عليه بالكفر وشرب الخمر حتى جعلهم يقرون انه خليفة، ولعل الحجاج ما كان ليجرؤ على هذا الغضبة المضرية لو ان خالداً اصبح خليفة بعد ابيه ولم يؤخذ منه الملك إلى مروان واولاده.

لقد تركنا الحديث عن اكبر ثلاثة احداث وقعت في عهد يزيد، وبفعلٍ منه، وهي واقعة الطف وواقعة الحرة ثم ضرب الكعبة بالمنجنيق بعد ذلك، لاننا اردنا ان نتكلم عنهما بمباحث خاصة، لتبيين الآثار الخطيرة التي ترتبت عليها، والتي لا تزال تطالعنا رغم محاولة البعض فصلها عن مجمل الاحداث التي وقعت بعد ذلك.

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١١٧

(٢) المصدر السابق ٢٦٠.

ان الانتهاك المعلن الذي قام به يزيد اتاح الفرصة لمن جاءوا من بعده للقيام بالمزيد من الانحرافات امام انظار الامة وابصارها، دون ان يمد احد يداً للاحتجاج أو الاستنكار إلا في الحدود الضيقة التي تحدثت عنها كتب التاريخ.

دليل الفضائل الأموية، أحلام وأقاصيص مخترعة

وفي غمرة الدفاع عن الدولة الاموية وزعمائها، راح كثيرون يخترعون الاقاصيص والحكايات والاحلام التي تدل على حسن سيرة هذا (الخليفة الاموي) بشكل موح لا بد ان نلمح خلفه شخصية معاوية المبتكرة الماهرة والمطلعة على امور السياسة وأفانينها وألاعيبها، فلمسته تبدو واضحة عليها بشكل مؤثر لا على العقلية الشامية وحدها، وانما حتى على العقليات الاخرى التي اراد لها ان تقترب منها.

وما نسبته الاقاصيص إلى يزيد من فضائل قد لا تجعل منه بنظر الاغلبية من المسلمين إلا انساناً عادياً أو سوياً على الاقل، ومعاوية نفسه وقصاصوه لم يجرؤوا على التمادي في هذه الاقاصيص إلى الدرجة التي تمادوا بها عندما أوعز اليهم ان يرووا أحاديث على لسان رسول الله ﷺ بشأنه هو [أي معاوية] فمعاوية المتستر المتحفظ المتخفي، كان يجد بعض الآذان الصاغية التي قد تقبل امثال تلك الاحاديث والروايات بشأنه عن رسول الله ﷺ، اما عن يزيد، فما عسى ان يروى بشأنه عن رسول الله ﷺ، لا شك انه لو اخترع حديثاً واحداً عن الرسول ﷺ بشأن يزيد، وانه امين ومهدي.. الخ كمعاوية، لأصبح ذلك مثار سخرية الجميع، حتى أهل الشام، ولربما دعا ذلك بعضهم لاعادة النظر بشأن الاحاديث الملفقة المروية بشأن معاوية ايضاً، فاستهتار يزيد جعله لا يتورع عندما ارسله ابوه اميراً على الحج ان يجلس على شراب له عند وصوله المدينة، واذا ما شكك بعضهم بذلك فان واقع حاله طيلة حياته يدل على ذلك، وما نظن الدفاع عن يزيد في مجال التمسك بالدين والاخلاق بمجدٍ عليه شيئاً، اذ لو كان كذلك لقام ابوه بهذه المهمة، ولا نعرف دافع اولئك الذين يدافعون عن يزيد دون حجة أو بينة واضحة، اللهم إلا ان يكون كرههم لآل البيت عليهم السلام وتبنيهم لمواقف الامويين وأولهم معاوية هو الذي دعاهم للانخداع بما انخدع به آباؤهم الاوائل عندما ساروا على طريق اولئك الآباء دون تدبر أو روية.

ومع ذلك لم يعدم يزيد من يجد له مخرجاً ويدخله الجنة فقد رووا:

(إن رسول الله ﷺ قال: خير الناس قرني، ثم الذي يلونهم، ثم الذين

يلونهم، والقرن عشرون ومائة سنة، فبعث رسول الله ﷺ في قرن وكان آخره موت يزيد بن معاوية)[١].

وبهذا فهو يعد من خير الناس، وكفى الناس بهذا ضجيجاً حوله، اذ انه دخل الجنة في النهاية على اية حال، كما روى لنا ابن عساكر قال:

(حدثنا ابو الفضل محمد بن محمد بن الفضل بن المظفر العبدي قاضي البحرين من لفظه وكتبه لي بخطه قال: رأيت يزيد بن معاوية في النوم فقلت له: انت قتلت الحسين؟ فقال: لا. فقلت له: هل غفر الله لك؟ قال: نعم، وادخلني الجنة. قلت: فالحديث الذي يروى ان رسول الله ﷺ رأى معاوية يحمل يزيداً فقال: رجل من أهل الجنة يحمل رجلًا من أهل النار، قال: ليس بصحيح)[٢].

كلاهما اذاً من أهل الجنة، أما اذا ما قال احد انهما من أهل النار، فذلك ما لا يمكن تحمله، ويصح تكذيب الحديث من وجه واحد، اما المصدق فعليه ان ينقذ معاوية على الاقل من النار، ويزيد سيجد له احداً يخرجه منها بحلم مثل هذا الذي رواه قاضي البحرين، كذلك الذي رواه عوف بن مالك بحق معاوية فقد روي:

(ان عوف بن مالك كان قائلًا نائماً بمسجد بأريحا، فانتبه، فإذا اسد يمشي اليه، فأخذ سلاحه، فقال له الاسد: صه، انما ارسلت اليك رسالة لتبلغها. قلت: من ارسلك؟ قال: الله ارسلني اليك لتعلم، معاوية انه من أهل الجنة؛ قلت: من معاوية؟ قال: ابن أبي سفيان، ولا يستبعد ذلك لان كلام الاسد له كرامة وهي جائزة الوقوع)[٣].

ولعل رسالات الاسود ابتدأت بعد انقطاع رسالات الانبياء، ربما كنا نصدق كلام الاسد لو كان حقاً ما قاله لعوف بن مالك، ولم يخترع هذا الحلم هو وامثاله لخداع السذّج والبسطاء..، كيف جرى التناغم يين هذين الحلمين لتعزف انشودة العفو عن معاوية ويزيد؟

كيف يوفق ابن حجر بين ما رواه هو وبينما جاء بسند رجاله رجال الصحيح إلا

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٤٦٥.

(٢) المصدر السابق ٨/ ٢٤٠.

(٣) تطهير اللسان والجنان ص ١٢.

واحداً مختلف فيه لكن قواه الذهبي بقوله انه أَحد الاثبات وما علمت فيه جرحاً اصلًا ان عمراً [عمرو بن العاص] صعد المنبر فوقع في علي ثم فعل مثله المغيرة بن شعبة، فقيل للحسن، اصعد المنبر لترد عليهما فامتنع إلا ان يعطوه عهداً انهم يصدقوه ان قال حقاً ويكذبوه ان قال باطلًا فاعطوه ذلك، فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال: انشدك الله يا عمرو ويا مغيرة، أتعلمان ان رسول الله ﷺ لعن السائق والقائد احدهما فلان [ويقصد بهما ابا سفيان ومعاوية، قالا بلى. ثم قال انشدك بالله يا معاوية ويا مغيرة الم تعلما ان النبي ﷺ لعن عمراً بكل قافيه قالها لعنة؟ قالا اللهم بلى. ثم قال: انشدك بالله يا عمرو ويا معاوية الم تعلما ان النبي ﷺ لعن قوم هذا؟ قالا: بلى. قال الحسن: فاني احمد الله الذي جعلكم فيمن تبرأ من هذا أي علي، مع انه ﷺ لم يسبه قط، وانما كان يذكره بغاية الجلالة والعظمة)[1].

بأي الامرين نأخذ؟ لا شك ان لعن الرسول ﷺ لمعاوية وابيه سيكون في النهاية كما يزعمون سبيلًا لادخالهما الجنة، كما كانت دعوته ﷺ على معاوية ان لا يشبعه الله سبيباً آخر لدخوله الجنة ايضاً.

لقد ذكر ابن حجر نفسه، ونأخذه كنموذج لبعض الكتاب أو المؤرخين أو المحققين الذين لا تثنيهم المعلومات التي يتداولونها هم عن الابتعاد عن التعصب والتحيز دون مبرر أو وجه حق، احاديث ومواقف مسندة إلى رسول الله ﷺ عن طريق صحابة موثوقين ورواة من رجال الصحيح على حد تعبيره.

فقد روي عنه ﷺ:

(شر العرب بنو امية وبنو حنيفة وثقيف)[2].

(وعن أبي برزة رضي الله عنه قال: كان ابغض الاحياء أو الناس إلى رسول الله ﷺ بنو امية. .)[3].

و (. . . عن عبد الله قال لكل شيء آفة وآفة هذا الدين بنو امية)[4].

---

(١) المصدر السابق ٥٥.

(٢) نفس المصدر ٦٣.

(٣) نفس المصدر ٦٤.

(٤) نفس المصدر ٦٤.

ويروح مع ذلك يبرر لمعاوية فعلاته على اساس انه اجتهد فأخطأ، فهل اجتهد في مسألة واحدة واخطأ فيها ام ان (اجتهاداته) كلها سلسلة متوالية ومستمرة من اخطاء متعمدة قاتلة أودت بالامة وجعلتها تتخبط في ظلام دامس لا يزال يسدل استاره حتى اليوم؟

الا يعلم ان ما مرت به الامة من مآسٍ وويلات وضعف وهزائم سببه معاوية ومن جاء بعده من الامويين من آله وآل مروان، ام انه سيجد احاديث واقوال ملفقة رويت في عهدهم، يعلن بعدها ان عهدهم كان خير العهود، وانهم أحيوا أمر رسول الله ﷺ وشريعته وسنته وحافظوا على امته.

لنتذكر اننا لا نتحدث عن قضايا ادبية أو فلسفية مجردة، ونخوض في ترف فكري محض، وانما نتحدث عن امة مظلومة مغلوبة قهرت واستغلت وسرقت مكاسبها، بعدما اوشكت ان تتعرف على الاسلام وترتفع بشريعته وترفع كل امم الارض معها من وحدة الشرك والتخلف إلى آفاق الايمان الرحبة الواسعة الغنية.

اننا نتحدث عن اكبر جناية بحق الانسانية كلها، لا في عصر معين، وانما في العصور كلها والى يومنا هذا، ولا نظن ان التساهل أو التراخي بمثل هذه القضية الخطيرة التي سببها رجل واحد، تدخل في باب التسامح الذي اعلن عنه الاسلام، وانما في باب الانضمام لجيش الرواة والمحدثين والمفسرين والقصاصين والشعراء والمتملقين الذين حفل بهم البلاط الاموي. وكما وجد اولئك المبررات الشرعية لقيام ذلك النظام الدخيل، يعمل كثيرون في ظل انظمة مشابهة على ايجاد المزيد والمزيد كل ذلك بدافع من مصالح شخصية وخضوع للامر الواقع. أما الذي يفهم مسائل الاسلام، على اساس الرؤية المحمدية الواضحة، فما عساه ان يكون فاعلاً امام ما يراه ويسمعه ويتيقن منه؟

صحيح ان صلاحيات الثواب والعقاب هي بيد الله وحده، غير انه سبحانه لم يأمرنا ان ننام ونستكين ونخضع لكل من يخرب دينه ويزور شريعته ونترك امر معاقبتهم له، وانما امرنا ان نتصدى لكل من يقوم بذلك بكافة الوسائل المتاحة وننكرها باليد واللسان والقلب.

ان الاسلام ليس ترفا فكرياً وليس ممارسات طقوسية على هامش الحياة، وانما شريعة اريد لها ان تنظم الحياة وتحكمها، فهل علينا ان ننظر إلى من ابعدوه فعلًا

ونصبوا له العداوة نظرتنا إلى من ضحوا من اجله ورفعوا عماده وقربوه الينا وجعلونا نشعر بثمرته وعطائه وواقعيته وانسجامه الحقيقي مع الحياة؟

فلماذا لا نستعرض على الاقل ما جرنا إلى هذا الواقع المؤسف الذي نعيشه وتعيشه البشرية معنا، ولماذا لا نشخص اسباب الانحراف ودوافعها لكي نوقفها ونتجنبها حتى بعد مرور هذه المدة الطويلة؟

ولماذا نمنع من التعرض لمن كانوا سبباً مباشراً لذلك، ونضفي على شخصياتهم طابع القداسة الذي اضفاه عليهم اعوانهم ومريدوهم ومأجوروهم؟ ولماذا نظل تنطلي علينا نفس الألاعيب والضلالات القديمة المكشوفة؟ ولماذا نناقض انفسنا بهذه الطريقة المؤسفة بل المفجعة؟

تروى روايات مصنوعة، يبدو التكلف والوضع فيها ظاهراً، تشيد بمزايا يزيد الفريدة، ومنها هذه القصة التي تطالعنا بأكثر من كتاب ادبي وتاريخي، وهي قيام يزيد بتعزية عبد الله بن عباس بالامام الحسن عليه السلام الذي قتل مسموماً بدعم من معاوية وبإيعاز منه، وكانت كلماته مؤثرة إلى درجة ان ابن عباس نفسه الذي لم تكن تخفى عليه وقائع الحادثة حتماً تأثر بدوره، وقال عن يزيد عندما نهض من عنده:

(إذا ذهبت بنو حرب، ذهب علماء الناس.. الخ)[1].

ورووا ايضاً انه قيل لابن عباس:

(أخبرنا عن ابنه (أي يزيد بن معاوية) فقال : كان في خير سبيله، وكان أبوه قد أحكمه وأمره ونهاه، فتعلق بذلك وسلك سبيلًا مظللًا له)[2]. ورووا عنه أيضاً أنه في يزيد (.. ان ابنه لخير أهله)[3].

ولعله كان خير اهله فعلًا اذ لم يكن لمعاوية سوى ولد احمق آخر اسماه عبد الرحمن كان مصاباً بتخلف عقلي.

ان الذي ادخل يزيداً الجنة في نهاية المطاف (بحلم) في المنام واخبر فيه انه قد غفر له ذكر حديثاً عن غزوة القسطنطينية وقول رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٢٣١.

(٢) العقد الفريد ٥/ ١١٨.

(٣) الامامة والسياسة ١/ ٢٠٢.

(اول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم)[1].

وتناسى القصة التي ذكر فيها [ان معاوية لما بلغه ان يزيداً ابنه قال، لما اصيب خلق كثير من الناس بارض الروم وهو على شرابه مع ندمائه:

أهون علي بما لاقت جموعهم   يوم الطوانة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقاً   بدير مران عندي ام كلثوم

حلف عليه ليغزون[2]، مع اولئك الغزاة الاوائل.

وربما انتشرت ابيات يزيد تلك فسببت الاحراج لمعاوية، فطلب من ابنه الالتحاق بذلك الجيش قائداً له، فهل كان يزيد في اول جيش غزا مدينة قيصر؟ وكيف اصيب خلق كثير من الناس بارض الروم وهو على شرابه مع ندمائه؟ إلا تدل هذه القصة على انه لم يكن مع ذلك الجيش الاول؟ هذا اذا صح الحديث الذي روي عن رسول الله ﷺ.

ما عسى المرء ان يقول عن يزيد؟ فما كان للتاريخ ان يذكره بتاتاً لو لم يقم بأفظع الاعمال التي اقدم عليها حاكم ادعى الاسلام إلى يومنا هذا، واصبح عمله سنة لغيره من الحكام الذين لم يكن همهم سوى تثبيت عروشهم بمختلف الاساليب.

لقد وجد يزيد ملكاً ممهداً وعرشاً موطئاً ورقاباً محنية وجباها ذليلة، وما كان عليه سوى ان يستثمر [جهد] والده الذي امضى حياته مكافحاً لانتزاع القيادة من اصحابها الحقيقيين والسطو على مكاسب المسلمين، ليسير على بساط الملك ويعبث كيفما شاء، يتقلب أو يتدحرج أو يثب أو ينط، فأمامه امة قد افهمت مسبقاً انه دون من كان قبله واحسن ممن سيليه، وما علم اولئك الذين برروا ليزيد فعلته ووقفوا معه انهم سيقفون معه ثانية في محاكمات عديدة امام الناس هنا، فليس لاحد القدرة على الادعاء انه يستطيع الحجر على عقول الناس كلها، وبعدها امام الله في محكمة عادلة لا يملكون فيها ان يمنعوا السنتهم وضمائرهم عن كلمة الحق والصواب، وما عسى ان نفعل نحن سوى ان نتمنى لهم ان يعيدوا النظر قبل فوات الاوان؟

---

(١) المصدر السابق ٢٣٢.

(٢) مروج الذهب ٢٩.

مؤهلات يزيد لمنصب الخلافة

لم يكن يزيد يتمتع بأية كفاءة تتيح له اشغال المنصب الحساس الذي استولى عليه والده واراد الاستئثار به لنفسه وذريته من بعده، وهو منصب الخلافة، ولم يكن معاوية رغم سيطرته على المسلمين واخضاعهم ليجرؤ على طرح مشروعه الذي يجعل يزيد خليفة له، وقد حاول التمهيد لذلك بسلسة من الاقاصيص التي حاول الايحاء بها للامة انه لم يكن بصاحب فكرة تولية يزيد، وانه عندما وافق على ذلك انما كان يستجيب لرجاء الامة والتماسها بأن ينصبه (خليفة) من بعده، وربما كان يحسب بذلك حساب الفشل المتوقع لهذه الفكرة، غير انه في النهاية (نجح) بمشروعه الذي كرس له بقية حياته لاكثر من سبع سنين، فهو عندما اغتصب الخلافة وسعى لقتل الإمام الحسن عليه السلام بالسم لم يكن على استعداد للسماح لاي احد ان يعيدها إلى اصحابها الحقيقيين، وكان يمهد منذ البداية لجعلها تستقر في بيته فلا تخرج منه ابداً، وهذا ما بدا منه طيلة مدة حكمه.

واذا ما علمنا حرصه على ذلك، اصبح علينا ان نعرف كم كان معاوية حريصاً على تحسين صورة يزيد امام الامة وجعله يتمسك بالامور المظهرية من العبادات وكما يفعل هو لكي تقبله الامة.

واذ لم يستجب يزيد لذلك رغم محاولات ابيه التستر على سلوكه وحثه على الامتناع عن عبثه، رأينا كم كان يزيد يحمل روحاً متمردة لا تستجيب لأبسط مقومات الاخلاق والتربية، فعلى الرغم من ضرورة قيامه بالتمسك بالامور الطقوسية التعبدية الظاهرية وامتناعه عما اشتهر به لكي يصبح بنظر الامة مؤهلًا لمنصب الخلافة فانه رفض ذلك وابى إلا ان يسلك سلوكه الفاضح الذي عرف به والذي لم يستطع اخفاءه حتى اولئك المداهنون المنحازون إلى العائلة الاموية، وربما نجحوا باخفاء الكثير عما اشتهر به، غير انهم لم يستطيعوا اخفاء حقيقته كلها.

ونتساءل هنا: هل كان معاوية بحاجة إلى من يشجعه على تنصيب يزيد خليفة له؟

وهل كانت محاولات المتملقين والمتزلفين إلا تزيين ما فكر هو به اصلًا وجعله يبدو كاقتراح منهم أو طلب ملح من الامة؟ كما كان يفعل اصحاب فرعون وكل فرعون بعده..؟.

هذا اذا لم يكن هو قد طلب منهم بشكل مباشر ان يعرضوا عليه ذلك امام الامة، لتكتمل حجته بزعمه امامهم ولكي يبدو وكأنه يستجيب لمطلبها وينفذه بدافع الرغبة لارضائها وتحقيق مصالحها.

وامامنا ثلاثة حكايات حاولت تصوير الامر وكأنه البداية لظهور هذه الفكرة في رأس معاوية، وانه لم يكن يفكّر بها من قبل.

وملخص القصة الاولى ان معاوية نظر إلى ابنه يزيد وامه ترجله وقد قبلته بين عينيه بعد ان فرغت منه، ويبدو انه كان صغيراً وجميلًا مما اثار حفيظة ضرتها التي شتمتها، واثار ذلك حفيظة معاوية بدوره واراد ان يريها الفرق بين ابنها عبد الله الذي كان مشهوراً بالحماقة وبين يزيد، وقد اتهمته زوجته بانه يميل إلى يزيد دون سبب، ولبيان موقفه من يزيد واسبابه استدعى معاوية ولديه، كلًا على حدة وطلب منهما ان يسألاه حاجتهما، اما عبد الله فطلب منه كلباً فارهاً وحماراً مما اثار سخرية معاوية وسخطه.

(ثم احضر يزيد وقال له مثل قوله لأخيه فخر ساجداً، ثم قال حين رفع رأسه: الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه في الرأي، حاجتي ان تعتقني من النار، لان من ولي امر الامة ثلاثة ايام اعتقه الله من النار فتعقد لي العهد بعدك وتوليني العام الصائفة وتأذن لي في الحج اذا رجعت وتوليني الموسم وتزيد لاهل الشام كل رجل عشرة دنانير، وتفرض لايتام بني جمح وبني سهم وبني عدي لانهم حلفائي، فقال معاوية: قد فعلت. وقبل وجهه وقال لامرأته ابنة قرظة: كيف رأيت؟ قالت: اوصه به يا أمير المؤمنين ففعل)[(١)].

وقد نقل ابن كثير رواية اخرى مشابهة جاء فيها:

(إن يزيد لما قال له ابوه: سلني حاجتك قال له يزيد: اعتقني من النار اعتق الله رقبتك منها. قال: وكيف؟ قال: لاني وجدت الآثار ان من تقلد امر الامة ثلاثة ايام حرمه الله على النار. فاعهد الي بالامر من بعدك، ففعل)[(٢)].

ويبدو التكلف واضحاً في هذه القصة، ولعلها من موضوعات معاوية

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٤٦٥.
(٢) ابن كثير ٣/ ٢٣٠.

وابتكاراته. . . فمن ترجل امه شعره لا بد انه صغير السن، ويزيد هنا يخاطب والده بـ (أمير المؤمنين) فلا بد انه في سن لا يتيح لامه ان تجلسه امامها وترجل شعره. . ، ثم من اين ليزيد الماجن العابث سلوك الاولياء هذا حتى انه يسجد (لا ندري لله ام لوالده) قبل ان يوجه اليه خطابه.

اما الحديث أو الآثار التي عثر عليها يزيد وفيها ان من تقلد أو ولي امر الامة ثلاثة ايام اعتقه الله من النار، فلا ندري كيف اطلع عليه يزيد ولم يطلع عليه معاوية نفسه.

لا شك أن كل من تولى امر هذه الامة لم يكن يطمح إلا إلى عتقه من النار، فهنيئاً لهم الجنة.

أي شوق إلى الله نراه في كلام يزيد هذا، ان يكون اميراً للمؤمنين ويذهب لمحاربة الروم مجاهداً والى بيت الله حاجاً واميراً على الموسم، ثم هو يوصي بأهل الشام الاخيار وبأيتام حلفائه من بني جمح وبني سهم وبني عدي، ان وراء هذا الكلام ولي من أولياء الله، فهل عرف هذا الامر عن يزيد؟ وهل روى لنا احد من المؤرخين عن اخلاق يزيد وسلوكه ما يثبت هذه القصة؟

ثم لماذا يوضع يزيد في موضع المقارنة هنا مع اخيه عبد الله المعروف بتخلفه العقلي؟

هل كان الخيار محصوراً بينهما فقط ليكون احدهما خليفة بعد معاوية؟

وهل كان النزاع بين يزيد وعبد الله اخيه فقط؟

وهل خلت الساحة إلا منهما؟

ما هذه الاوهام التي اريد زرعها في عقول الناس من هذه القصة المفتعلة؟

وهل كان معاوية منتظراً توصية زوجته ابنة قرظة ليولي يزيداً امور المسلمين؟

وهل لم يكن يريد إلا مصلحة الامة من ذلك. . ثم انقاذ ولده من النار؟

وهل كل من ولي امر هذه الامة إلى يومنا هذا وقاه الله من النار رغم كل ما ارتكب من ذنوب وآثام؟

وهل جعل الله هذه الامة لقمة سائغة لهؤلاء الحكام لحكمة رآها هو سبحانه ولم يطلع عليها إلا اولئك الحكام واولادهم؟

أي عبث وكلام فارغ نسمعه هنا؟ هل نحن نتحدث عن الاسلام حقاً ونحن نخوض بأمثال هذه التفاهات والخزعبلات. . . ؟

دعونا نتذكر ثانية اننا نتحدث هنا عن الامانة التي اراد الله تحميلها للسماوات والارض والجبال فأبين ان يحملنها، لانها امانة ثقيلة. . وحملها الانسان دون ان يتقيد بالتزاماتها واعبائها، ودعونا نتذكر اننا نتحدث عن خلاصة الاديان وخاتمها وعن مكاسب حققتها الانسانية عبر مائة واربعة وعشرين الف نبي سقط خلالها مئات الآلاف من الشهداء والضحايا، كان آخرهم شهداء الاسلام، ثم يذهب كل ذلك لحفنة طامعة نصبت العداوة للاسلام ورسول الاسلام ﷺ وآله. وتغلبت على امور المسلمين بالقوة والاكراه، ثم راحت تزور الاسلام وتبث فيه سمومها وأكاذيبها ودجلها.

فهل كان الاسلام هو هذا الذي زوره معاوية ويزيد؟ وهل تنطلي علينا الحيل التي انطلت على أهل الشام المخدوعين المبهورين. ؟

هل كان معاوية مخلصاً للاسلام اكثر من اخلاص رسول الله ﷺ ووصيه عليه السلام له، ولماذا نتجاهل اقوال الرسول ﷺ، بل القرآن الكريم، وننساق وراء الاوهام والاكاذيب والافتراءات الاموية الباطلة؟

لمصلحة من نفعل ذلك؟ هل من فعلوا ذلك حققوا لانفسهم مصلحة ونفعاً؟ اللهم إلا لارضاء نمط معاد ومكرور من الحكام يشبهه ويماثله؟

واذا ما فعل البعض ذلك لهذه الغاية، فما بال من تجردوا من كل مصلحة شخصية وارادوا الحقيقة، ينساقون وراءهم دون وعي ودون تأمل؟

ان ما رأيناه امامنا لم يكن سوى مهزلة انحنى امامها العقل البشري مضطرا، ولا نظنها تعاد في ظروف اكثر صحة وواقعية.

تمهيد معاوية لبيعة يزيد

تحسين صورته، خطوة على طريق الاف ميل

والامر الثاني الذي رواه المؤرخون هو قيام معاوية بالتمهيد لبيعة يزيد من خلال تحسين صورته في انظار الامة.

(وكان معاوية قد كتب إلى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وان يوفدوا اليه الوفود، فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة، والاحنف بن قيس في وفد من أهل البصرة، فقال محمد بن عمرو لمعاوية «ان كل راع مسؤول عن رعيته، فانظر من تولي امة محمد، فأخذ معاوية بهر حتى جعل يتنفس في يوم شات ثم وصله وصرفه. وامر الاحنف ان يدخل على يزيد فدخل فلما خرج من عنده قال له: كيف رأيت ابن أخيك؟ قال: رأيت شاباً ونشاطاً وجلداً ومزاحاً)[1].

وتوحي هذه الرواية بان محمد بن عمرو قد وضع فكرة استخلاف يزيد في ذهن معاوية . . ، كما انها توحي بانه يحمله فيها المسؤولية الكاملة باعتباره راعياً لهذه الامة ووضعه امام مفترق طرق، اما ان يعود عن رأيه أو يستمر إلى النهاية، وفي ذلك ما فيه كما يعرف معاوية من انحدار نهائي نحو الهاوية ربما لن تفيق الامة أو تسلم منه إلى الابد، حتى اخذه بهر فجعل يتنفس في يوم شات، اما جواب الاحنف فكان عائماً لا يدل على أي معنى، اذ ان ما ذكره من مؤهلات ليزيد امام معاوية لم تكن إلا مؤهلات شاب عانث بطال، لا رجل معد لتولي قيادة الامة كلها.

وبالتأكيد فان معاوية لم يكن بحاجة إلى من يحسن صورة يزيد في عينيه، وانما كان بحاجة إلى من يحسن صورته امام ابصار الامة، فكان يحث كل من يراه مؤثراً مسموع الكلمة على مدح يزيد واطرائه ليكون مقبولاً من الامة كقائد وخليفة منتظر.

وقد رويت القصة بصيغة اخرى، دلت على ان ابن حزم رغم محاولته مدح معاوية لم يكن يحبذ تولية يزيد، فقال له:

(ايا أمير المؤمنين، ما اصبح اليوم على الارض احد هو احب الي رشداً من نفسك سوى نفسي، وان يزيداً اصبح غنياً في المال، وسطاً في الحسب، وان الله سائل كل راع عن رعيته، فاتق الله وانظر من تولي امة محمد، فأخذ معاوية بهر حتى تنفس الصعداء في يوم شات، ثم قال: يا محمد انك امرؤ ناصح قلت برأيك، ولم يكن عليك إلا ذاك، قال معاوية: انه لم يبق إلا ابني وابناؤهم، فابني احب الي من ابنائهم، اخرج عني)[2].

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٣٥٢.

(٢) العقد الفريد ٥/ ١١٨.

ان قول معاوية الأخير يدل على اصراره على المضي بخطته إلى النهاية، فليس من الهين عليه ان يتنازل لأولاد منافسيه القدامى ومن وضع نفسه معهم على قدم المساواة، بما حصل عليه بالقوة وبذل من اجله جهوداً هائلة، هل من المعقول ان معاوية كان يرى اولاد غيره افضل من ولده؟ انه على الاقل احب اليه منهم، وهذه وحدها مزية ينفرد بها يزيد.

وقد قال هو نفسه كما ذكرنا لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي، أو لأبصرت قصدي، فمعاوية كان اعمى بحب ولده، ولم يكن يستطع التخلص من القيود التي تجعله ينحاز اليه بشكل تام حتى وان كان هو يزيد المنحرف الذي عرفته الامة كلها، وعرفه هو قبلها.

المغيرة بن شعبة أول من زرع فكرة البيعة في رأس معاوية

وقد ذكر بعض المؤرخين ان المغيرة بن شعبة كان هو أول من وضع فكرة مبايعة يزيد خليفة في رأس معاوية، وذكروا ان سبب ذلك يعود إلى ان المغيرة قد علم برغبة معاوية بتنحيته عن ولاية العراق واستبداله بوال آخر، فعزم على مساومته، وذلك بأن يبقيه والياً، مقابل ان يقوم هو بالدعوة إلى خلافة يزيد بعد معاوية.

لقد ادرك المغيرة رابع الدهاة الاربعة المشهورين بالمكر والخديعة والحيلة، وهم حسبما ذكر المؤرخون وكتاب الادب: معاوية وعمرو والمغيرة وزياد، ان معاوية ما كان يعدل بولده احداً، وانه كان يفكر بطريقة يستميل بها الناس إلى يزيد ويرغبهم به، وانه ربما كان بسبيله إلى ان يضع ولاة على الامصار يقومون بهذه المهمة، وانه ربما رأى انه أي المغيرة كان عاجزاً عن القيام بهذه المهمة، أو غير راغب بالقيام بها، فاراد استبداله، لذلك فانه بادر إلى عرض خدماته امام سيده معلناً استعداده التام لادائها على احسن وجه، رغم ان معاوية ربما كان لم يعلن رغبته صراحة حتى ذلك الحين، الامر الذي لا بد انه سره غاية السرور، لأن المغيرة كان ممن لا يستهان بقدراتهم ومهارتهم.

واذا ما علمنا ان المغيرة توفي سنة خمسين وانه ولي الكوفة سنة احدى واربعين، يكون من المرجح ان معاوية ربما اراد استبداله في النصف الثاني من العقد الذي حكم فيه، أي قبل خمسة عشر عاماً من وفاة معاوية نفسه أي قبل وفاة الإمام الحسن عليه السلام بأربع سنين وربما اقل من ذلك.

ولعل وجود الإمام الحسن عليه السلام هو الذي منعه من اظهار نيته، فلم يظهرها إلا بعد اغتياله عليه السلام، وهذا مما يؤيد رأينا بان المغيرة عرض عليه الامر ربما بعيد السنة الخامسة والاربعين وقبيل وفاة الإمام الحسن عليه السلام، ومما يؤيد هذا الرأي ان الوفد الذي ارسله المغيرة إلى معاوية لتأييد البيعة تلقى تعليمات حازمة من معاوية مفادها:

(ألا تعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم).

فما الذي جعل معاوية لا يعلن عن بيعة يزيد بشكل رسمي ومعلن لولا وجود الإمام الحسن عليه السلام على الساحة؟

وما الذي جعله يقدم على الغدر به ودس السم اليه، لولا عزمه على نقل الخلافة نهائياً إلى ولده وعقبه من بعده..؟

ان تصرفات معاوية لم تكن كلها من وحي الساعة، وكان معظمها مبيتاً، ولم تكن تنطلق عن اجتهادات رجل عالم بدين الله حقاً وانما عن شيطان لم ير امامه إلا هواه ومصالحه.

والا فهل يستطيع احد ان يفسر السبب الذي يدعو عالماً مجتهداً من علماء امة محمد صلى الله عليه وآله ومن احد كتاب الوحي على حد زعمه لقتل امام الامة الحقيقي عليه السلام، الذي حقن الله به دماء الامة وجنبها القتال لو لم يرد ازاحته عن طريقه إلى الابد، بعد ان كان ملزماً بموجب وثيقة الصلح ان يكون هو الخليفة بعد موت معاوية وفسح المجال امام يزيد لاشغال هذا المنصب بعد تجاهل البند الآخر في الوثيقة الذي ربما رآه اقل اهمية، وهو ان يكون الحسين عليه السلام خليفة اذا ما حل حادث الموت بالامام الحسن عليه السلام، ولعل صغر سن يزيد واشتهاره بالعبث منذ وقت مبكر منعاه ايضاً من اعلان عزمه على استخلافه، ورأى ان يتريث حتى تتاح له فرصة تجميله وتحسين صورته امام الامة.

ولنذكر القصة كما رواها ابن الاثير في تاريخه، ففيها تفصيلات اكثر من غيرها:

(.. وفي هذه السنة (سنة ست وخمسين، بايع الناس يزيد بن معاوية بولاية عهد ابيه، وكان ابتداء ذلك وأوله من المغيرة بن شعبة، فان معاوية اراد ان يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص، فبلغه ذلك فقال: الرأي ان اشخص إلى معاوية استعفيه ليظهر للناس كراهتي للولاية. فسار إلى معاوية وقال لاصحابه حين وصل اليه: ان لم اكسبكم الآن ولاية وامارة، لا أفعل ذلك ابداً. ومضى حتى دخل

على يزيد وقال له: انه قد ذهبت اعيان اصحاب النبي ﷺ وآله، وكبراء قريش، وذووا اسنانهم، وانما بقي ابناؤهم، وانت من افضلهم، واحسنهم رأياً، واعلمهم بالسنة والسياسة، ولا ادري ما يمنع أمير المؤمنين ان يعقد لك البيعة؟ قال: أو ترى ذلك يتم؟ قال: نعم.

فدخل يزيد على ابيه وأخبره بما قال المغيرة. فأحضر المغيرة وقال له: ما يقول يزيد؟

فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان. وفي يزيد منك خلف، فاعقد له، فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس، وخلفاً منك، ولا تسفك دماء، ولا تكون فتنة. قال: ومن لي بهذا؟

قال: انا اكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين احد يخالفك. قال: فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق اليه في ذلك وترى ونرى. فودعه ورجع إلى أصحابه فقالوا: مه. قال: لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على امة محمد، وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق ابداً وتمثل:

بمثلي شاهدي النجوى وغالى　　بي الاعداء والخصم الغضابا.

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق اليه ومن يعلم انه شيعة لبني امية امر يزيد، فأجابوا إلى بيعته، فأوفد منهم عشرة ويقال اكثر من عشرة.. واعطاهم ثلاثين الف درهم وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها. فقال معاوية: لا تعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم.

وقيل: فلما دخلوا على معاوية قاموا خطباء فقالوا: انما اشخصهم اليه النظر لأمة محمد ﷺ وقالوا: يا أمير المؤمنين كبرت سنك، وخفنا انتشار الحبل فانصب لنا علماً، وحد لنا حداً ننتهي اليه. فقال: اشيروا علي، فقالوا: نشير بيزيد بن اميرالمؤمنين.

فقال: أوَقَدْ رضيتموه؟ قالوا: نعم. قال: وذلك رأيكم؟ قالوا: نعم ورأي من وراءنا. فقال معاوية لعروة سراً عنهم: بكم اشترى ابوك من هؤلاء دينهم؟

قال: باربعمائة دينار. قال: لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً، وقال لهم: ننظر ما قدمتم له، ويقضي الله ما اراد، والأناة خير من العجلة. فرجعوا، وقوي عزم معاوية على البيعة ليزيد ...).

وقد روى اليعقوبي في تاريخه ان معاوية ولى عبد الله بن عامر على الكوفة بدل المغيرة.

(فلما بلغ أهل الكوفة الخبر، خرج كثير من الناس إلى عبد الله بن عامر فجعل المغيرة لا يسأل عن احد إلا قيل له قد خرج إلى عبد الله بن عامر، حتى سأل عن كاتبه، فقيل له قد لحق بعبد الله، فقال: يا غلام شد رحلي وقدم بغلي، فخرج حتى اتى دمشق، فدخل على معاوية، فلما رآه قال: ما أقدمك يا مغيرة، تركت العمل، واخللت بالمصر واهل العراق وهم اسرع شيء إلى الفتن؟ قال: يا أمير المؤمنين كبرت سني، وضعفت قوتي، وعجزت عن العمل، وقد بلغت من الدنيا حاجتي، والله ما آسي على شيء منها إلا على شيء واحد، قدرت به قضاء حقك، ووددت انه لا يفوتني اجلي وان الله احسن عليه معونتي قال: وما هو؟ قال كنت دعوت اشراف الكوفة إلى البيعة ليزيد بن أمير المؤمنين بولاية العهد بعد أمير المؤمنين، فاجابوا إلى ذلك ووجدتهم سراعاً نحوه. فكرهت ان احدث امراً دون رأي أمير المؤمنين فقدمت لاشافهه بذلك وأستعفيه من العمل. فقال: سبحان الله يا ابا عبد الرحمن انما يزيد ابن اخيك ومثلك اذا شرع في امر لم يدعه حتى يحكمه فنشدتك الله إلا رجعت فتممت هذا، فخرج من عنده فلقي كاتبه فقال: ارجع بنا إلى الكوفة فوالله لقد وضعت رجل معاوية في غرز لا يخرجها منه إلا سفك الدماء.

لقد عرف عبد فرعون هوى فرعون فزينه له، وجعل [اقتراحه] لايبدو وكأنه رغبة حقيقية لمعاوية، بل كمطلب جماهيري ملح نادت به الامة بأجمعها، وهذه هي احدى مهمات اعوان فرعون الرئيسية في كل زمان ومكان، قد لا يمارسون الظلم والقتل بأيديهم مباشرة، لكنهم كانوا دائماً سبباً مباشراً خلف كل جرائم فرعون وانتهاكات فرعون وويلات فرعون.

لقد علمنا فيما مضى كيف ان المغيرة كان احد اعمدة الحكم الاموي، وانه ساهم بتثبيت هذه الدولة الغاشمة ومهد لقيامها منذ اعتزاله المزعوم في صفين ثم بتزعم حملة الدعاية المناهضة لامير المؤمنين ثم الحسن عليه السلام.

(وكان معاوية يدس إلى عسكر الحس من يتحدث انَّ قيس بن سعد الحسن قد صالح معاوية وصار معه، ويوجه إلى عسكر قيس من يتحدث ان الحسن قد صالح معاوية وأجابه، ووجه معاوية إلى الحسن المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن ام الحكم، واتوه وهو بالمدائن نازل في مضاربه، ثم خرجوا من

عنده، وهم يقولون ويسمعون الناس: ان الله قد حقن بابن رسول الله ﷺ الدماء، وسكن به الفتنة واجاب إلى الصلح، فاضطرب العسكر ولم يشكك الناس فيه فوثبوا بالحسن فانتهبوا مضاربه وما فيها). تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢١٤- ٢١٥.

وعلمنا كيف مهد لاستدراج حجر بن عدي واصحابه ليقتلوا بيد معاوية بعد ان وشى بهم زياد بعد ذلك وحرض بعض اعوانه للشهادة ضدهم، وهم اول من قتل صبراً في الاسلام..

لقد وقفت مطامع المغيرة وتطلعاته غير المشروعة نصب عينيه دائماً، ومع انه لم يبع دينه بسعر [بخس] كما فعل اصحابه الذين ارسلهم إلى معاوية ليزينوا له بيعة يزيد، وباعه بأغلى الاسعار، إلا ان اغلى سعر كان يفكر فيه هو ولاية الكوفة وبقائه ضمن الحلقة المقربة من معاوية. وكان يحسب ان مصلحته مرهونة بمصالح سيده، فلم يهن عليه تغيير الوضع الذي اوجده لانه سيفقد عند ذاك كل شيء.

إن المغيرة يمثل الطائفة الثانية في عملية التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم، فهو نمط من الظالمين الذين (يشكلون حاشية ومتملقين. اولئك الذين قد لايمارسون ظلماً بأيديهم بالفعل. لكنهم دائماً وأبداً على مستوى نزوات فرعون وشهوات فرعون ورغبات فرعون، يسبقونه بالقول، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[1]، شكلوا دور الاثارة لفرعون. هؤلاء كانوا يعرفون انهم بهذا الكلام يضربون على الوتر الحساس في قلب فرعون، وان فرعون كان بحاجة إلى كلام من هذا القبيل، فتسابقوا إلى هذا الكلام، لكي يجعلوا فرعون يعبر عما في نفسه ويتخذ الموقف المنسجم مع مشاعره وعواطفه وفرعونيته)[2].

والا فما الذي رآه المغيرة في يزيد فحاول تزيين استخلافه لمعاوية، اللهم إلا انه رأى يزيد جميلًا في عين معاوية نفسه، وكانت حجة المغيرة انه قد سئم من سفك الدماء والاختلاف وان يزيد اذا ما عقدت له البيعة سيكون كهفاً للناس وسيكون عاملًا على منع الفتن وسفك الدماء في المستقبل.

(١) الاعراف ١٢٧.
(٢) المدرسة القرآنية ٢٣١.

هل كان المغيرة مقتنعاً بصحة وصواب مسعاه وهو يرى انه قد وضع رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على امة محمد ﷺ، وفتق عليهم فتقاً لا يرتق ابداً؟ ولا يخرجه منه إلا سفك الدماء؟

هل كان يحب معاوية إلى الدرجة التي يأسى بها على انقضاء عمره دون قضاء حاجة معاوية، وانه لم يكن يتمنى إلا ان يطيل الله في عمره ليقضي هذه الحاجة؟

وهل غابت حيلته وسبب سعيه ذاك على معاوية، وهما رفيقان يفهمان بعضهما؟ وهل كان هو الذي وضع رجل معاوية في ذلك الغرز البعيد، ام ان معاوية قد وضع رجله في ذلك الغرز منذ امد بعيد، ووضع فيه ارجل جميع حاشيته ومستشاريه وخدمه؟ ومنهم المغيرة؟ ان المرء لا ينبغي له ان يمر على هذه الامور الدقيقة وينظر اليها وكأن شيئاً لم يحدث. وينبغي عليه معرفة كل الدوافع الكامنة وراءها..

لقد عرفنا اذاً الدوافع وراء بيعة يزيد، وكان اولها رغبة الحاكم الاموي بالاحتفاظ بالسلطة لنفسه واولاده وذريته فيما بعد، ورغبة الحاشية والأتباع والمقربين في بقائها في البيت الاموي الذي حقق لهم اكبر قدر من السلطة والسيادة والامتيازات، اذ ان من شأن خروجها عنهم سقوط هذه الطبقة الطفيلية كلها وذهاب امتيازاتها إلى الابد.

وقد نصب هؤلاء انفسهم ممثلين للامة وجعلوا اقوالهم تبدو وكأنها تعبر عن ارادتها الحقيقية، وفي عملية الخداع الغادرة تلك اوهموا الامة انهم كانوا يتصرفون بوحي الحفاظ على مصالحها ووحدتها ومن اجل حقن دماء ابنائها.

ان عملية تنصيب يزيد بدت وكأنها تتم في جمهورية روما القديمة أو في احدى ممالك الغرب. العتيقة وبدت الامة كآخر شيء يفكر فيه الحاكمون ويحسبون حسابه، اما الدين، اما الاسلام الذي تدّعي تلك المملكة القيام على اساسه، فلا وجود حقيقياً له إلا على نطاق بعض الاداءات الشعائرية والطقوسية المجردة التي يثبت بها الحاكم انه ينتمي إلى الاسلام، ويحكم قبضته على الرقاب بحجة المحافظة عليها، إن الطريقة التي تم بها تحويل الدولة الإسلامية إلى مملكة أو اقطاعية خاصة تنفرد بادارتها عائلة معينة لم تنتسب للاسلام إلا بالاسم، تعد اكبر عملية سطو تمت عبر التاريخ، وسرقت فيها مكتسبات البشرية كلها لا في الزمن الذي تمت فيه عملية السطو وانما في جميع

الازمان والى يومنا هذا، وانها لمأساة كبيرة، ان تستسلم الامة بتلك الرخاوة وذلك الضعف لمن كبلوها إلى الابد وحجروا عليها وصادروا حرياتها ومكاسبها، وتسخر اكبر مجموعة من محترفي الدين والحديث والسيرة ومدعي صحبة الرسول ﷺ والقصاصين والشعراء وغيرهم في هذه العملية التي أُريد بها غسيل ادمغة كل ابناء الأمة لتقبل هذه الحالة الشاذة لتكون هي الاصل والقاعدة، وأن لا يكلف من جاءوا بعدهم انفسهم عناء تمحيص مواقفهم واقوالهم والظروف التي تمت فيها ويأخذوها على علاتها، والاسباب واضحة في حال اولئك الذين يتصرفون في ظل انظمة مشابهة للنظام الاموي الفرعوني، اما اولئك الذين لا تقيدهم قيود دول طاغوتية متجبرة، فلماذا يخدعون ببريق من باعوا انفسهم للشيطان وخضعوا له وتقبلوا الانحراف كأمر واقع لا بد منه، ولماذا لا يعيدون النظر بتلك المأساة التي وقعت بعد أقل من نصف قرن فقط من وفاة الرسول ﷺ ليست رؤية الاسلام لمثل هذه الامور نظرة غائمة أو ضبابية حتى نروح نحن نعالج اخطر مسائل الاسلام بهذه الروح المنهزمة اللامبالية، بل انها رؤية واضحة تستهدف تحميل كل فرد من المجتمع الاسلامي مسؤولية القيادة والتقويم والنقد وعدم ترك الامور بيد فئة خاصة تستأثر بكل شيء وتستولي على كل شيء بمختلف الذرائع والحجج طالما ان القوه بيدها. ولا ندري بأية عقلية يفكر عالم كابن العربي قديماً ومحمد قطب وامثالهما عند تناول هذه القضية، قضية الحكم في الاسلام واستعراضها كأنهامن قضايا الترف الفكري البحت الذي لا علاقة له بمصير الامة وحياتها ومستقبلها.

فقد ذكر ابو بكر ابن العربي في العواصم من القواصم:

(إن معاوية ترك الافضل في ان يجعل الخلافة شورى، وعدل إلى ولاية يزيد، وعقد له البيعة، فبايعه الناس، وانعقدت بيعته لأنها تنعقد بواحد وقيل باثنين ويزيد أهل لذلك، وليس للخلافة سن مخصوص، رهو رجل ليس مسلوب العدالة، وان كان هناك من هو احق بالامامة من يزيد، فان امامة المفضول جائزة على الإختلاف فيها)[1].

أهو عبث؟ لماذا ترك معاوية الافضل في ان يجعل الخلافة شورى على حد تعبير ابن العربي؟

---

(١) تطهير الجنان: ابن حجر ص٦١.

ولماذا ترك الافضل فعلًا باعادتها إلى اهلها الحقيقيين آل الرسول ﷺ ونكث بوعوده ولم ير امامه إلا ابنه يزيد؟ فعدل إلى ولايته وعقد له البيعة.. فبايعه الناس؟

هل تمَّ الامر هكذا وبهذه البساطة، وهل لم يسخر معاوية كل طاقات الدولة وامكاناتها واخذ الناس بكل الطرق المتاحة للموافقة عليها.

وما هذا الحديث عن انعقاد البيعة بواحد، وقيل باثنين، لو عقدت لغير يزيد بواحد أو اثنين أو حتى بألفين أو مليونين هل كان معاوية يقبل ذلك، وكيف علم ابن العربي ان يزيداً أهل لذلك وانه ليس مسلوب العدالة؟

وكيف يؤكد جواز امامة المفضول مع أنه يقر بانها مسألة فيها اختلاف.

لعل ابن العربي لا يحسب انه سيقف موقفاً عادلًا يوم الجزاء ويحاسب على اضاليله وافتراءاته؟

أهو عبث كعبث يزيد نفسه؟

أهذه حصيلة المسلمين من دينهم ومن رسولهم الكريم ﷺ، ان يخلف عليهم امثال يزيد ويرضى لهم الحياة في ظل الانحراف والجهل والعبث والاهمال؟

هل هذا هو الاسلام...؟

لا بد من وقفة جدية لمناقشة الامر مجدداً والا بقينا ضحية دائمية لامثال يزيد واشباهه.

لماذا يكلف أولئك الذين يدعون للصحوة الاسلامية انفسهم عناء محاربة اناس لا يختلفون مظهرياً عن يزيد، بل قد يفضلونه، ويقبلون يزيداً؟ الان عهده قد مر وانقضى؟ وان علينا ان لا ننظر إلا الساعة التي نحن فيها؟.

ان النماذج المعادة المكرورة من يزيد قد ظهرت عشرات المرات على مسرح السياسة والحكم، لان الامة تقبلت النموذج الأول ولم ترفضه بل خضعت له واستسلمت بسهولة، فكيف يمكن ايقاف هذه المهزلة ان كنا ننحاز دون وعي وتمحيص إلى صف من حاربوا الاسلام عملياً وان ادعوا وصايتهم وحرصهم عليه؟ ان استعراض تاريخنا ينبغي ان يتم بطريقة حذرة متيقظة تضع امامها كل قواعد التصور الإسلامي السليم، وان ننظر بعين الرسول ﷺ لا بعين عدوه.

وقد ذهب الخوف من ذلك ببعضهم إلى منع الخوض نهائياً بوقائع التاريخ

الإسلامي زاعماً ان ذلك يهيج الناس على بعض الصحابة والطعن فيهم، فهل كان يزيد أو ابن زياد أو ابن سعد واشباههم من الصحابة حتى يتخوف عليهم هؤلاء؟

(قال الغزالي وغيره: ويحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين وحكاياته وما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم، فانه يهيج على بعض الصحابة أو الطعن فيهم وهم اعلام الدين، تلقى الائمة الدين عنهم رواية، ونحن تلقيناه من الائمة دراية فالطاعن فيهم مطعون، طاعن في نفسه ودينه. وقال ابن الصلاح والنووي الصحابة كلهم عدول.

ومما يوجب الامساك عما شجر أي وقع بينهم من الاختلاف والإضطراب صفحاً عن اخبار المؤرخين.. فقد قال ﷺ: «اذا ذكر اصحابي فأمسكوا، والواجب ان نلتمس لهم احسن التأويلات واصوب المخارج اذ هم أهل لذلك »[1].

ولا ندري عندما سوغوا جعل معاوية من الصحابة، كيف اباحوا لانفسهم جعل يزيد كذلك.. هل يجب طوي السجل هكذا؟ واذا ما اردنا ان نبدأ من جديد، فعلى أي اساس نبدأ؟ وما هو مقياس نظرتنا إلى الامور؟.

هل لجأ معاوية إلى الباطل مرة واحدة حتى نبرر له ذلك ونقول انه اجتهد فأخطأ.. أم ان اعماله بمجملها كانت الخوض في الباطل والسير في دروبه دائماً؟ ولماذا سيطرة الاسطورة الاموية على عقول فئات كبيرة من المسلمين إلى اليوم؟

واذا ما تساءل احد: كيف تمت مهزلة البيعة ليزيد، مع ما كان عليه من سلوك فاضح مكشوف لملايين المسلمين؟ نعود إلى جوابنا: ان الامة قد غلبت على امرها واستدرجت لتقبل اوضاعها المأساوية بعمليات منظمة دؤوبة من قبل معاوية الداهية الماكر واجهزته المتمرسة ووسائل اعلامه العديدة، وقد اجبر الامة على قبوله، بعد ان كان شكله المحسن نسبياً لا يمكن ان يدخل ضمن لعبة الحكم وزعامة المسلمين على الاطلاق مع ما كان يتظاهر به من الميل للاسلام والمجاهرة بشعائره المعلنة كالصلاة وغيرها، فسلوكه الفاضح لم يخف على احد من ابناء الامة.

وقد كانت حسابات معاوية الارضية والتجارية البحتة في الربح والخسارة تحاول ان توحي للناس انه ما دام قد فاز بالملك فعلًا في النهاية فان الحق معه، وان

(١) ابن حجر الصواعق المحرقة ٢٢٣.

تلك كانت مشيئة الله نفسه، ولا بد ان يكون الامر نفسه مع يزيد ايضاً، ما دام قد فاز واصبح وجوده امراً واقعاً. .، وهذا ما احتج به يزيد نفسه، مبرراً قيامه بقتل الحسين عليه السلام واصحابه عليهم السلام في معركة الطف.

(فأما قوله: [ويقصد به الحسين عليه السلام] أبوه خير من ابي، فقد حاج أبي واياه إلى الله عز وجل، وعلم الناس ايهما حكم له. .).

فما دام الجو قد خلا لمعاوية في النهاية، فانه هو الذي كان على الحق، وأن الله قد حكم له، وبنفس هذا المنطق يمكن ان يبرر شرعية وجوده بعد مقتل الحسين عليه السلام وصحابته وانصار رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة، ما دام هو المسيطر الوحيد على الساحة.

ولعل القصص التي رويت في [فضائل] يزيد والتي استمعنا إلى قسم منها، كانت تمهد لجلوسه عل العرش، اذ لم يكن الامر كذلك، لما كلف معاوية نفسه عناء ابراز هذه [الفضائل] التي بدا فيها يزيد امام ابيه مثالّاً للطاعة والزهد والعفة والتواضع والعلم.

وهذه القصص مصدرها الوحيد معاوية والطرف الآخر يزيد، ولا بد للقارىء المدقق ان يلاحظ التكلف الواضح فيها والأمور التي تستهدفها هذه الاقاصيص المفتعلة.

ومع كل حنكة معاوية ودهائه وخياله الطويل العريض، فانه ربما لم يكن يتصور في يوم من الايام وقبيل ابداء المغيرة استعداده لاقناع أهل الكوفة بها، أن احداً يمكن ان يفكر بيزيد خليفة للمسلمين، فهو ربما قد نفض يديه منه إلى الابد، ولم ير فيه ما يشجعه عن ان يكون خليفته، وربما فكر بمتخلف اموي آخر يضعه بدلّا عنه بعد ان يملي عليه شروطه ويوصيه بعائلته إلّا ان [الملأ] المقربين والحاشية المتملقة التي لم يكن يهمهم سوى بقاء وديمومة مراكزهم وامتيازاتهم وضمان قربهم من سدة الحكم زينوا لمعاوية الامر وشجعوه على السعي لاخذ البيعة ليزيد، وكأنه الامر الوحيد الذي كان ينبغي عليه القيام به فوراً فهم كانوا يشعرون ان كل شيء يمكن ان يضيع منهم إلى الابد بهلاك معاوية، وان حياتهم رهينة بحياته.

وربما لم يكن معاوية ليجرؤ على القيام بهذه الخطوة لولا الحاح حاشيته ومستشاريه وملئه، وعندها قام بتلك العمليات التجميلية التي كان قوامها تلك

الاقاصيص الملفقة عن كفاءة يزيد وامكاناته النادرة وحرصه على النجاة من النار بتولي امر المسلمين ولو لثلاثة ايام. . . الخ.

وربما كان معاوية يريد ان يستكشف الامر منذ البداية بشأن استخلاف يزيد ويجس نبض الامة، فان لقي قبولًا منها، مضى في مهمته إلى النهاية، وان رأى اعراضاً وامتناعاً ومقاومة عدل عن ذلك بطريقته الخاصة التي تدفع عنه الاحراج والمشاكل. ولعله لم يقتنع بكلام المغيرة حتى ارسل اليه جماعة متملقة من اهالي الكوفة، وقد خاطبهم معاوية وكأنه يستلهم النصح منهم:

(أشيروا علي. فقالوا: نشير بيزيد بن أمير المؤمنين. فقال: أو قد رضيتموه؟ قالوا: نعم. قال: وذلك رأيكم؟ قالوا: نعم ورأي من وراءنا)[1].

واذا ما علمنا ان المغيرة قد دفع لكل واحد من هؤلاء اربعمائة درهم رأينا ان معاوية كان محقاً وربما للمرة الاولى في حياته عندما وجد (دينهم عندهم رخيص)[2]، كما عبر عن ذلك، ولم يبيعوه بذلك الثمن الغالي الذي باعه به هو واصحابه.

ولم يرد معاوية اكراه النفر الذين أبوا مبايعة يزيد مثل الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وترك هذه المهمة لينجزها يزيد فيما بعد عندما يتولى الامور بعد وفاته.

لقد ترك مهمة السعي للبيعة في الكوفة للمغيرة وفي البصرة لزياد، اما المدينة ومكة فقد كان اعوانه وولاته الامويون فيها كفيلين بانجاز هذه المهمة، وحاول ارسال ابنه لجهاد الروم في جيش اردف به الجيش الاول بعد ان تخلف في الطريق، وكانت تلك اكبر نكسة يمكن ان تلحق بهذه المهمة التي يسعى لها معاوية اذا ما رفض يزيد الذهاب إلى القسطنطينية.

فقد (اغزى معاوية يزيد ابنه الصائفة ومعه سفيان بن عوف العامري، فسبقه سفيان بالدخول إلى بلاد الروم، فنال المسلمين في بلاد الروم حمى وجدري، وكانت ام كلثوم بنت عبد الله بن عامر تحت يزيد بن معاوية، وكان لها محباً، فلما بلغه ما نال الناس من الحمى والجدري قال:

---

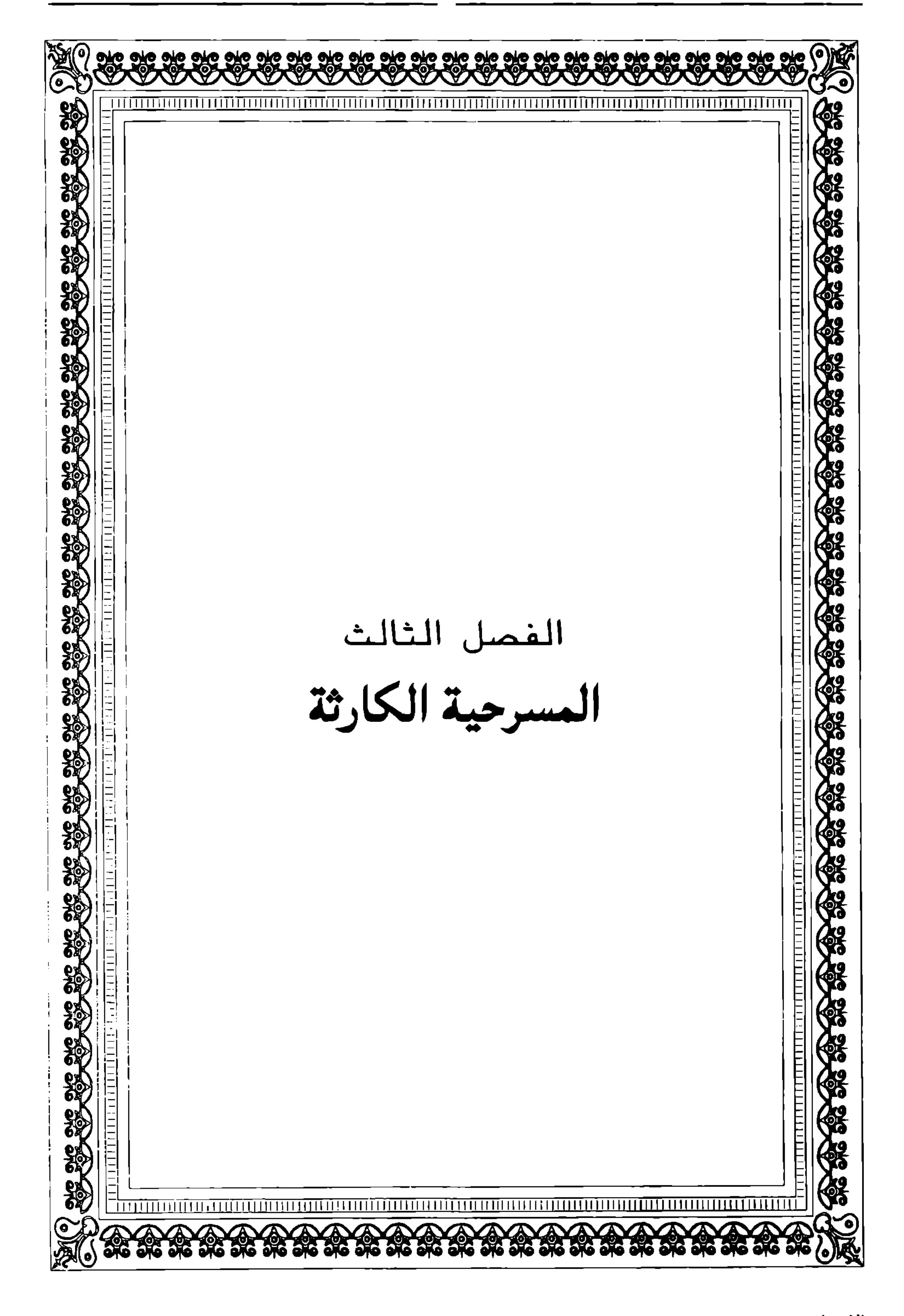
(١) ابن الاثير ٣/ ٣٥٠.

(٢) نفس المصدر.

ما إن ابالي بما لاقت جموعهم بالغذقذونه من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الانماط في غرف بدير مران عندي ام كلثوم

فبلغ ذلك معاوية فقال: اقسم بالله لتدخلن ارض الروم فليصيبنك ما اصابهم، فاردف به ذلك الجيش، فغزا به حتى القسطنطينية)[1] وكان ذلك عام ٥٠ للهجرة.

(١) اليعقوبي ٢/ ٢٢٩. ومروج الذهب ٢٩.



الفصل الثالث

المسرحية الكارثة

بيعة يزيد

سيناريو وإخراج معاوية

لقد بدأ الاعداد الفعلي لبيعة يزيد قبل سنة ٥٠ للهجرة، بعيد قتل الإمام الحسن عليه السلام بالسم من قبل معاوية كما رأينا وبعد المشورة العلنية للمغيرة بذلك واستعداده لاقناع أهل الكوفة وقيام زياد باقناع أهل البصرة وهما المركزان المتوقعان للمعارضة والرفض.

وبدا حرص معاوية على اكمالها إلى حد جعله يغضب من زياد، وهو من اقرب المقربين اليه، إلى حد شتمه وتهديده بارجاعه عبداً كما كان، مع ان معاوية اشتهر باخفاء مشاعره وعواطفه امام الناس، عندما نصحه بتأجيل الامر عاماً أو عامين ريثما تتاح فرصة تحسين صورته وتجميلها امام الامة.

وكانت الخطوة الاولى هي رسم صورة جديدة ليزيد لترضاه الامة خليفة لها وهكذا:

(كتب معاوية إلى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وان يوفدوا اليه الوفود)[1].

وهكذا وفدت الوفود المؤيدة لمشروع البيعة لتشارك باكبر عرض مسرحي اعد لهذه الغاية وليستمع اعضاؤها إلى الخطب البليغة بحق الخليفة المرتقب، ثم تقوم بعد ذلك بتبليغ اهالي الامصار [باجماع] الأمة و [رغبتها الشديدة] لانتخاب يزيد والانطباع الحسن عنه لدى الجميع، وانه البديل العملي الوحيد لمعاوية.

وكان التمهيد لمسرحية التحكيم قد تم بصورة حاذقة متوقعة من معاوية فعلًا. فعند وصول الوفود إلى دمشق دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري، فقال له:

[اذا جلست على المنبر، وفرغت من بعض موعظتي وكلامي، فاستأذني للقيام، فاذا اذنت لك، فاحمد الله تعالى، واذكر يزيد، وقل فيه الذي يحق له عليك

(١) ابن الاثير ٣/ ٣٥٢، والعقد الفريد ٥/ ١١١- ١١٢.

من حسن الثناء عليه، ثم ادعني إلى توليته من بعدي، فاني قد رأيت واجمعت على توليته، ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن مسعدة الفزاري وثور بن معن السلمي وعبد الله بن عصام الاشعري، فأمرهم ان يقوموا اذا فرغ الضحاك وأن يصدقوا قوله، ويدعوه إلى بيعة يزيد)[١].

فهو هنا قد وضع حتى التفاصيل الدقيقة ودور كل ممثل في هذه المسرحية الفاضحة، وارادهم ان يظهروا وكأنهم ممثلون للامة يتحدثون باسمها ويعبرون عن رغباتها الحقيقية والملحة بتولية يزيد.

وهكذا تحدث هؤلاء الخطباء المعبرين عن رغبات معاوية امام وفود الامصارالمتجمعة في عاصمة الدولة. . ، وكان اول من تحدثوا ليكسروا طوق الخجل من التحدث عن فضائل يزيد امام الآخرين الذين لا بد سيحرجون امام معاوية وخطبائه المتحمسين ويحذون حذوهم بابداء الحماس تجاه خليفة الامة المرتقب.

وبعيد اللمسات الاخيرة للمشهد وبعد ان جلس معاوية على المنبر، وفرغ من بعض موعظته، وهؤلاء النفر في المجلس قد قعدوا للكلام[٢].

قام خطيبهم الاول، الضحاك بن قيس وقد جاء بكلمته التي لا بد انه قد اعدها اعداداً جيداً تناسب المقام الذي وقفه:

[انا قد بلونا الجماعة والالفة، والاختلاف والفرقة، فوجدناها أَلم لشعثنا، وامنة لسبلنا، وحاقنة لدمائنا، وعائدة علينا في عاجل ما نرجو وآجل ما نؤمل، مع ما ترجو به الجماعة من الالفة، ولا خير لنا ان نترك سدى، والايام عوج رواجع، والله يقول (كل يوم هو في شأن)، ولسنا ندري ما يختلف به العصران، وانت يا أمير المؤمنين ميت كما مات من كان قبلك من انبياء الله وخلفائه، نسأل الله بك المتاع، وقد رأينا من دعة يزيد بن أمير المؤمنين، وحسن مذهبه وقصد سيرته ويمن نقيبته، مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين والشبه بأمير المؤمنين في عقله وسياسته وشيمته

(١) الامامة والسياسة ١٦٥-١٦٦ ١ وراجع ابن الاثير ٣/ ٣٥٢.

(٢) المصدر السابق ١٦٦ وقد روى ابن الاثير ٣/ ٣٥٢ ان معاوية في خطبة له تكلم (فعظم امر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها وما امر الله به من طاعة ولاة الامر، ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض ببيعته).

المرضية، ما دعانا إلى الرضا به في امورنا. والقنوع به في الولاية علينا، فليوله أمير المؤمنين اكرمه الله عهده وليجعله لنا ملجأ ومفزعاً بعده، تأوي اليه ان كان كون، فانه ليس احد أحق بها منه، فاعزم على ذلك، عزم الله لك في رشدك، ووفقك في امورنا)[1].

لقد اكد الضحاك في خطبته على الالفة والجماعة، وهي النغمة التي عزف عليها معاوية طيلة حكمه، وقد أراد الايحاء بانه حقق ما لم يتحقق من قبل، وانه جنبهم ايام حكمه ويلات الحروب التي خاضوها ضد أمير المؤمنين عليه السلام، متناسياً انه السبب الرئيسي لهذه الويلات والفتن، وان الالفة والجماعة هي المكسب الرئيسي الذي تحقق بفضله، وذلك ما يجب ان يحافظوا عليه ويتمسكوا به ويتنازلوا عن كل شيء مقابله.

أما مواصفات يزيد فهي الدعة وحسن المذهب وقصد السيرة ويمن النقيبة ومحبة المسلمين له، وشبهه بأبيه معاوية في عقله وسياسته وشيمته، وانه اذا ما اصبح خليفة بعد ابيه فانه سيحقق لهم ما حققه ذلك الاب.

اننا لا نلمح نفساً اسلامياً في هذه الخطبة، ولا نلمس إلا تلويحاً بالمصالح والامتيازات، ولكن ماذا عسى ان يقول الضحاك أو غيره غير ما قال في يزيد.

ثم ألقى عبد الرحمن بن عثمان الثقفي خطبة رنانة أخرى شكى فيها من الزمان واهوائه وادوائه وابنائه وتطوع ليشير على معاوية بالرشاد ويدعوه إلى السداد حسب تعبيره مع انه احسنهم نظراً واثبتهم بصراً، وقد جاء فيها:

(ويزيد بن اميرالمؤمنين قد عرفنا سيرته وبلونا علانيته ورضينا ولايته، وزادنا بذلك انبساطاً، وبه اغتباطاً، ما منحه الله من الشبه بأمير المؤمنين والمحبة في المسلمين، فاعزم على ذلك ولا تضق به ذرعاً، فالله تعالى يقيم به الاود، ويردع به الالد، وتؤمن به السبل، ويجمع به الشمل، ويعظم به الاجر، ويحسن به الذخر..)[2].

ترى ماذا عرفوا من سيرة يزيد وماذا بلوا من علانيته، ولماذا رضوا ولايته وزادهم بذلك انبساطاً واغتباطاً؟ ألأنه اشبه الناس بمعاوية؟ ألأن الامة تحبه؟

---

(١) الامامة والسياسة ١٦٦ والكامل ٣/ ٣٥٢.

(٢) المصدر السابق ١٦٧.

لقد بدا خطاب عبد الرحمن الثقفي وكأنه يوجه لانسان متردد حائر، لا لانسان قد عزم امره ووصل إلى قراره، واراد بذلك ايهام الناس بان معاوية لم يتخذ قراره إلا بناءً على رجاء الامة وطلبها.

ولقد افلح هذا المتملق وامثاله بجعل الناس يدركون ان معاوية مصرٌّ على المضيِّ بهذه البيعة إلى النهاية، وانه لن يتراجع عنها حتى وان كان الثمن مزيداً من دماء ابناء الامة، وقد بلوا معاوية في السابق وخبروه، وعرفوا انه سيستميت في الدفاع عن مصالحه وملكه الذي حسب انه قد ضحى من اجله وبذل الكثير واقنع جيلًا من الناس بذلك.

أما ثور بن معن الثالث في سلسلة الخطباء الممثلين في هذه المسرحية الهزلية المعدة فقد تكلم عن الزمان وتقلباته، واطرى يزيد ودعا إلى استخلافه، وذكر فضائل له تصلح لو صحت لانسان يعيش القيم العربية الجاهلية، لا قيم الاسلام، ففضائل الاسلام لم تذكر إلا على نحو غير واضح، وقد جاء في خطبته:

(... ويزيد بن أمير المؤمنين اقدمنا شرفاً، وابذلنا عرفاً، وقد دعانا إلى الرضا به، والقنوع بولايته، والحرص عليه، والاختيار له، ما قد عرفنا من صدق لسانه ووفائه، وحسن بلائه، فاجعله لنا بعدك خلفاً، فانه اوسعنا كنفاً واقدمنا سلفاً، وهو رتق لما فتق وزمام لما شعب، ونكال لمن فارق ونافق، وسلم لمن واظب وحافظ للحق)[1].

وهذه صفات ملك جاهلي نموذجي، لو كان يزيد يتمتع بها حقاً لكان صالحاً لحكم قبيلة أو شعب من شعوب الجاهلية، ولكن هل عرف احد ليزيد حتى هذا القدر من الصفات المطلوبة لحاكم جاهلي غابر؟

وقد بدا عبد الله بن عصام خلال خطبته كأحد الزهاد أو الاولياء الذي لا تروق له هذه الدنيا المقضية المليئة بالاهواء المنجذمة التي يخاف حدها وينتظر جدها..

(شديد منحدرها كثير وعرها، شامخة مراقيها، ثابتة مراتبها، صعبة مراكبها، .... فالموت يا أمير المؤمنين من ورائك ووراء العباد، لايخلد في الدنيا احد ولا يبقى لنا امد وانت يا أمير المؤمنين مسؤول عن رعيتك ومأخوذ

(١) المصدر السابق.

بولايتك، وانت انظر للجماعة، واعلى عيناً بحسن الرأي لاهل الطاعة، وقد هديت ليزيد في اكمل الامور وافضلها رأياً واجمعها رضاً، فاقطع بيزيد قالة الكلام ونخوة المبطل وشغب المنافق واكبت به الباذخ المعادي، فان ذلك الم للشعث واسهل للوعث، فاعزم على ذلك ولا تترامى بك الظنون)[١].

وقد بدا واعظ السلاطين هذا حريصاً كزملائه على تولية يزيد، مع انه لم يسهب في الحديث عن فضائله ومزاياه.

اما الخطيب الأخير عبد الله بن مسعدة الفزاري الذي رأى ان الله آثر معاوية بالخلافة، رأى ايضاً ان يزيد احق الناس بالخلافة بعده لشبابه ومكارمه وشدته في العدو وحث معاوية على استخلافه قائلًا:

(. . . ان الله آثرك بخلافته، واختصك بكرامته، وجعلك عصمة لاوليائه، وذا نكاية لاعدائه، فاصبحت بأنعمه جذلًا، ولما حملك محتملًا، يكشف الله تعالى بك العمى، ويهدي بك العدى، ويزيد بنُ أمير المؤمنين احسن الناس برعيتك رأفة، واحقهم بالخلافة بعدك، قد ساس الامور، واحكمته الدهور، ليس بالصغير. . . ولا بالكبير السفيه، قد احتجى المكارم وارتجى لحمل العظائم واشد الناس في العدو نكاية، واحسنهم صنعاً في الولاية، وانت اغنى بأمرك، واحفظ لوصيتك، واحرز لنفسك. . .)[٢].

وقد ادى الخطباء الذين اعدهم معاوية امام الوفود لمثل هذا الموقف أدوارهم ببراعة منقطعة النظير جعلت الناس لا يشكون في (اخلاصهم) وولائهم للبيت الاموي المالك وانحيازهم التام اليه، مما جعل احتمال تنصيب يزيد (خليفة) امراً محققاً، رغم ان احداً من الخطباء أنفسهم لم يستطع ذكر محاسن محددة ليزيد، إلا انه اشبه الناس بوالده، وان استخلافه قمين بمنع الفتن والمشاكل، وربما حقق فائدة اكبر بعد تحقيق حياة طابعها الدعة والاستقرار، وقد كان الخطباء المذكورون يمثلون اغلبية مجتمع الشام المنحاز لمعاوية والذي خاض الحروب معه ضد الإمام علي عليه السلام.

وقد اراد معاوية بخطبته هو، وخطب اعوانه جس نبض الآخرين الذين دعاهم من الامصار، وقد سأل الخطباء وربما وفود الامصار:

---

(١) و(٢) المصدر السابق ١٦٨.

(أوَكلكم قد اجمع رأيه على ما ذكرنا؟ فقالوا: كلنا قد اجمع رأيه على ما ذكرنا)[1].

وقد طلب من الاحنف بن قيس ان يبدي (رأيه) في هذه المسألة، وكان يتوقع استجابة تامة منه وقبولًا ببيعة يزيد وقد أجابه الاحنف بقوله:

(... اصلح الله أمير المؤمنين. ان الناس قد امسوا في منكر زمان قد سلف، ومعروف زمان مؤتنف، ويزيد، بن أمير المؤمنين نعم الخلف، وقد حلبت الدهر اشطره يا أمير المؤمنين فاعرف من تسند اليه الامر من بعدك، ثم اعص امر من يأمرك، لايغررك من يشير عليك، ولا ينظر لك، وانت انظر للجماعة، واعلم باستقامة الطاعة مع ان أهل الحجاز واهل العراق لا يرضون بهذا، ولايبايعون ليزيد ما كان الحسن حياً)[2].

فقد ادرك الاحنف ان الخطب كانت مدبرة ومعدة من قبل، وان الاجتماع لم يكن سوى مسرحية، وان معاوية اراد اظهار بيعته ليزيد وكأنها استجابة لامر الامة ورغبتها، فاراد ان يلفت نظره إلى مسؤوليته الشخصية عن الامر كله، وعدم اللجوء إلى هذه المسرحيات المعدة من قبل.

ونفهم من كلام الاحنف ان هذا المشهد الاستعراضي تمَّ قبل اغتيال الإمام الحسن عليه السلام وقتله بالسم بايعاز وتشجيع من معاوية نفسه، وربما لفت الاحنف نظره إلى هذه الحقيقة، حقيقة عدم استجابة الامة لبيعة يزيد ما دام الإمام الحسن عليه السلام موجوداً في الساحة، وربما كان ذلك هو الذي جعله يسرع بالتخلص منه بعد ان لم تنجح محاولاته السابقة لقتله.

وقد اثار رد الاحنف غضب الضحاك بن قيس الذي القى ثانية خطبه نارية ضد أهل العراق وضد الإمام الحسن عليه السلام وآله وعبر عن اصرار أهل الشام على المضي إلى النهاية لاستخلاف يزيد بعد معاوية، وقد جاء في خطبته:

(إن أهل النفاق من أهل العراق، مروءتهم في انفسهم الشقاق، والفتهم في دينهم الفراق، يرون الحق على اهوائهم، كأنما ينظرون باقفائهم، اختالوا جهلًا وبطراً، لايرقبون من الله راقبة، ولا يخافون وبال عاقبة، اتخذوا ابليس لهم رباً

(١) و(٢) المصدر السابق ١٦٩.

واتخذهم ابليس حزباً، فمن يقاربوه لا يسروه، ومن يفارقوه لا يضروه، فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نحورهم، وكلامهم في صدووهم، ما للحسن وذوي الحسن في سلطان الله الذي استخلف به معاوية في أرضه هيهات لا تورث الخلافة عن كلالة، ويحجب غير الذكر العصبة، فوطنوا انفسكم يا أهل العراق على المناصحة لامامكم وكاتب نبيكم وصهره، يسلم لكم العاجل وتربحوا من الآجل)[1].

كما اثار رد الاحنف غضب رجل من أهل الشام فقال:

(ما ندري ما تقول هذه المعدية العراقية، وإنما عندنا سمع وطاعة وضرب وازدلاف)[2].

وقد حاول الاحنف اثارة النزعات الخيرة عند معاوية وحثه على عدم نكث عهوده للامام الحسن عليه السلام وهدده ان فعل ذلك بشن الحرب عليه ثانية، وقد جاء في خطبته:

(انا قد فررنا عنك قريشاً فوجدناك اكرمها زنداً، واشدها عقداً، واوفاها عهداً، وقد علمت انك لم تفتح العراق عنوة، ولم تظهر عليها قعصاً، ولكنك اعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت، ليكون له الامر من بعدك، فان تف فانت أهل للوفاء، وان تغدر تعلم، والله ان وراء الحسن خيولًا جياداً، واذرعاً شداداً، وسيوفاً حداداً، ان تدن له شبراً عن غدر، تجد وراءه باعاً من نصر، واتك تعلم ان أهل العراق ما احبوك منذ ابغضوك، ولا ابغضوا علياً وحسناً منذ احبوهما، وما نزل عليهم في ذلك غير من السماء، وان السيوف التي شهروها عليك مع علي يوم صفين لعلى عواتقهم، والقلوب التي ابغضوك بها لبين جوانحهم، وايم الله ان الحسن لأحبُّ إلى أهل العراق من علي)[3].

ومع ان معاوية لم يجبه، إلا ان احد الخطباء المكلفين بالمشاركة لعرض مسرحية الاستخلاف وهو عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، تصدى للأحنف بخطبة غاضبة، شجع فيها معاوية على المضي بخطته إلى النهاية، قال الثقفي في خطبته:

(١) الامامة والسياسة ١٦٩.
(٢) ابن الاثير ٣/ ٣٥٢ ومروج الذهب ٣/ ٣٤.
(٣) الامامة والسياسة ١٧٠.

(. . . ان رأي الناس مختلف، وكثير منهم منحرف، لا يدعون احداً إلى الرشاد، ولا يجيبون داعياً إلى سداد مجانبون لرأي الخلفاء، مخالفون لهم في السنة والقضاء، وقد وقفت ليزيد في احسن القضية، وارضاها لحمل الرعية، فاذا خار الله لك فاعزم، ثم اقطع قالة الكلام، فان يزيد أعظمنا حلماً وعلماً، وأوسعنا كنفاً، وخيرنا سلفاً، قد احكمته التجارب، وقصدت به سبل المذاهب، فلا يصرفنك عن بيعته صارف، ولا يقفن بك دونها واقف ممن هو شاسع عاص، ينوص للفتنة كل مناص لسانه ملتو، وفي صدره داء دوي، ان قال فشر قائل، وان سكت فدود غائل، قد عرفت من هم أولئك وما هم عليه لك من المجانبة للتوفيق، والكلف للتفريق، فاجل ببيعته عنا الغمة، واجمع به شمل الأمة، فلا تحد عنه اذا هديت له، ولا تنش عنه اذا وقفت له، فان ذلك الرأي لنا ولك. والحق علينا وعليك. .)[1].

وقد شجع ذلك معاوية على القاء خطبة نارية، يغلب عليها الاسلوب الوعظي، هدد فيها كل مناوئيه ومعارضيه بالويل والثبور ان لم يستجيبوا لكل مخططاته ومساعيه لاحتكار السلطة له ولخلفه إلى الابد، وقد جاء في خطبته:

(إن لابليس من الناس اخواناً وخلاناً بهم يستعد واياهم يستعين وعلى السنتهم ينطق، ان رجوا طمعاً أو صفواً، وان استغنى عنهم ارجفوا، ثم يلحقون الفتن بالفجور ويشققون لها حطب النفاق، عيابون مرتابون، ان ولوا عروة امر حنقوا، وان دعوا إلى غي اسرفوا، وليسوا اولئك بمنتهين ولا بمقلعين ولا متعظين، حتى تصيبهم صواعق خزي وبيل، وتحل بهم قوارع امر جليل، ثجتث اصولهم كاجتثاث اصول الفقع، فاولى لاولئك ثم اولى، فانا قد قدمنا وأنذرنا ان اغنى التقدم شيئاً أو نفع النذر)[2].

وبعد خطبته الحماسية التي لا بد انه كان يبدو من خلالها متأثراً ومستاءً من المعارضة التي لمسها لاستخلاف يزيد قام يزيد بن المقنع العذري فقال:

(هذا أمير المؤمنين، واشار إلى معاوية فان هلك، فهذا واشار إلى يزيد، ومن ابى، فهذا، واشار إلى سيفه، فقال معاوية: اجلس فانت سيد الخطباء)[3].

(١) و(٢) المصدر السابق ١٧٠/ ١٧١.

(٣) ابن الاثير ٣/ ٣٥٢ وقيل انه قال: (يا امير المؤمنين: انا لا نطيق السنة مضر وخطبها انت امير المؤمنين، فان هلكت فيزيد بعدك، فمن أبى فهذا وسل سيفه، فقال معاوية: انت اخطب القوم واكرمهم) الامامة والسياسة ١٧١.

واذ علم الاحنف ان معاوية كان مصراً على عزمه باستخلاف يزيد فانه قال كلمة ختامية حذر فيها معاوية من المضي بهذه الخطوة إلى النهاية وقال:

(انت اعلمنا بليله ونهاره، وبسره وعلانيته، فان كنت تعلم انه خير لك فوله واستخلفه، وان كنت تعلم انه شر لك، فلا تزوده الدنيا وانت صائر إلى الآخرة، فانه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب، واعلم انه لا حجة لك عند الله ان قدمت يزيد على الحسن والحسين وانت تعلم من هما والى ما هما، وانما علينا ان نقول ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

وقد انتشرت ردود الاحنف على معاوية وخطبائه بين الناس..

(فتفرق الناس يحكون قول الاحنف)[2].

وبعد هذا الاجتماع التمهيدي الذي جس به معاوية النبض من اجل اخذ البيعة ليزيد، عمل بطرقه الخاصة السابقة لاستمالة الناس بمختلف الاساليب ولا بد ان الرشوة والتهديد والقتل كان في مقدمة هذه الاساليب.

(وكان معاوية يعطي المقارب ويدراي المباعد ويلطف به حتى استوثق له اكثر الناس وبايعه، فلما بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز)[3].

وهكذا تم احد اشأم فصول المهزلة التي تم فيها تنصيب يزيد [خليفة] مطلقاً متحكماً برقاب المسلمين واموالهم واعراضهم، باصرار من معاوية، مع علمه الاكيد بيزيد على حد تعبير الاحنف، فلا ندري كيف اجتهد ورأى انه الاصلح، وكيف اقتنع ابن العربي واشباهه بهذا الاجتهاد الذي اريد له تكريس مصالح الاسرة الاموية واستمرار سيطرتها على المسلمين إلى الابد.

المنهج الذرائعي الأموي في تبرير البيعة المهزأة

ان التبريرات التي يسوقها الموالون والمنحازون إلى معاوية والنظام الاموي برمته لا يمكن ان تقنع مسلماً اعتقد بالاسلام حقاً وانه المنهج الوحيد الكامل الذي

---

(١) الامامة والسياسة ١٧١ وقد اوردها ابن الاثير بصيغة اخرى قريبة واضاف اليها: (نخافكم ان صدقنا ونخاف الله ان كذبنا) ابن الاثير ٣/ ٣٥٢.

(٢) ابن الاثير ٣/ ٣٥٢، ٣٥٣.

(٣) ابن الاثير ٣/ ٣٥٣.

يمكن ان تسير حياة الناس على اساسه كله دون بتر أو تشويه أو تحريف لاحد اركانه أو مبادئه، فهل اعتنقنا الاسلام لننظر نظرة معاوية ويزيد اليه ونلغي نظرة رسول الله ﷺ أو نحرفها أو نحورها لتنسجم مع النظرة الاموية؟

ان الاسلام هو الاسلام، سواء في عهد رسول الله ﷺ أو معاوية أو الآن، ومهما اردنا ايجاد مبررات للخروج عليه مشابهة لتلك التي يخلقها الذرائعيون واشباههم فان ذلك لن يتاح لنا في ظل دين لم يخرجه احد الينا وانما انزله الله لنلتزم ونتقيد به ولا نحيد عنه،

والا فهل المنطق الذي يخاطبنا به ابن العربي وابن خلدون واشباههما هو منطق الاسلام؟

وهل يزيد هو حقاً القائد البديل لرسول الله ﷺ والذي يمكن ان يقود الامة كلها ويسير بها نحو حياة افضل؟

لنستمع ثانية إلى ابن خلدون، فكأننا نستمع لكاتب أو مؤرخ يسير في ركاب دولة وثنية أو مملكة جاهلية لم تعرف الاسلام اصلًا ولم تجعله أو تدعي جعله اساساً لوجودها أو كيانها: (ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به. ولم يكن لمعاوية ان يدفع عن نفسه وقومه فهو امر ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو امية ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من اتباعهم فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالامر لوقعوا في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها اهم عليه من امر ليس وراءه كبير مخالفة.

. . . وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو امية لم يرضوا تسليم الامر إلى من سواهم فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه، مع ان ظنهم به كان صالحاً ولايرتاب احد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره، فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق، حاشا الله لمعاوية من ذلك. وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكاً لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي انما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها، مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو اهم لديهم من كل مقصد. وما حدث في يزيد من الفسق ايام خلافته، فاياك ان تظن بمعاوية رضي الله عنه أنه علم ذلك (أي الفسق) من يزيد،

فإنه أعدل من ذلك وافضل، بل كان يعذله ايام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه وهل اقل من ذلك، ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذٍ في شأنه فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته كما فعل الحسين، ومنهم من اباه لما فيه من اثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به، لان شوكة يزيد يومئذٍ هي عصابة بني امية وجمهور أهل الحل والعقد من قريش. ولا يتهم الإمام في هذا الامر وان عهد إلى ابيه أو ابنه لانه مأمون على النظر لهم ني حياته، فأولى ان يحتمل فيها تبعة بعد مماته خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد ولمن خصص التهمة بالولد دون الوالد فانه بعيد عن الظنة في ذلك كله لا سيما اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من ايثار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفي الظنة في ذلك رأساً كما وقع في عهد معاوية لإبنه يزيد وان كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب..،

والذي دعا معاوية لايثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذٍ من بني امية إذ بنوا أمية لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش واهل الملة اجمع واهل الغلب منهم فأثره بذلك دون غيره، وممن يظن انه اولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الاهواء الذي شأنه اهم عند الشارع وان كان لا يظن بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك وحضور اكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق فانهم كلهم اجل من ذلك وعدالتهم مانعة..][1].

ان السبب الذي دعا معاوية لتنصيب يزيد خليفة على المسلمين بنظر ابن خلدون، يتمثل بالامور التالية، ونسوق هنا تعابيره نفسها:

١ - اقتضاء طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به.

٢ - كان معاوية مجبراً على الاستجابة لقومه ولم يكن قادراً على منعهم ومخالفتهم في الانفراد بالامر، لا سيما وان بني امية كانوا هم أهل الحل والعقد ولا يرضون سواهم.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢٢٧- ٢٢٨- ٣٢٣- ٢٣٣- ٢٣٤.

٣ - عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة.

٤ - لم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق، وما حدث في يزيد من الفسق انما كان ايام خلافته أي بعد وفاة معاوية.

٥ - كان يعذله ايام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه.

٦ - لما كان معاوية مأموناً على النظر للمسلمين ايام حياته فأولى ان يحتمل فيها تبعة بعد مماته، وهو بعيد عن الظنة لا سيما اذا كانت هناك داعية

تدعو اليه من ايثار مصلحة أو توقع مفسدة.

٧ - عهد معاوية إلى يزيد دون سواه مراعاة للمصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم.

٨ - عدل معاوية إلى المفضول (يزيد) حرصاً على الاتفاق واجتماع الاهواء.

٩ - سكوت الصحابة عن معاوية دليل على انتفاء الريب فيه.

١٠ - سبب البيعة التزام معاوية بالحق.

ان ابن خلدون هنا لا يناقش المسألة من منظور اسلامي بحت ومن خلال منطق الاسلام، وانما يناقشها بمنطق معاوية والعائلة الاموية، والا فهل نتحدث نحن هنا عن طبيعة الملك واستئثارالملك بالمجد ام نتحدث عن خلافة رسول الله ﷺ، والاستعداد للأخذ بمنهجه واعتماد سيرته وسنته واعتماد كتاب الله.

فاذا ما كنا نتحدث عن ملك يتعصب له قومه ولا يريدون انتقال السلطة منه باعتبار انَّ زمام الامور اصبحت بايديهم واصبحوا هم أهل الحل والعقد، فلنترك الحديث نهائياً عن الاسلام وعن حرص (الخليفة) على الاسلام ولنكشف القناع عن وجهه ولنقل ان شعوره بامتلاك كل شيء لا يتيح له فرصة التفكير بمنهج رسول الله ﷺ وسنته وبقوانين الاسلام، فالحديث هنا حديث آخر، والا كيف يصح لعاقل ان يعتقد ان معاوية الداهية الماكر كان مسيراً من قبل قومه أهل الحل والعقد ومجبراً على بيعة يزيد، ولو انه اراد غير ذلك لما عدم عشرات الوسائل يسكت بها قومه ويرضيهم، فوسائله فاقت وسائل الشيطان ودروبه في الشر والخديعة جعلت كثيرين من الناس ينخدعون به وبأساليبه التي ما كان لعقل بشري نظيف ان يلجأ اليها ويلجها، فلماذا الدفاع عن معاوية إلى هذا الحد واظهاره كحمل وديع لا يهمه إلا إرضاء الناس والاستجابة لرغباتهم لا اخضاعهم لرغباته.

لقد رأينا اصراره واستماتته لأخذ البيعة ليزيد في الجولة الاولى من الحملة، وسنرى كيف انه سيركز جهوده فيما تبقى له من العمر لاتمامها واعداد العرش وتمهيده ليزيد ليجلس عليه دون معارضة أو نقد.

لقد تحدى معاوية الامة كلها واصرَّ على استخلاف يزيد رغم علمه بشذوذه وانحرافه وعدم شعوره يالمسؤولية.

كيف كان يزيد سيجمع شمل الامة ويحافظ على وحدتها، وكيف بدت بوادر ذلك منه إلى الحد الذي خاف فيه ابوه من افتراق الكلمة واجتماع الناس ان لم يرشحه لمنصب الخلافة..؟ هل من عاقل رشيد يقبل بتبني هذا الرأي؟ وما هي نغمة العدول إلى المفضول وترك الأفضل وجوازها..؟

هل انيطت بالمفضول جر عربة أو نقل سلعة ليعدل اليه ويترك من يمكن ان يقوم بها خيراً منه ام ان المسألة تتعلق بمصير الامة كلها؟

وما هي المسافة هنا بين الافضل والمفضول؟ هل هو مجرَّد فرق بسيط في السلوك والأخلاق، أم انه فرق شاسع بين انسان متحلل من كل قيد اخلاقي وسلوكي وآخر اخلاقه اخلاق رسول الله ﷺ وسلوكه سلوكه ﷺ؟

كيف اباحت الامة لنفسها ترك الافضل وقبول هذا (المفضول) المسخ؟ وهل كانت تخوض لعبة تجري في ملعب أو سيرك وترفه عن نفسها وحسب؟ ام انها كانت تنظر بتخاذل وخضوع إلى من يلعب بمقدراتها وتستهزىء بها ولا يحسب لها أي حساب؟

وكيف يمكن ان نوفق بين قولي ابن خلدون من ان معاوية ما كان ليعهد إلى يزيد وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق ثم كان يعذله ايام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه؟. كيف يعذله وينهاه وهو يجهل حاله؟

وهل كان فسق يزيد مقصوراً على الغناء فقط؟ وماذا عن ادمانه الخمرة وقضائه كل اوقات حياته لاهياً عابثاً..؟ لماذا غض ابن خلدون النظر عنه؟ ألأن ذلك سيجرنا للحديث عن والده ونقده؟ وهذا ما لا يجوز لانه من اصحاب رسول الله ﷺ، واصحاب رسول الله كلهم كالنجوم الزاهرة بايهم إقتدينا اهتدينا، وانهم كلهم سواء في عدالتهم. وانه ﷺ قال فيه احاديث لم يقلها حتى عن نفسه ﷺ أو عن آله الطاهرين عليهم السلام.

الم يكن معاوية نفسه يميل لسماع الغناء ويمنح المغنين عطايا جزيلة وهبات طائلة..؟

بل لقد شجع يزيد نفسه على بذل هذه الاموال..

فقد (استمع معاوية على يزيد ذات ليلة، فسمع من عنده غناء اعجبه، فلما اصبح قال ليزيد: من كان ملهيك البارحة؟ فقال له يزيد ذاك سائب خائر، قال: اذاً فأخثر له من العطاء (أي اكثر صلته وجائزته)[1].

ورويت قصص مماثلة لهذه:

(جلس فيها معاوية مع المغنين والمغنيات، وكان كمد رجليه فيضرب بهما وجه السرير، وقد لفت عمرو بن العاص نظره إلى ذلك، ولعله فعل ذلك بدافع النكاية به، وقد اجابه معاوية بقوله: اسكت لا اباً لك فان كل كريم طروب)[2].

وحتى يزيد نفسه رأى ان الامر برمته لم يكن سوى مهزلة اعد والده فصولها وكتب حوارها، وقد خاطب والده قائلاً:

(في يوم بويع له على عهده، فجعل الناس يمدحونه ويقرظونه: يا أمير المؤمنين والله ما ندري، أنخدع الناس ام يخدعوننا، فقال له معاوية: كل من اردت خديعته فتخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته)[3].

كان يزيد رغم لا مبالاته يدرك طبيعة الخطباء المادحين الذين اشادوا به وبمؤهلاته التي لا وجود لها حتى بمخيلاتهم المريضة، ومن اعرف بيزيد من يزيد نفسه ومن أبي يزيد؟

فلماذا يرهق نفسه من لم يصله عن يزيد إلا ما وصلنا نحن للحديث عن المؤهلات الاستثنائية التي كان يتمتع بها وجعلت والده يرى ان يجعله خليفة رغم وجود من هو افضل منه بين المسلمين، وكأن الذين هم افضل منه كانوا يعدون بالاصابع وكأن ابناء الامة كلها لم يكونوا افضل منه؟ وكأن هناك وجهاً للمقارنة بينه وبين من يفضلونه من آل النبي ﷺ.

لقد عرف معاوية مع من يتعامل، وعلم انه هو نفسه قد اوصلها إلى حالة من

---

(١) و(٢) الكامل في الادب للمبرد ٢/ ١٨٦.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٧.

الانحدار والسقوط اصبحت معها ترضى حتى بيزيد خليفة، وان اضمرت خلاف ما اعلنت بحضوره في حفلات الخطابة لترشيحه لولاية العهد، ودوافع السقوط والخضوع عديدة، وكانت سياسته وتخويفه للناس وبطشه بقوى المعارضة الحقيقية وجعل اموال الدولة الاسلامية بيده هو يتصرف بها كيف يشاء بعض تلك الاساليب التي لجأ اليها لبسط نفوذه وتمرير مخططاته ومشاريعه، ومع علمه بكل ذلك، فانه رأى ان حالة القبول الظاهرية لحكمه وحكم ولده من بعده وان كان وراءها رفض غير معلن، فانها ستظل هي الحالة السائدة الحية وستموت المعارضة في النفوس بمرور الزمن، لذلك فانه يقبل بمجرد التصريح بقبول سياسته وتوليته يزيد، وما عدا ذلك فانه يتناساه ما دام لا يخرج إلى فعل حقيقي ومعارضة مسلحة.

وقد صرح في المدينة المنورة بعد ان تم الامر له، وتزعم قيادة المسلمين قائلًا بكل وضوح:

(فاني والله ما وليت امركم حين توليته، وأنا أعلم انكم لا ترضون بولايتي ولا تحبونها، واني لعالم بما في نفوسكم من ذلك، ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسة، والله لا احمل السيف على من لا سيف معه)[1].

وقال ايضاً:

(اني لا أحول بين الناس والسنتهم، ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا)[2].

وما عسى الصحابة ان يفعلوا لمن تصدى لامير المؤمنين عليه السلام بالسيف، واستأصل اتباعه والسائرين على طريقه، وعمد إلى اختراع صحابة ملفقين وتزوير احاديث عن لسان الرسول صلى الله عليه وآله، وقام بحملة واسعة لقطع الالسن بالسيف والدينار على السواء، ثم هل كانوا قد أقروا هذه البيعة ودعوا لها، ام سكتوا على م وهم يعرفون من هو معاوية وما يمكن ان يفعله لمن يهدد عرشه وسلطانه ونفوذه.؟

ثم ما هذه النغمة عن التزام معاوية بالحق كبقية صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله.؟ ولعل المهزلة الحقة هي نسبة معاوية إلى صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وائتمانه على كتابة الوحي واختلاق بعض الاحاديث بحقه.

(١) ابن كثير ٨/ ١٣٢.
(٢) الطبري ٣/ ٢٦٨.

ان ادراك بطلان ذلك لا يحتاج إلى ذكاء كبير، متى ما تحرر العقل من سلطان المغرضين والحاقدين على رسول الله ﷺ وآله وعلى الاسلام كله، ومتى ما تعاملنا مع وقائع التاريخ وسلوك صناعه على اساس التصور الاسلامي الصحيح الذي يجعل من الاسلام هو الاساس، ولا يجعل منه شيئاً مهملاً مركوناً على الرفوف وفي الزوايا.

والا فكيف يقبل احد ان يقوم يزيد بوظيفة رسول الله ﷺ ويؤديها على الوجه الذي يرفضه الرسول ﷺ، هل كان ذلك هو التسلسل الطبيعي والمنطقي للاحداث، وهل كان يزيد هو الوريث الحقيقي المؤهل لحمل هذه الرسالة وقيادة الأمة على طريقها؟

هل من احد يستطيع اثبات ذلك وتفسيره وتبريره واقناع المسلمين به..؟ جميع المسلمين في كل زمان ومكان، لا الذين عاشوا في ظل معاوية وتحت سيفه وسوطه و(امواله).

من نتائج الجولة الأولى

قناعة معاوية بإمكان اتمام البيعة.

لم تكن تلك الجولة الاولى من حملة التمهيد لاستلام يزيد زمام قيادة الامة الاسلامية غير ذات فائدة، فقد جس بها معاوية نبض الامة وعرف مدى استعدادها لمسايرته، كما اراد استفزاز القوى المعارضة وغير المؤيدة ليضعها بمواجهة حقيقية معه هو، بما يملكه من قوة قد لا تتاح ليزيد اذا ما استلم السلطة، كما انه وضع الامويين واعوانهم امام مخاوف حقيقية من احتمال انتقالها منهم ليكونوا كبقية ابناء الامة المسلمة لا يتمتعون بأية امتيازات استثنائية، ولوح لهم بما كاد يحدث لهم لو ان أمير المؤمنين عليه السلام تغلّب عليه.

انه جعل خلافة يزيد امراً محتملاً قابلًا للحدوث واسكت كل الاصوات المعارضة وحاول ان يعرض اجمل صورة للقائد المرتقب باعتبار انه الوحيد الذي يمكن ان يحقق مصالح الامة ويضمن وحدتها، وعلى هذين الاساسين فقط استمر في حملته فيما بعد، اما المزايا الاخرى التي تظاهر بها هو وطبل وزمر له بها مجموعة من الحواة والمشعوذين والدجالين، كصحابي جليل تفرد بمزايا وصفات لم تتح لاحد آخر، واختصه الرسول ﷺ بما لم يختص به أَحدا سواه، فلم ير جدوى من

استعمالها بحق يزيد، اذ لم تتح ليزيد باستهتاره المعلن وحماقته الفاضحة، الفرصة لذلك.

لذلك فان المصلحة والخوف من الفتن هما الامران الوحيدان اللذان لوَّح بهما معاوية للامة وشايعه على ذلك نفس النفر الانتهازي النفعي الذي دعم عرشه في السابق وسار بركابه. ان الفترة الواقعة بين المؤتمر الاول الذي عقده معاوية لبيعة يزيد في الشام والذي حضرته وفود الامصار برغبة منه وبايعاز مباشر إلى ولاته، وهوقبل سنة ٥٠ للهجرة، وبين الحملة الثانية التي قام بها وزار فيها مكة والمدينة قضاها بعمل دؤوب لاكمال هذه المهمة فكان (يعطي المقارب ويداوي المباعد ويلطف به حتى استوثق له اكثر الناس وبايعه، فلما بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز)[١].

خطوات على طريق التنفيذ

قتل الإمام الحسن بالسم ومحاولة تحجيم الإمام الحسين

وكانت مهمة ابعاد الامامين الحسن والحسين عليهما السلام من الساحة تشكِّل الخطوة الرئيسية الاولى التي تتيح له التقدم لانجاز مهمته بنجاح، وقد اقدم بفعل مباشر وبايعاز شخصي على رشوة زوجة الامام عليه السلام التي دست له السم، وهذا نص رسالته إلى جعدة بنت الاشعث بن قيس الكندي زوجة الامام:

(انك ان احتلت في قتل الحسن وجهت اليك بمائة الف درهم وزوجتك من يزيد)[٢].

وقد نفذت المهمة وطلبت منه انجاز وعده فوفى لها بالمال وارسله اليها مع رسالة يقول فيها:

(إنَّا نحب حياة يزيد، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه)[٣].

وحاول ان يشجع على تكوين مراكز قوى متضاربة ومتنافسة داخل البيت الهاشمي لاضعافه واستثمار عداوة ابنائه فيما بينهم، كمحاولته تشجيع عبد الله بن

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٣٥٣.

(٢) و(٣) مروج الذهب، المسعودي ٣/ ٥.

عباس لمنافسة الإمام الحسين عليه السلام، ولما يكد يمضي وقت طويل على وفاة الإمام الحسن عليه السلام، وقد قال له:

(يا ابن العباس، اصبحت سيد قومك من بعده)[1].

ومعنى ذلك انه ابدى استعداده لدعم هذه السيادة اذا ما وافق ابن عباس على ذلك، وقد فوت عليه ابن عباس ذلك قائلًا:

(اما ما ابقى الله ابا عبد الله الحسين فلا)[2].

كان معاوية يدرك ان الإمام الحسين عليه السلام يمثل القوة الوحيدة المؤهلة لايقاف مخططه، وهو الوحيد الذي يمكن ان تجتمع عليه الامة وترضاه خليفة لجده صلى الله عليه وآله وابيه عليه السلام، فعمل على ايجاد منافسين له يمكن القضاء عليهم فيما بعد ولا يشكلون خطورة كبيرة على نفوذ عائلته.

كما حاول مراقبته وتهديده اذا ما حاول القيام باي نشاط ضد الدولة الاموية، واذا ماشجع على أي نشاط لاية قوى معارضة اخرى تؤيده كما سنرى بعون الله.

الا ان الإمام الحسين عليه السلام فوّت الفرصة على معاوية، ومنع مؤيديه وكل من يميل اليه من القيام بأي نشاط علني لأن ذلك يعطي لمعاوية (العذر) لاستئصالهم واستئصال آل البيت دون ان يلقى مقاومة من الامة التي استدرجها للذل والاستسلام والجهل، وسيبرر مواقفه امامها إلى الحد الذي قد يمكن ان يجعلها تنساهم إلى الابد، وربما يعلن ويسفر عن وجهه حتى ضد الاسلام وضد الرسول صلى الله عليه وآله بحرب معلنة مكشوفة الاهداف والدوافع، والضرر في ذلك سيقع ضد الرسالة وضد المسلمين كلهم، وهذا ما ادركه الامام عليه السلام ولم يتح لمعاوية تمرير مخططه وانتظر الفرصة المناسبة لكشفه وتعرية النظام الاموي الفرعوني برمته.

الحملة الأموية لارهاب البصرة والكوفة

وقد نصب زياد بن أبيه على الكوفة والبصرة كليهما فقام باكبر حملة ارهابية لتصفية معارضي النظام وفي مقدمتهم حجر بن عدي واصحابه، وقتلهم صبراً، وهي أول بادرة من نوعها تحدث في الاسلام، وقد أصاب هذا الحادث المجتمع الاسلامي

(١) و(٢) الامامة والسياسة ١/ ١٧٥.

في العراق بحالة من الاحباط والهلع وقد رأوا التصرف الكيفي بارواح الناس ومقدراتهم من قبل الطغمة الحاكمة، وكان [اول ذل دخل الكوفة موت الحسن بن علي وقتل حجر بن عدي ودعوة زياد](١) . لقد كانت انتهاكات معاوية للاسلام علنية تمت دون حياء أو وجل، وكان جديراً به ان يقوم بالمزيد منها لو وضع امام ظروف يرى فيها ان مصالحه تتعرض للخطر، وكانت افعاله تنطلق من حرصه على مصالح البيت الاموي وحسب، لا على مصلحة الامة كلها كما حاول هو ان يوهمها، ولم ينخدع به اناس من أهل العلم كما انخدع به عن قصد ربما بعض (العلماء) امثال ابن خلدون وابن العربي وابن حجر، فلماذا كان الحسن البصري واحمد بن حنبل وغيرهم يتبنون مواقف حادة ضد معاوية؟ ومع ذلك فان شهاداتهم تهمل وتنسى، لأن مصالح النماذج المكررة من معاوية ويزيد، والتي يعمل هؤلاء في ظلها وتحت اشرافها لا يروق لهم ان يمس قدوتهم في السياسة وتوطيد الملك.

قال الحسن البصري:

(اربع خصال كن في معاوية، لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة، انتزاؤه على هذه الامة بالسيف حتى اخذ الامر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله ﷺ «الولد للفراش وللعاهر الحجر» وقتله حجراً واصحاب حجر فيا ويلا له من حجر، ويا ويلا له من حجر واصحاب حجر»(٢).

ان معاوية، وقد رأى انه نفسه قد استطاع الوصول إلى مركز الخلافة، رغم انه قد يكون آخر المؤهلين له؛ رأى ايضاً انه يستطيع ان يأتي بيزيد، أو حتى بابنه الآخر عبد الله ليتولى هذا المنصب، وما عليه لتنفيذ مشروعه هذا سوى ان يظل بعيداً عن الدين الذي ما اقترب منه في يوم من الايام، ولا آمن به، بل ان محصلة اعماله كانت حرباً شعواء عليه، مكشوفة أو مستورة، حرباً مستمرة لا هوادة فيها عمل فيها. على جعل الدين في زوايا مهملة، وفصله عن الحياة العملية للمسلمين، وكان بذلك قد جرد الدولة الاسلامية من اسلامها، وجعل الحاكم (الاسلامي) يتصرف على اساس مصالحه ونظراته الحياتية البحتة، وارسى بذلك مبدأً راق للعديد من الحكام من بعده

---

(١) الطبري ٣/ ٢٣٣.

(٢) ابن الاثير ٣/ ٣٣٧، والطبري ٣/ ٢٣٢.

وهو فصل الدين عن الدولة، لأن ذلك يتيح لهم التصرف بحرية اوسع بعيداً عن رقابة الامة وعن منهج الاسلام في السياسة والحكم والحياة.

ان ما رأيناه واضحاً في سياق هذه الاحداث، هو عمل معاوية الدؤوب لاخراج مسرحية استخلاف يزيد بشكل يجعل الامة كلها تستجيب له وتقبله كأمر وحيد محتمل، فقد صور الامر منذ البداية وكأنه رغبة الامة، لا رغبة معاوية الشخصية، وانه لم يفعله إلا نزولًا على هذه الرغبة التي اجمعت عليها الامة، بل وألحت عليها.

وعندما يحضر في مجلس للرأي يضم أهل الحل والعقد؛ اناس معهم سيوفهم يهددون من يجرؤ على المخالفة، وعندما يكون معاوية قد لوح بنقوده وبذلها مسبقاً لاولئك الحاضرين ولوح بسيفه لغيرهم، فان صوت المعارضة مقضي عليه ان يضعف منذ البداية، وعندها سوف تتسرب تفاصيل تلك الجلسات، وربما بايعاز من معاوية نفسه، فلا بد وان بعضها قد عقد في اماكن عامة، في مساجد كبيرة أو في احد قصور معاوية العديدة، ومتى ما علمت الامة ما حصل في مجلس الخاصة ذاك، وبعدما علمت ان أهل الشام المتحيزين لمعاوية وآله في الأصل قد بتوا في الامر، وان لا فائدة من الاعتراض، فانها ربما رأت أو اريد لها ان ترى استعراضاً للقوة من قبل معاوية ومناصريه ومؤيديه وحزبه يلوح به ذلك (المقاتل القديم) الذي صمد لأمير المؤمنين والحسن عليه السلام، والذي لا يزال يبدي استعداده لمنازلة أي منافس آخر بعد ان توفرت لديه اسباب جديدة للقوة والبأس.

وقد رأت الامة كيف عمد معاوية إلى اخراس واسكات اصوات معارضيه واعدائه، والوسائل التي استعملها، وهي لم تكن وسائل مشروعة أو شريفة بأي حال من الاحوال.

ان الطاعة مضمونة، كما ان من يريد نصيحة معاوية يعلم انه ما كان ليتخلى عن عزمه ومشاريعه وخططه بمجرد ازجاء النصائح، التي لا بد ان معاوية لا يجهل مضامينها، وربما كان هو قادراً على ازجاء الكثير منها بأساليب وعظية ارشادية، ولكن هل العبرة بالكلام، أو بالأخذ به والسير بموجبه؟ وهل هزت معاوية نصائح أمير المؤمنين عليه السلام قبلًا حتى يهتز لنصائح غيره.؟

ماذا تملك الامة امام هذا الرجل المستبد الذي تلاعب بالاسلام وأوّل القرآن، انه يجد لكل شيء مخرجاً وحلًا من كتاب الله، قال له رجل اجبر على البيعة ليزيد:

(اللهم اني اعوذ بك من شر معاوية، فقال له معاوية: تعوذ من شر نفسك فانها اشر عليك وبايع، قال: اني ابايع وانا كاره للبيعة، قال له معاوية: بايع ايها الرجل فان الله يقول: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1].

انه يحرف القرآن ويأتي بآية (مناسبة) مقابل كل قول أو فعل أو تصرف، ولعله يحفظ بعض القرآن ليستثمر موارده ومصادره في محاججاته ونقاشاته وحواراته المشهورة التي يسلك فيها طرقاً ملتوية متعرجة، والتي قد تكون الغلبة له فيها في بعض الاحيان، ان امر النقاش والحوار والتفاهم بسيط مع اولئك المستقيمين الذين يفهمون لغة واحدة ومنطقاً واحداً وتصوراً واحداً، اما مع اولئك المشوشين المضطربين الذين يسلكون أوعر الطرق واوحشها، ومع المغالطين والمحرفين والكذابين والذين لا يرون امامهم إلا مصالحهم واهواءهم، فانه امر صعب للغاية، فانك غالباً ما تجد نفسك امام لغات ومناورات والغاز عديدة ومتشعبة، لا يلجأ اليها إلا اصحاب العقول المعوجة المنحرفة.

وهكذا قال أمير المؤمنين عليه السلام عندما قيل له ان معاوية ذو دهاء كبير:

(والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من ادهى الناس، ولكن لكل غدرة فجرة ولكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة، والله ما استغفل بالمكيدة، ولا استغمز بالشديدة)[2].

إننا نلاحظ كثرة استعمال معاوية آيات القرآن في غير مواضعها، وكأنها بضاعة يتصرف فيها ويتلقى جزاءها ملكاً وطاعة واموالًا وجاهاً.

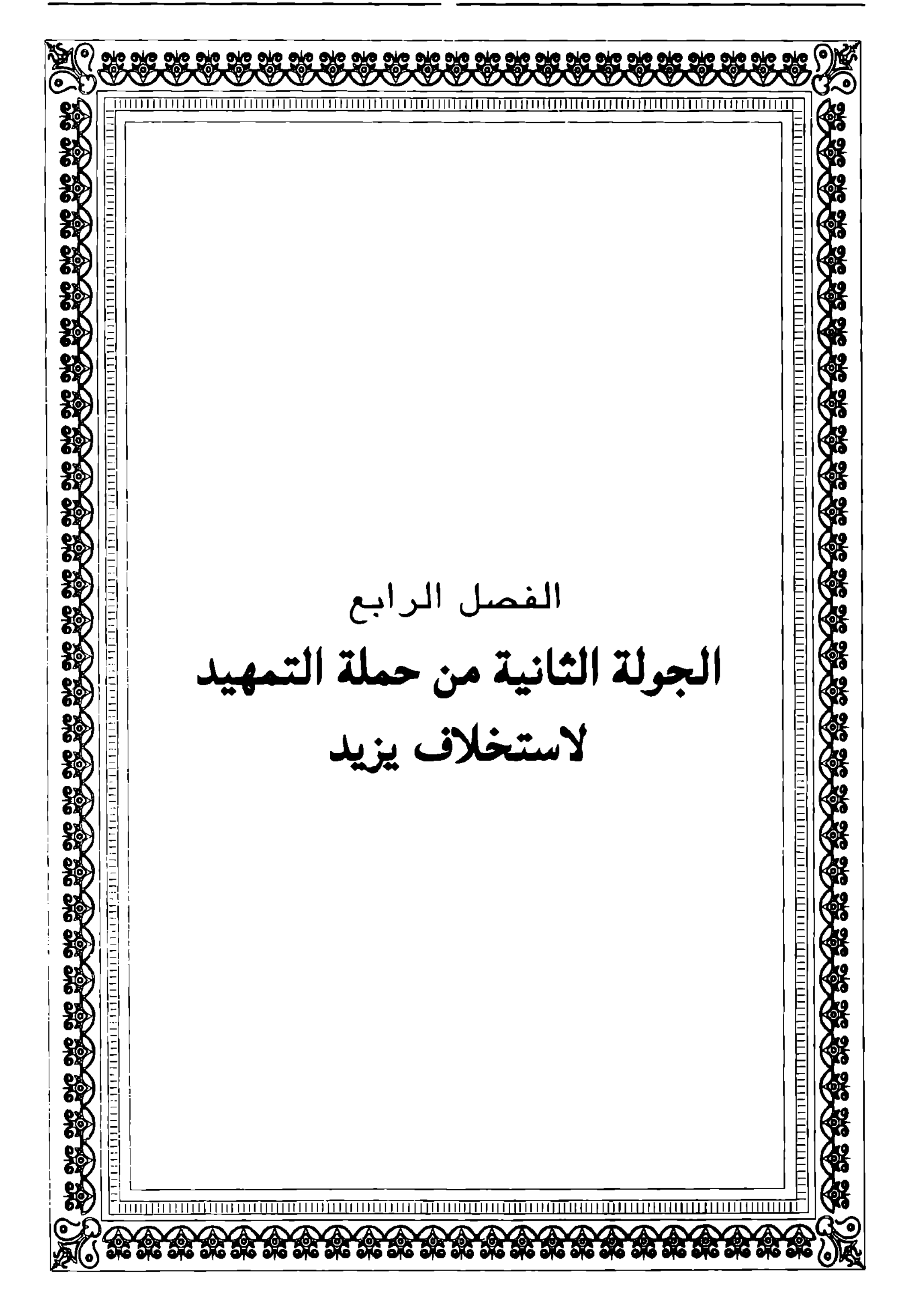
وبهذا الخصوص كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى ابن عباس يحذره من المخاصمة بالقرآن:

(لا نخاصمهم بالقرآن، فان القرآن حمال وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة فانهم لن يجدوا عنها محيصاً)[3].

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١١٢.

(٢) و(٣) نهج البلاغة ٤٥٩/ ٦٥١.



الفصل الرابع

الجولة الثانية من حملة التمهيد لاستخلاف يزيد

إخضاع مكة والمدينة

وكانت الجولة الثانية من حملة التمهيد لاستخلاف يزيد تستهدف اخضاع الحجاز (مكة والمدينة)، بعدما مهد لاخضاع العراق (الكوفة والبصرة)، وهما وعلى الخصوص الكوفة مركز المعارضة الاول الذي استهدفه معاوية منذ بداية الامر ببطشه وحرمانه من خيرات الدولة وعطائها، ولعل تعيين والٍ قاسٍ ونائبه هما زياد وسمرة بن جندب، اللذان أمعنا في القتل والبطش، قد ساعده على التمهيد لمشروعه لاحتكار السلطة إلى الابد.

الا ان المدينة، وهي عاصمة المسلمين في عهد رسول الله ﷺ، ولفترة طويلة بعده، بقيت تشكل مركز التأثير المتقدم بل الاول لوجود الامامين الحسن والحسين عليهما السلام، والعديد من صحابة الرسول ﷺ من المهاجرين والانصار، فكان لا بد من اتباع خطة اخرى معها من قبل معاوية، وهي وضعها امام الامر الواقع المتمثِّل باقدامه فعلًا على مبايعة يزيد بموافقة أهل الشام وبعض الموالين له من أهل العراق، الذين (حثوه) بايعاز منه طبعاً على البيعة ليزيد.

وقد ادرك معاوية ان المهمة في المدينة قد تقتضي جهداً لا يقدر عليه إلا هو، وقد بدا ظاهرياً في الفترة بين عقد اجتماعات الخطابة في الشام وذهابه إلى المدينة سنة خمسين انه لم يعمل بحماس لاجل هذه البيعة واتمامها، وربما لجس النبض في المدينة وكشف مراكز المعارضة الرئيسية فيها، ويبدو انه وصل إلى غايته وتعرف على هذه المراكز والقوى المعارضة المتمثلة بآل البيت عليهم السلام أولًا، ثم بأولاد الخلفاء السابقين وبعض الصحابة أو أولادهم، ثم جماهير المدينة بشكل عام والتي قد تستجيب بسرعة اذا ما استجاب هؤلاء لخطة معاوية.

ولم يكن معاوية بالرجل ذي الذاكرة الضعيفة، والذي ينسى بسهولة انه قد اعطى الإمام الحسن وبعده الإمام الحسين عليه السلام امام الامة كلها عهداً مكتوباً بان يكون الاول خليفة من بعده، واذا ما ألم به حادث الموت، يكون الثاني خليفة، غير انه يعلم ان الامة تعلم انه سينكث بعهده وسيجد مبررات (مقنعة) لذلك، وربما تنامت

وتصاعدت موجة الاحتجاج في المدينة على مشروعه باستخلاف يزيد، اذا لم يبادر بالذهاب هو شخصياً اليها ويسكت الاصوات المعارضة.

وهكذا شد الرحال إلى المدينة سنة خمسين لطرح هذا المشروع، مع ان الإمام الحسن عليه السلام لا يزال على قيد الحياة، ويتمتع برصيد شعبي كبير هو والامام الحسين عليه السلام، بعد اقامتهما في المدينة وعملهما على احياء مدرسة الرسول صلى الله عليه وآله لتوجيه المسلمين وتوعيتهم وتفقيههم في الدين طبقاً لشريعته ومنهجه واسلوبه صلى الله عليه وآله.

اجتماع معاوية مع العبادلة

وعند وصوله إلى المدينة ارسل إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، مستبعداً الحسن والحسين عليهما السلام من هذا الاجتماع، اذ ما عساه ان يحتج امامهما اذا ما واجهاه بالوثيقة التي وقع عليها بنفسه وقد قال في هذا الاجتماع:

(اما بعد، فاني قد كبر سني، ووهن عظمي، وقرب اجلي، واوشكت ان ادعى فاجيب، وقد رأيت ان استخلف عليكم بعدي يزيداً، ورأيته لكم رضا، وانتم عبادلة قريش وخيارها وابناء خيارها، ولم يمنعني ان احضر حسناً وحسيناً إلا انهما اولاد ابيهما علي، على حسن رأيي فيهما، وشديد محبتي لهما)[1].

وقد كان كلام معاوية وعزمه واضحين هنا، وبدا ايضاً كأنه يستجيب لرغبة العبادلة لأن بيعة يزيد فيها لهم رضا على حد تعبيره، وهم خيار الناس وابناء خيارهم، ولعله باستدعائهم وحدهم اراد عزلهم عن القوة المعارضة الاخرى الرئيسية المتمثلة بالامامين ومواليهم ومؤيديهم، ولعله اراد ايجاد فجوة بين المجتمعين كما سنرى، فهو هنا قد اراد تشتيت المعارضة وربما اراد زرع طموحات خاصة لدى بعضهم للخلافة، وبذلك يتمكن من التغلب عليهم جميعاً واضعافهم.

وكان ردهم عليه رفضاً قاطعاً لمشروعه، ولعله اراد معرفة درجة الحماس في كل رد ليتخذ موقفه على اساسه في المستقبل، ويتفرغ للرافضين الحقيقيين الذين لم يستطع مساومتهم لامور تتعلق بمواقفهم المبدئية أو بطموحاتهم الشخصية.

---

(١) الإمامة والسياسة ابن قتيبة ١/ ١٧٢.

قال عبد الله بن عباس:

(. . . ان الله جلَّ ثناؤه اختار محمداً ﷺ لرسالته، واختاره لوحيه وشرفه على خلقه، فاشرف الناس من تشرف به واولاهم بالامر اخصهم به، وانما على الامة التسليم لنبيها اذ اختاره الله لها، فانه انما اختار محمداً بعلمه وهو العليم الخبير)[1].

وقال عبد الله بن جعفر:

(. . فان هذه الخلافة ان اخذ فيها بالقرآن **﴿فأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله﴾**، وان اخذ فيها بسنة رسول الله، فاولوا رسول الله.

وان اخذ فيها بسنة الشيخين أبي بكر وعمر، فاي الناس افضل واكمل واحق بهذا الامر من آل الرسول؟ وايم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الامر موضعه لحقه وصدقه، ولأُطيع الرحمن، وعصي الشيطان، وما اختلف في الأمة سيفان، فاتق الله يا معاوية، فانك قد صرت راعياً، ونحن رعية، فانظر لرعيتك فانك مسؤول عنها غداً، واما ما ذكرت من ابني عمي وتركك ان تحضرهما، فوالله ما اصبت الحق، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما، وانك لتعلم انهما معدن العلم والكرم، فقل أو دع)[2].

فابن جعفر لم يدع هنا حجة لمعاوية، وذكره بان الحسن والحسين عليهما السلام هما احق من ينبغي ان يلي امر هذه الامة، وحذره من مغبة ابعادهما عن هذا الحق، وعاب عليه عدم دعوته اياهما لهذا الاجتماع.

اما عبد الله بن الزبير الذي مد انظاره لهذا الامر وطمح فيه ما دام يزيد نفسه قد تطلع اليه فوضع عدة احتمالات امام معاوية ليعتمد احدها كخليفة مرشح، وجعل نفسه احد من يحتمل ترشيحهم، ولعل ذلك لم يفت معاوية ورأى فيه ثغرة للهجوم عليه والنيل منه واستبعاده والتفريق بينه وبين بقية المعارضين، فقد قال:

(. . ان هده الخلافة لقريش خاصة، فاتق الله يا معاوية، وانصف من نفسك، فان هذا عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله، وانا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله ﷺ، وعلي خلف حسناً

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق ١/ ١٧٣.

وحسيناً وانت تعلم من هما، وما هما، فاتق الله يا معاوية، وانت الحاكم بيننا وبين نفسك)[1].

وربما كان جواب ابن الزبير هذا كان مبعث ارتياح لمعاوية، لأن المؤهل الوحيد الذي لا يزال يشخص امامه وامام بقية المسلمين هو الإمام الحسن عليه السلام ثم الإمام الحسين عليه السلام من بعده، فاذا جاء من يقول ان الخليفة بعد معاوية قد يكون ابن عباس أو ابن جعفر أو ابن الزبير، فان ذلك يضعف موقف الامامين عليهما السلام ما دام بعض الناس يفكرون باحتمال اقامة خليفة غيرهما، وهذا ما يريده معاوية، مع انه قرع ابن الزبير واجابه بانه آخر الناس المحتملين لذلك. وان من سينال حصة من ذلك هما (ابنا عمه) ابن عباس وابن عقيل... وحسب.

اما عبد الله بن عمر فقد اجاب:

(.. ان هذه الخلافة ليست بهرقلية، ولا قيصرية، ولا كسروية، يتوارثها الابناء عن الآباء، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد ابي...، فان كنت تريد الفتيان من قريش، فلعمري ان يزيد من فتيانها، واعلم انه لا يغني عنك من الله شيئاً)[2].

فابن عمر يستبعد نفسه هنا من احتمال ترشيحه، مع انه في النهاية تنازل ووعد معاوية بان يستجيب لرغبته اذا ما اقرت من قبل بقية ابناء الامة، وهذا ما اثلج صدر معاوية ايضاً وأَراحه، وعلى ضوء ردود الفعل التي ربما احتملها من معاوية.

وقد اجابهم معاوية قائلًا:

(قد قلت وقلتم، وانه ذهبت الآباء، وبقيت الابناء، فابني احب الي من ابنائهم، مع ان ابني ان قاولتموه وجد مقاولا، وانما كان هذا الامر لبني عبد مناف، لانهم أهل رسول الله، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وآله ولي الناس ابا بكر وعمر، من غير معدن الملك ولا الخلافة، غير انهما سارا بسيرة جميلة، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة وقد اخرجك الله يا بن الزبير، وانت يا بن عمر منها، فاما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي ان شاء الله.

ثم امر بالراحلة واعرض عن ذكر البيعة ليزيد ولم يقطع عنهم شيئاً من صلاتهم

(١) المصدر السابق.
(٢) نفس المصدر ١٧٤.

واعطياتهم، ثم انصرف راجعاً إلى الشام، وسكت عن البيعة، فلم يعرض لها إلى سنة احدى وخمسين)[1].

لقد كان معاوية بجوابه هذا يحاول طرح اوهام وتصورات جديدة على الناس، فهو يريد ايهام الناس بان الامر أمر صراع بين ابناء (الصحابة)، أو (المتنافسين) القدماء، واذ ذهب اولئك الصحابة المتنافسون [باشارة واضحة منه إلى أمير المؤمنين عليه السلام]، وبقي الابناء فان يزيد احق بالامر لانه ابن معاوية، وهو احب اليه منهم، مع انه يتمتع بمميزات جديرة بان تجعل منه خليفة.

اما تلويحه بان الامر لبني عبد مناف وقوله انهم أهل رسول الله فانه يعني توسيع لدائرة آل الرسول صلى الله عليه وآله التي اختصت كما يعلم الجميع به صلى الله عليه وآله وبعلي وفاطمة والحسنين، كما ان اشارته لولاية أبي بكر وعمر وانهما من غير معدن الملك ولا الخلافة مع انهما سارا بسيرة جميلة، يعني انه يجعل من المسألة مسألة ملك، ولم يرد الطعن فيهما لانه لم يرد ان يفتح جبهة جديدة للصراع.

وكانت اشارته برجوع (الملك) إلى بني عبد مناف وهو منهم، ويزيد منهم ايضاً، وبقائه فيهم إلى يوم القيامة تأكيد واضح على ان الامر امر ملك وصراع عليه، احق الله فيه الحق وارجعه إلى (اهله)، وهو من اهله.

واذ ان ابن عباس وابن جعفر يشكلان احدى حلقات القرابة القريبة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهما اقرب اليه صلى الله عليه وآله منه، فانه اراد طمأنتهما إلى انه لن يخرجهما من الرأي، أي من دائرة الحاشية المقربين، وهي رشوة اراد التلويح بها مسبقاً اليهما. وقد تخلص معاوية. من الإمام الحسن عليه السلام بالسم، كما رأينا، وبذلك اصبح يرى نفسه اكثر حرية لاكمال مشوار البيعة ليزيد من بعده، لذلك فانه لم يلبث بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام إلا يسيراً

(حتى بايع ليزيد بالشام، وكتب بيعته إلى الآفاق)[2].

وهنا قد نرى تضارباً في التواريخ، فربما مهد معاوية لبيعة يزيد قبيل مسيره الاول إلى المدينة عام خمسين، ولم يبايعه إلا سنة احدى وخمسين، أي بعيد رجوعه

(١) المصدر السابق.
(٢) نفس المصدر ٢/ ١٧٥.

منها واغتيال الإمام الحسن عليه السلام بالسم، غير ان معاوية كما يبدو قد عمل بدأب على اكمال البيعة وسلك كل الطرق المتاحة لهذا الغرض.

وكان عزمه حتى مع وجود الإمام الحسن عليه السلام على اتمام هذه البيعة واضحاً، وربما كان يبيت مسألة اغتياله اذا ما تأكد من استمرار عزم الامة على الالتفاف حوله، وقد تأكد من ذلك عند زيارته الاستطلاعية الاولى هذه، وبعد عودته كتب إلى مروان بن الحكم وكان عامله على المدينة:

(يذكر الذي قضى الله به على لسانه من بيعة يزيد، ويأمره ان يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة، ثم يبايعوا ليزيد)[١].

ونلاحظ هنا ان معاوية قد حاول ان يظهر وجوده (كخليفة) ووجود ابنه خليفة من بعده كأمر قضى الله به وأراده، وهي نغمة طالما رددها بصيغ مختلفة ورددها يزيد من بعده.

مروان بن الحكم يعارض استخلاف يزيد طمعاً بالأمر

ويبدو ان مروان كان يطمح ان يصير الامر اليه بعد معاوية، فلم يبد حماساً مذكوراً بدعوة الناس في المدينة إلى بيعة يزيد، واجاب معاوية:

(ان قومك قد ابوا اجابتك إلى بيعتك ابنك)[٢].

وقد ادرك معاوية. . (ان ذلك كان من قبله، فكتب اليه يأمره ان يعتزل عمله، ويخبره انه قد ولى المدينة سعيد بن العاص)[٣].

وقد اسخط ذلك مروان، فوفد على معاوية مغاضباً في جماعة من اخواله واهل بيته واتباعه، ودخل عليه والقى خطبة وعظية جديرة برجال امثال أبي ذر أو سلمان وغيرهما، ختمها بدعوة معاوية إلى استشارته وقومه قبل البت بأية قضية مهمة مثل هذه وجاء في نهايتها:

(فما لنا لا نستأمر في رضاعها ونحن فطامها وأولات عظامها، وايم الله لولا

---

(١) و(٢) المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر ١٧٦.

عهود مؤكدة ومواثيق معقدة، لأقمت أود وليها، فأقم الامر يا بن أبي سفيان، واهدي من تأميرك الصبيان، واعلم ان لك في قومك نظرا، وان لهم على مناوأتك وزراً)[1].

وقد اغضب كلام مروان معاوية، إلا انه علم انه ان تمادى في غضبه ورد على مروان أو عاقبه، فربما عمل على فتح جبهة جديدة مع خصوم كانوا له اعواناً حتى الأمس، لذلك فانه رد عليه رداً هيناً، وخاطبه بلطف وأشاد به وبأهله، وربما كان يسخر منه، ويشير بمديحه المتطرف، ان المسألة هنا لا تتعلق بدين أو سابقة في دين من اهلِ كرام نذروا أنفسهم من أجله، فمعاوية يدرك من هو الحكم، وكيف لعنه رسول الله ﷺ، ولعن مروان وهو في صلبه، قال له معاوية :

(فأنت ابن ينابيع الكرم، فمرحباً بك واهلًا من ابن عم، وذكرت خلفاً مفقودين شهداء صديقين، كانوا كما نعت، وكنت لهم كما ذكرت، وبك والله يا ابن العم نرجو استقامة اودها، وذلولة صعوبتها، وسفور ظلمتها، فانت نظير أمير المؤبنين بعده، وفي كل شدة عضده، واليك عهد عهده، فقد وليتك قومك، واعظمنا في الخراج سهمك، وانا مجيز وفدك إلخ)[2].

وقد اجزل عطاءه وعطاء الوفد الذين كانوا معه، بعد ان طمأنه إلى انه سيكون في الصدارة دائماً وانه نظيره... الخ، وبذلك أسكته موقتاً، وربما ريثما تتاح له فرصة اسكاته إلى الابد، وقد اورد ابن الاثير رواية اخرى ذكر فيها ان معاوية كتب إلى مروان يستشيره في امر بيعة يزيد ويسأله ان يعرض ذلك على أهل المدينة وان مروان قام في الناس فاخبرهم به، وانهم قد استجابوا لذلك، ولم ينكره سوى عبد الرحمن بن أبي بكر الذي قال له :

(كذبت والله يا مروان وكذب معاوية، ما الخيار اردتما لامة محمد، ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل)[3].

ورد عليه مروان بشكل عنيف اغضب عائشة حتى خاطبته قائلة :

(انت فضض من لعنة نبي الله)[4].

---

(١) و(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن الاثير ٣/ ٣٥١، راجع مروج الذهب ٥/ ١١٩ وقد ذكرها بشكل آخر.

(٤) المصدر السابق ٣/ ٣٥٢.

كان في مقدمة المنكرين لبيعة يزيد الحسين عليه السلام وابن عمر وابن الزبير، وقد كتب مروان بذلك إلى معاوية.

ومهما يكن فان مروان لم ير نفسه قادراً على مجابهة معاوية ومقاومته والمطالبة بالامر لنفسه، وقد رأى ان الخلافة ليزيد افضل مما لو كانت للحسين عليه السلام، ففي الحال الثانية ربما سيفقد أي امل بها في المستقبل، وربما لن تتاح له فرصة التمتع بمزيد من الامتيازات التي تحقق له في ظل ابناء عمومته الامويين.

عودة استراتيجية الارهاب الأموي

وعند استبدال مروان بسعيد بن العاص وهو مشهور بشدته وتعصبه وعنجهيته كتب اليه معاوية:

(ان يدعو أهل المدينة إلى البيعة، ويكتب اليه بمن سارع ممن لم يسارع، فلما اتى سعيد بن العاص الكتاب، دعا الناس إلى البيعة ليزيد، واظهر الغلظة، واخذهم بالعزم والشدة، وسطا بكل من ابطأ عن ذلك)[١].

وهكذا عمد سعيد إلى ما عمد اليه زياد وسمرة في العراق، وارى الناس حقيقة الوجه الاموي القاسي المتستر بالحلم، مستجيباً لاوامر سيده في الشام، وكتب اليه تقريراً بمن سارع ممن ابطأ وجاء فيه:

(.... واني اخبرك ان الناس عن ذلك بطاء، لا سيما أهل البيت من بني هاشم، فانه لم يجبني منهم احد، وبلغني عنهم ما اكره، واما الذي جاهر بعداوته، وابائه لهذا الأمر، فعبد الله بن الزبير، ولست اقوى عليهم إلا بالخيل والرجال، أو تقدم بنفسك فترى رأيك في ذلك)[٢].

فكتب معاوية إلى الممتنعين عن البيعة كتباً وامر سعيد بن العاص ان يوصلها إليهم ويبعث اليه باجوبتهم.

ولعل معاوية ادرك انه امام مخاطر حقيقية، وان الامة قد تثور عليه رافضة بيعة يزيد، وهي تنتظر الخلاص منه بموت عاجل، بعد ان فرض نفسه خليفة عليها، وكانت رسالته إلى سعيد تدل على شدة مخاوفه من الثورة عليه، وتحاول ان تشجع

(١) و(٢) الامامة والسياسة ١/ ١٧٧.

على المضي في المهمة التي عهد بها اليه إلى النهاية، وان لا يتخاذل أو يجبن عن أدائها، وقد جاء في رسالته:

(. . . ولتشد عزيمتك، ولتصلب شكيمتك، وتحسن نيتك، وعليك بالرفق، واياك والخرق، فان الرفق رشد، والخرق نكد، وانظر حسيناً خاصة، فلا يناله منك مكروه، فان له قرابة وحقاً عظيماً لا ينكره مسلم ولا مسلمة، وهوليث عرين، ولست آمنك ان ثاورته ان لا تقوى عليه، فاما من يرد مع السباع اذا وردت ويكنس اذا كنست فذلك عبد الله بن الزبير فاحذره اشد الحذر)[1].

ان دوافع ابن الزبير معروفة، وهي محاولة الدعوة لنفسه، رغم الادعاء بانه انما كان ينتصر للدين وحسب، وان ليس له ارب أو مطمع بالخلافة، وكان معاوية يعلم انه قد يلجأ مثله إلى كافة الاساليب، وقد يغير الكفة ضده، ولذلك فإنَّه قد حذر منه سعيداً.

اما الحسين عليه السلام، فان معاوية ادرك ان رصيده لدى الامة ربما يرجح فوزه بمعركة قد تنشب بينهما فيكون هو الغالب، وهو امر بدا محتملًا لدى معاوية.

ان معاوية يعلم ان الحسين عليه السلام احق بالامر من يزيد، وان الامة كلها تعلم ذلك، وربما انقلبت عليه وثارت ضده اذا ما اقدم على قتل الحسين عليه السلام أو سجنه أو التنكيل به، وربما اراد ان يستعد لايجاد ظروف افضل يتم فيها اجباره على البيعة أو قتله، وربما اراد ترك المهمة ليزيد لاكمالها، كما سنرى كيف انه قد اوصى باسناد ولاية الكوفة إلى عبيد الله بن زياد للقيام بهذه المهمة، اذا ما استمر الإمام الحسين على موقفه الرافض من يزيد.

رسائل معاوية الارهابية

وكانت الرسائل التي كتبها معاوية للحسين عليه السلام، وابن عباس وابن جعفر وابن الزبير مليئة بالتهديد والوعيد:

كتب إلى ابن عباس:

(اخرج إلى المسجد والعن قتلة عثمان وبايع عاملي فقد اعذر من انذر).

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٨.

(وكتب إلى ابن جعفر):

فان بايعت تشكر، وان تأب تجبر.

(وكتب إلى الحسين عليه السلام):

فلا تنازع إلى قطيعتك، واتق الله ولا تردن هده الامة في فتنة، وانظر لنفسك ودينك وامة محمد، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون.

(وكتب إلى ابن الزبير في ابيات):

واني لاخشى ان انالك بالذي أردت فيجزي الله من كان اظلما)[1]

لقد درس معاوية اوضاع وظروف ونفسيات المعارضين، فلوح لكل واحد منهم ما ظن انه مؤثر فيه لكي يغير موقفه، فقد اتهم في رسالة ابن عباس بانه ممن ألب على عثمان، وظن انه سيفقد صوابه امام ذلك الاتهام ويسارع إلى مبايعة يزيد.

كما جامل ابن جعفر ومدحه آملًا ان يستجيب، وكانت الأبيات الشعرية الموجهة إلى ابن الربير مليئة بالتهديد، عالماً انه ليس بالمكانة التي يستطيع بها استقطاب الامة وجعلها تلتف حوله، وانه انما كان يسعى لمكسب شخصي وطلب الامر لنفسه.

اما رسالته إلى الحسين عليه السلام، فقد اصبحت (صكاً) بنظر مؤيديه، استمروا بموجبه في توجيه نفس الاتهامات التي وجهها اليه لحد الآن، فهو يذكر فيها انه قد انتهت اليه امور، ومعنى ذلك انه يقوم بالتحريض على الدولة ورأسها، وربما يتزعم الحملة المضادة لتولية يزيد واستخلافه، وانه يطلب منه الوفاء، كأنه قد عاهد يزيداً على ان يضع يده في يده فيستمر على عهده، وانه يعمل تحت اغراء بعض العوام والجهلة والمتذبذبين، وان هؤلاء قد اثروا عليه وغيروا رأيه.

ومع ان موقف الحسين عليه السلام، لم يكن بالموقف المؤيد للدولة، إلا انه لم يكن يعمل بوحي من الآخرين، الذين طلبوا اليه فعلًا تزعم الحملة المناوئة لها، وربما وصلت بعض اخبار رسائلهم ووفودهم على الحسين عليه السلام كما سنرى إلى معاوية، فاراد ايهام الناس بان الحسين عليه السلام كان يخطط للثورة عليه شخصياً، واراد

(١) نفس المصدر ١٧٨-١٧٩.

استدراجه للمواجهة قبل ان يخلو الجو له مع يزيد، وقد ينتصر عليه حينذاك، فكانت رسالته المستفزة هذه، ومواقفه المستفزة الاخرى.

وقد اجابه العبادلة رافضين عرضه لبيعة يزيد، في رسائل مختصرة، لم يتعدوا فيها الامور التي طرحها في رسائله.

غير ان الإمام الحسين عليه السلام اجابه برسالة مطوّلة ذكر فيها انتهاكاته هو وما احدثه في الاسلام خلال امرته و (خلافته)، والسبب الذي دعاه للامتناع عن بيعة يزيد. إنَّ هذه الرسالة وثيقة مهمة لا بدّ من دراستها بجدّية مضوعية لمعرفة بعض جوانب شخصية كاتبها (الامام الحسين) عليه السلام وتأريخ الثورة الفعلية التي قام بها الإمام ضد الدولة الاموية، وهي دليل. كما ان موقفه بالامتناع عن المبايعة طيلة عهد معاوية دليل اخر على ان ثورته لم تبدأ في اللحظات التي خرج فيها من المدينة أو نازل جيش ابن زياد في كربلاء، وانها لم تكن مجرد رد فعل على جلوس يزيد على العرش، أو استجابة لكتب أهل العراق وخسب، وانما كانت عملًا متكاملًا يستهدف تخليص الامة كلها من الجو الغريب الذي عاشته في ظل الدولة الاموية، والذي لا بد انه سيكون موبوءاً وغير صحي إلى اقصى حد اذا ما تمت مهزلة استخلاف يزيد.

رسالة الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية وثيقة تاريخية خالدة

ولنقرأ رسالة الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية:

(اما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنه انتهت اليك عني امور، لم تكن تظنني بها، رغبة بي عنها، وإن الحسنات لا يهدي لها، ولا يسدد اليها إلا الله تعالى، واما ما ذكرت أنه رقى اليك عني، فإنما قاه الملاقون، المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الجمع، وكذب الغاوون المارقون، ما أردت حرباً ولا خلافاً، وإني لأخشى الله في ترك ذلك، منك ومن حزبك، القاسطين المحلين، حزب الظالم واعوان الشيطان الرجيم، ألست قاتل حجر واصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر؟ فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة، والعهود المؤكدة، جراءة على الله واستخفافاً بعهده، أولست بقاتل عمرو بن الحمق، الذي اخلقت وأبلت وجهه العبادة؟ فقتلته من بعد ما اعطيته من العهود ما لو فهمته العصم نزلت من شعف الجبال. أولست المدعي زياداً في الاسلام، فزعمت انه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وآله ان الولد للفراش

وللعاهر الحجر؟ ثم سلطته على أهل الاسلام، يقتلهم ويقطع أيديهم وارجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل؟ سبحان الله يا معاوية، لكنك لست من هذه الأمة، وليسوا منك. أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب اليك فيه زياد انه على دين علي عليه السلام، ودين علي هو دين ابن عمه صلى الله عليه وآله، الذي اجلسك مجلسك الذي انت فيه، ولولا ذلك كان افضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا، منة عليكم؟ وقلت فيما قلت: لا ترد هذه الامة في فتنة، واني لا أعلم لها فتنة أعظم من امارتك عليها، وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد، واني والله ما اعرف افضل من جهادك، فان افعل فانه قربة إلى ربي، وان لم افعله فاستغفر الله لديني، واسأله التوفيق لما يحب ويرضى. وقلت فيما قلت: متى تكدني اكدك، فكدني يا معاوية فيما بدا لك، فلعمري لقديماً يكيد الصالحون، واني لأرجو ان لا تضر إلا نفسك، ولا تمحق إلا عملك، فكدني ما بدا لك، واتق الله يا معاوية، واعلم ان لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها، واعلم أن الله ليس بناس لك قتلك بالظنة، وأخذك بالتهمة، وامارتك صبياً يشرب الشراب، وملعب بالكلاب، ما اراك إلا وقد اوبقت نفسك واهلكت دينك وأضعت الرعية . . .)[1].

وفي هذه الرسالة التي ربما توقع معاوية انها ستكون رسالة اعتذار وايمان مغلظة يؤكد فيها الحسين عليه السلام انه لم يقم بأي عمل ضد الدولة، فوجىء معاوية بكلام يستسخف قوله ويؤكد له انه لا يزال كعهده يقتل بالظنة ويأخذ بالتهمة، وان هذا الاسلوب الاموي (الاحترازي) هو الذي يريد ان يتبعه معه، فيكتب اليه انه قد انتهت اليه عنه امور، مع ان ما انتهى اليه قد يكون من نسج خياله أو من الملاقين المشائين بالنميمة المفرقين بين الجمع.

ورغم تأكيد الإمام على رفض بيعة يزيد، إلا انه يؤكد بوضوح ايضاً انه لم يقم بعمل من شأنه اثارة الحرب على معاوية ما دام معاوية حياً.

ان الرسالة بمجملها شهادة من الحسين عليه السلام بانه لم يقر اعمال معاوية، إلا انه حفاظاً على الصلح الذي اجراه الإمام الحسن عليه السلام معه، لم يثر حرباً أو خلافاً، مع انه يؤكد ان الاجدر به لو قام بذلك، ويعرف مغبة تركه، ويعتذر إلى الله في ذلك.

(١) نفس المصدر ١٨٠- ١٨١.

ان تأكيده على عدم القيام بحرب أو خلاف للاطاحة بمعاوية، يفوت الفرصة عليه للقيام بأي اجراء عدواني ضد آل البيت عليهم السلام ، وربما كانت رغبة معاوية الحقيقية ان يقوم الحسين عليه السلام بأي تحرك معلن ضده ليقوم بقتله وعرض المسألة كلها على انها فتنة، أو خلاف شخصي أو مطامع شخصية ولن يجد من يحاسبه أو يعترض عليه، خصوصاً وان له رصيداً بين فئات عديدة من ابناء الامة في الشام والعراق ومصر والحجاز، وسيجند كل اعوان الدولة وجنودها لتغيير الحقائق وتزويرها كما فعل بشأن خروجه على أمير المؤمنين عليه السلام وحربه له.

وربما كان معاوية في تلك الفترة لا يحسب حساب كثير لمجرد الاحتجاج أو الاعتراض بالقول، وربما كان يمهد في المستقبل لاجواء لا تتاح فيها الفرصة حتى للاحتجاج اللفظي على سياسة الدولة الاموية واعمالها، وغالباً ما كان يصرخ:

«إني لا احول بين الناس والسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا»[1].

وقد تضمن القسم الثاني من رسالة الامام عليه السلام قائمة ببعض التجاوزات الكبيرة التي قام بها معاوية، حتى لكأنه وهو يقوم بها لا ينتمي نهائياً إلى هذه الامة المسلمة، وكأنه ينتمي إلى فئة تتبنى عقائد وديانات وافكاراً تتعارض مع الاسلام وتتقاطع معه.

اما اشارته عليه السلام إلى قتل ابن الحضرمي باعتبار انه على دين علي عليه السلام ، فهي اشارة بارعة إلى اكبر واخطر لعبة قام بها معاوية لإيهام الناس بان دين علي هو دين آخر لا يمت إلى الاسلام بصلة، وانه أي معاوية الممثل الحقيقي لهذا الدين والوريث الشرعي الوحيد له، وهي فرية لا تزال لحد الآن تنطلي على العديد من المسلمين المخدوعين مع الأسف فيتحدثون كما اراد معاوية بالضبط عن دين علي وقرآن فاطمة ودين الشيعة، وكأنها اديان جديدة مبتدعة، وكأن دينهم ليس هو الاسلام وخطهم الذي هو خط أمير المؤمنين، ليس هو خط الرسول صلى الله عليه وآله.

ان الدعاية الاموية نشطت منذ البداية بهذا الاتجاه الخطير لفصل المسلمين وعزلهم عن بعضهم واثارة الخلافات والفرقة بينهم إلى الابد، ويبدو انها بوجود

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٣٧٤.

الحمقى والمأجورين والمتعصبين الذين يتصرفون دون روية أو تفكير، نجحوا في خطتهم إلى ابعد حد.

ولعل معاوية اطمأن، وابتسم راضياً عن هذه الرسالة، رغم الاسلوب الصريح الحاد، فليس الحسين عليه السلام من يقول شيئاً ويكتم شيئاً آخر، فهو يعلم انه ابعد الناس عن الكذب، كما ان ما اعلنه في رسالته هو حقيقة، واذا فعل معاوية ما فعل بدافع المصلحة فان الحسين قد شجبه، ومعاوية يعلم انه عليه السلام لا يقبل بذلك، سواء اعلن ذلك ام لم يعلنه.

ان الذي سر معاوية حقاً هو ان الامام عليه السلام لم يقم بشن الحرب وجهاده، مع انه قال أفضل عمل ان يقوم به، وانه يستغفر الله لأنه لم يفعله أما لماذا؟ فذلك ما لم يهم معاوية مادام الحسين عليه السلام لم يقم بعمل أو فعل حاسم ضده.

ولو قام الحسين عليه السلام بذلك لاعطى معاوية المبرر لقتله واستئصاله مع آل بيته ومواليه واتباعه ولذهبت دماؤهم هدرا وضيعت قضيتهم وزيفت الوقائع والحقائق، ولشن معاوية حربا معلنة قد تكون ناجحة ضد الاسلام وهذا ما لم ير نفسه بحاجة اليه حتى ذلك الحين.

وهذا ما يؤكد حقيقة سلامة توقيت الثورة بعد هلاك معاوية لتأتي اكلها كاملة في ايقاظ الامة من سباتها وغفلتها واستسلامها بذلك الشكل المهين لمعاوية ويزيد، وتنازلها بسهولة عن دينها وعقيدتها، وهو ما سنتحدث عنه عند تناول تفصيلات الثورة ونتائجها فيما تبقى من دراستنا هذه، بعون الله.

ان حقائق كثيرة يمكن استخلاصها من هذه الرسالة وأهمها التقاطع الحقيقي للحكم الاموي مع الاسلام، وهو ما لم ينكره معاوية ابداً، مبرراً ذلك بدوافع المصلحة ومنع الفتنة والحفاظ على وحدة الامة.

كما أن الرسالة تشير إلى رفض الإمام الحسين عليه السلام لمجمل السياسة الاموية وتصرفات حكامها، رغم انه لم يعلن فيها توقيتاً معيناً لثورة محتملة، ولم يستطع معاوية رغم براعته، استدراج الامام عليه السلام لكشف نواياه وخططه في المستقبل، إلا معرفة موقفه الواضح بعدم الاستجابة لمبايعة يزيد بأي حال من الاحوال، مع أن ذلك لم يمكن معاوية من اتخاذ فعل حاسم سريع، لان يزيد لم يصبح (خليفة) بعد، ومعاوية لم يزل حياً.

الرحلة الثانية إلى المدينة المنورة

محاولة لترويض المعارضين الخمسة

ظن معاوية ان زيارته الاولى للمدينة عام خمسين ستأتي اكلها ويستجيب كافة اهلها لمسألة مبايعة يزيد خليفة من بعده، وبعد محاولاته العديدة لاكتشاف مواقع المعارضة ومدى قوة كل منها، وبعد ازاحة اكبر عقبة وقفت في طريق تنفيذ مشروعه وهو الإمام الحسن عليه السلام باغتياله، اصبح يرى نفسه اكثر حرية في الدعوة إلى يزيد، وقد وضع احد رجاله الاشداء وهو سعيد بن العاص والياً على المدينة بدلًا من مروان، وطلب منه ان يثبت لهذا الامر ويجس نبض المعارضة مرة اخرى بعد تسليمه رسائل لبعض من رفضوا الاستجابة لاوامره بمبايعة يزيد، وفي مقدمتهم الإمام الحسين عليه السلام.

وقد رأينا الرد الحازم الذي تضمنته رسالة الامام عليه السلام ورفضه الاكيد للبيعة، وهذا ما جعل معاوية يطلب من عامله سعيد:

(ان يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد، اخذاً بغلظة وشدة، ولا يدع احداً من المهاجرين والأنصار وابنائهم، حتى يبايعوا، وأمره ان لا يحرك هؤلاء النفر، ولا يهيجهم، فلما قدم عليه كتاب معاوية، اخذهم بالبيعة اعنف ما يكون من الأخذ واغلظه، فلم يبايعه احد منهم. فكتب إلى معاوية: انه لم يبايعني احد، وانما الناس تبع لهؤلاء النفر، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً، ولم يتخلف عنك احد. فكتب اليه معاوية يأمره ان لا يحركهم إلى ان يقدم)[1].

وقدم معاوية لهذا الغرض، معلناً انه قد جاء حاجاً، ومن المؤكد انه اراد حسم المسألة نهائياً واجبار الناس على مبايعة يزيد قبل رجوعه، وفي رحلة الذهاب الملكية الطويلة استحضر كل خبراته ودهائه وحيله لانجاز الفصل الجديد، وربما الاخير لاكمال البيعة، ولم يعدم معاوية الوسائل اللازمة لتنفيذ مآربه واخراج هذا الفصل بطريقة فنية مبتكرة.

وكان أول ما فعله ان حاول التقرب من أهل المدينة واستمالتهم بمخالطتهم ومحادثتهم واغداق الاموال والكلمات المعسولة عليهم.

---

(١) الامامة والسياسة ١/ ١٨٢.

(فلما ان دنا من المدينة، خرج اليه الناس يتلقونه، ما بين راكب وماش، وخرج النساء والصبيان، فلقيه الناس على حال طاقتهم، وما تسارعوا به في الفوت والقرب، فلان لمن كافحه، وفاوض العامة بمحادثته وتألفهم جهده، مقاربة ومصانعة، ليستميلهم إلى ما دخل فيه الناس، حتى قال في بعض ما يجتلبهم به: أهل المدينة ما زلت اطوي الحزن من وعثاء السفر، بالحب لمطالعتكم، حتى انطوى البعيد، ولان الخشن، وحق لجار رسول الله ان يتاق اليه. فرد عليه القوم: بنفسك ودارك ومهاجرك، اما ان لك منهم كاشفاق الحميم البر، والحفي المتعاهد)[١].

وهي خطوة اراد بها تجريد المعارضة التي يتزعمها الإمام الحسين عليه السلام من الغطاء الجماهيري الذي كان يلتف حوله، بالنزول إلى الشارع واستمالة بسطاء الناس وعامتهم وضعافهم، وهو ما لم يقم به قبل ذلك.

وقيل انه عندما (كان بالجرف لقيه الحسين بن علي وعبد الله بن عباس، فقال معاوية مرحباً بابن بنت رسول الله وابن صنوابيه، ثم انحرف إلى الناس، فقال: شيخا بني عبد مناف، واقبل اليهما بوجهه وحديثه فرحب وقرب، وجعل يواجه هذا مرة، ويضاحك هذا اخرى، حتى ورد المدينة، فلما خالطها لقيته المشاة والنساء والصبيان، يسلمون عليه ويسايرونه إلى ان نزل فانصرفا عنه)[٢].

على ان ابن الاثير ذكر في حوادث سنة ستة وخمسين ان معاوية عامل الحسين عليه السلام معاملة خشنة وقال له:

(لا مرحباً ولا اهلًا، بدنه يترقرق دمها والله مهريقه قال: مهلًا فاني والله لست بأهل لهذه المقالة. قال: بلى ولشر منها. ولقيه ابن الزبير فقال: لا مرحباً ولا اهلًا خب ضب تلعة يدخل رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله ان يؤخذ بذنبه ويدق ظهره، نحياه عني. فضرب وجه راحلته، ثم لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر فقال له معاوية: لا أهلًا ولا مرحباً شيخ قد خرف وذهب عقله، ثم امر فضرب وجه راحلته، ثم فعل بابن عمر نحو ذلك...)[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الإمامة والسياسة ٨٢ ١- ١٨٣.

(٣) ابن الاثير، الكامل ٣/ ٣٥٣.

ولعل تهديداته هذه كانت في زيارته الاولى سنة خمسين لان عبد الرحمن بن أبي بكر توفي سنة ثلاث وخمسين غير ان ابن الاثير قرن هذا الحادث بحادث دخول معاوية على عائشة ومحادثته معها وقولها له:

(وقد بلغها انه ذكر الحسين واصحابه فقال: لاقتلنهم ان لم يبايعوا فشكاهم اليها فوعظته وقالت له: بلغني انك تتهددهم بالقتل، فقال: يا ام المؤمنين هم اعز من ذلك ولكني بايعت ليزيد وبايعه غيرهم، افترين ان انقض بيعة قد تمت؟ قالت: فارفق فانهم يصيرون إلى ما تحب...)[1].

وهذا ما تم سنة ست وخمسين. وقد ذكر ابن الاثير ان معاوية غيَّر موقفه منهم بعد ذلك عند ذهابه إلى مكة وتلقى الحسين عليه السلام قائلًا:

(مرحباً واهلًا بابن رسول الله وسيد شباب المسلمين، فأمر له بدابة فركب وسايره، ثم فعل بالباقين مثل ذلك، وأقبل يسايرهم ولا يسير معه غيرهم حتى دخل مكة فكانوا اول داخل وآخر خارج ولا يمضي يوم إلا ولهم صلة، ولا يذكر لهم شيئاً حتى قضى نسكه وحمل اثقاله وقرب مسيره، فقال بعض اولئك النفر لبعض: لا تخدعوا فما صنع بكم هذا لحبكم وما صنعه إلا لما يريد، فاعدلوا له جواباً ..)[2].

وذكر ابن الاثير ايضاً ان معاوية خطب بالمدينة:

(فذكر يزيد فمدحه وقال: من احقُّ منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه، وما اظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث اصولهم، وقد انذرت ان اغنت النذر، ثم انشد متمثلًا:

قد كنت حذرتك آل المصطلق وقلت يا عمرو اطعني وانطلق
انك ان كلفتني ما لم اطق ساءك ماسرك مني من خلق
دونك ما أستسقيته ذا حسب وذق)[3]

ولعل لقاءه بالحسين عليه السلام لم يكن من قبيل الصدفة، كما ان اشارته إلى بني عبد مناف لم تكن اشارة عارضة، وانما اشارة مقصودة إلى هذا البيت الذي يضم بني

(١) المصدر السابق.
(٢) و(٣) نفس المصدر السابق ٣/ ٣٥٣- ٣٥٤.

امية اضافة لبني هاشم، وهي اشارة يقصد منها الاشادة بأمية بعد ان حطَّ منها الاسلام بما فعلته هي ضده.

وربما كان هذا الترحيب بالحسين عليه السلام ومسايرته ومضاحكته يقصد منه ايهام الناس بان الحسين عليه السلام في طريقه لان يستجيب لمشروعه في استخلاف يزيد.

وقد أكد معاوية لعائشة عزمه على مبايعة يزيد قائلًا:

(ان امر يزيد قضاء من القضاء، وليس للعباد الخيرة من أَمرهم، وقد اكد الناس بيعتهم في اعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم. افترين ان ينقضوا عهودهم ومواثيقهم؟ فلما سمعت ذلك عائشة علمت انه سيمضي على أمره)[1].

أساليب معاوية مع المعارضين، لكل مقام مقال

وهنا اتبع معاوية تكتيكاً خاصاً مع معارضيه، فعندما وصل إلى منزله ارسل إلى الحسين عليه السلام وقال له:

(.. قد استوثق الناس لهذا الامر، غير خمسة نفر من قريش انت تقودهم يا بن أخي فما اربك إلى الخلاف)[2].

وقال مثل قوله هذا لابن الزبير وابن عمر وابن أبي بكر (واظن ان هذا ليس وارداً لوفاة ابن أبي بكر سنة ثلاثة وخمسين)، وان الامر قد تم خلال زيارته الاولى سنة خمسين..

وطبيعي ان معاوية يستهدف من وراء اتهامه كل واحد من المعارضين بانه يتزعَّم الحملة إلى القاء التبعة عليه لوحده وتحميله مسؤولية احجام الناس كلهم عن مبايعة يزيد، وقد اراد بذلك اثارة رد فعل يعمد فيه كل منهم إلى تبرئة نفسه من ذلك وابداء استعداده لفعل العكس والتراجع عن موقفه.

وقد نجحت هذه الخطة في النهاية مع ابن عمر، اما الإمام الحسين فقد بقي مصرًّاً على عزمه بعدم المبايعة ليزيد، كما بقي ابن الزبير على عزمه كذلك.

رد الحسين عليه السلام على مغالطات معاوية: فضح الصبح فحمة الدجى

وفي محاولة اخيرة من معاوية لاقناع الإمام الحسين عليه السلام بمبايعة يزيد، استدعاه إلى مجلسه مع ابن عباس وعرض عليهما الاستجابة لذلك قائلًا:

---

(١) و(٢) الامامة والسياسة ١/ ١٨٣-١٨٤، الطبري ٣/ ٢٤٨.

(.. وقد كان من امر يزيد ما سبقتم اليه والى تجويزه، وقد علم الله ما احاول به في امر الرعية من سد الخلل ولم الصدع بولاية يزيد بما ايقظ العين واحمد الفعل. هذا معناي في يزيد، وفيكما فضل القرابة، وحظوة العلم وكمال المروءة، وقد اصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة، ما اعياني مثله عندكما وعند غيركما، مع علمه بالسنة وقراءة القرآن، والحلم الذي يرجح بالصم الصلاب...)[1].

وقد اراد معاوية في خطبته هذه توضيح سابقة بتولية عمرو بن العاص من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غزوة السلاسل وتقديمه على أبي بكر وعمر، وعمرو على حد تعبير معاوية (لم يقارب القوم ولم يعاندهم برتبة في قرابة موصولة ولا سنة مذكورة، فقادهم الرجل بأمره وجمع بهم صلاتهم وحفظ عليهم فيئهم، وقال فلم يقل معه، وفي رسول الله صلى الله عليه وآله اسوة حسنة)[2].

وكان بذلك يشير إلى امكانية تفضيل من لا سابقة له على غيره، وهو ما يريد ان يفعله بشأن يزيد، وقد فوّت عليه الإمام الحسين عليه السلام فرصة تمرير ذلك وقال :

(وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله صلى الله عليه وآله وتأميره له، وقد كان ذلك ولعمرو بن العاص يومئذٍ فضيلة بصحبة الرسول وبيعته له، وما صار لعمر الله يومئذٍ مبعثهم حتى انف القوم امرته، وكرهوا تقديمه، وعدوا عليه افعاله، فقال صلى الله عليه وآله: لا جرم معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري فكيف تحتج بالمنسوخ من فعل الرسول في اوكد الاحكام وأولاها في المجتمع عليه من الصواب ام كيف صاحبت بصاحب تابعاً وحولك من لا يؤمن في صحبته ولا يعتمد في دينه وقرابته)[3].

فهو عليه السلام أشار هنا إلى تجربة اسلامية سابقة امر فيها رسول الله صلى الله عليه وآله عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل ثم عدل بعد ذلك لما رأى كراهية اصحابه له، ووعدهم بان يتولى هو قيادتهم، وبذلك فان الرسول صلى الله عليه وآله اقر امراً آخر وتخلى عن قراره السابق عندما رأى ان مصلحة المسلمين تقتضي ذلك.

وقد ادرك الامام عليه السلام ان معاوية قد بالغ في مدح يزيد، مع ان سيرته مكشوفة

---

(١) نفس المصدر السابق ١٨٥- ١٨٦.
(٢) نفس المصدر السابق ١٨٦.
(٣) نفس المصدر السابق ١٨٧.

امام الامة كلها، وذكره بما هو عليه حقاً، وما يقوم به من عبث ولهو طائش بعيد عما ذهب اليه معاوية وبالغ فيه، وقد اجابه عليه السلام بكلمة طويلة جاء فيها:

(هيهات هيهات يا معاوية، فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس انوار السرج، ولقد فضلت حتى افرطت واستأثرت حتى اجحفت، ومنعت حتى محلت، وجزت حتى جاوزت ما بذلت لذي حق من اسم حقه نصيب، حتّى اخذ الشيطان حظه الاوفر، ونصيبه الاكمل وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لامة محمد، تريد ان توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، وتنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما اخذ فيه، من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن والقيان ذوات المعازف، وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول فما اغناك ان تلقى الله من وزر هذا الخلق باكثر مما انت لاقيه. فوالله ما برحت تقدح باطلًا في جور، وحنقاً في ظلم، حتى ملأت الاسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر ومنعتنا عن آبائنا تراثاً، ولقد لعمر الله اورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة وجئت لنا بما حججتم به القائم عند موت الرسول، فأذعن للحجة بذلك، ورده الايمان إلى النصف، فركبتم الاعاليل وفعلتم الافاعيل، وقلتم كان ويكون، حتى اتاك الامر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك فاعتبروا يا اولي الابصار.

كيف صاحبت بصاحب تابعاً، وحولك من لا يؤمن في صحبته ولا يعتمد في دينه وقرابته، وتتخطاهم إلى مسرف مفتون، تريد ان تلبس الناس شبهة يسعد بها الباقي في دنياه، وتشقى بها في آخرتك، ان هذا لهو الخسران المبين)[1].

كان رد الإمام الحسين عليه السلام واضحاً وضوحه كل مرة، وقد حذر معاوية من مغبّة الاستمرار في سعيه لاستخلاف يزيد الخبير بالكلاب المهارشة والحمام السبق، والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي، وخوفه من عذاب الله وهو وارد عليه حتماً كما اخذ عليه سلوكه وسيرته المشينة في المسلمين، وقد اصبح ولي امرهم والقائم على شؤونهم على غفلة من الناس وخلاف رغباتهم.

---

(١) نفس المصدر ١٨٦- ١٨٧.

وربما كان معاوية يحسب انه بتقريبه الامام عليه السلام من مجلسه ومجاملته قد يجعله يستجيب لما عزم عليه من جعل يزيد ولياً لعهده، ويبدو انه فقد الامل نهائياً باستجابة الامام عليه السلام لذلك.

الاجتماع الثاني بين معاوية والعبادلة

وفي جلسة اخرى جمع معاوية عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وحذَّرهم من مغبة الاستمرار في موقفهم المناوىء للبيعة وقال في معرض حديثه:

(وان امر يزيد قد كان قضاء من القضاء، وليس للعباد خيرة من امرهم، وقد وكد الناس بيعتهم في اعناقهم واعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم)[١].

وهذه كما قلنا نغمة طالما عزف عليها معاوية ويزيد من بعده وكل السلالة الاموية فيما بعد، ان هذا كان قضاء بامر الله، ليس لاحد فيه خيرة من امره.. اما كيف تم، وبارادة من ورغبة من ولمصلحة من فهذا ما لم يشأ معاوية الخوض فيه، انه يتكلم هنا كمبعوث خاص يفلسف للناس ويوضح لهم طبيعة القدرة الالهية التي شاءت ان يكون يزيد خليفة كما شاءت ان يكون هو خليفة من قبل وكأن الامر هنا امر قضاء الهي مجرد أو معجزة الهية جعلت من يزيد خليفة، وليست سنة الهية جعلت يزيد واباه يتسلطان على الامة بعد ان فقدت عوامل وجودها كأمة اسلامية، وبعد ان تنازلت عن كيانها ومنهجها، وتناست كل ذلك، في غمرة الاستسلام المخزي لأعوان الشيطان وحزبه.

اجتماع عام وتهديد بأهل الشام

وقد هدد المجتمعين بأهل الشام الذين جلب منهم جيشاً كبيراً مدججاً بالسلاح إلى المدينة في غمرة سعيه المحموم لاخذ البيعة ليزيد ولو بالقوة..

وبعد ذلك عقد اجتماعاً عاماً القى فيه كلمة:

(ذكر يزيد وفضله وقراءته القرآن، ثم قال: يا أهل المدينة، لقد هممت ببيعة يزيد، وما تركت قرية ولا مدرة إلا بعثت اليها ببيعته، فبايع الناس جميعاً وسلموا،

(١) المصدر السابق.

وأَخرت المدينة بيعته، وقلت: بيضته واصله، ومن لا اخافهم عليه، وكان الذين ابوا البيعة منهم من كان اجدر ان يصله، ووالله لو علمت مكان احد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له)[1].

ان هذه الكذبة التي يقوم بها الحاكم القوي المدجج بالسلاح والذي يحسب ان احداً لن يجرؤ على ردها عليه، كفيلة بالتأثير على العديدين من البسطاء والمفتونين والمخدوعين، وان فيها ايحاءً قوياً بان ما يقوله هذا الرجل قد يكون حقا، وانه ربما لا يعلم عن يزيد إلا ما علم، وهذا ما قاله لنا ابن حجر وابن العربي وابن خلدون وامثالهم، ممن حسبوا ان فرية معاوية كانت حقا، وانه اختار لامة محمد افضلها، وربما تنازلوا عن هذه (الفضيلة) التي نسبوها ليزيد ثم قالوا بجواز امامة المفضول اذا اقتضت المصلحة ذلك، اما اية مصلحة اقتضت ذلك أهي مصلحة يزيد ومعاوية، أو مصلحة المسلمين، فهذا ما نترك الجواب عليه للقارىء الجاد.

الإمام الحسين يتصدى ثانية لمعاوية

وفي هذا المقام ايضاً تصدى الإمام الحسين عليه السلام مرة اخرى لمعاوية وقال له:

(لقد تركت من هو خير منه اباً واماً ونفساً. فقال معاوية: كأنك تريد نفسك؟

فقال الحسين: نعم، اصلحك الله. فقال معاوية: اذاً اخبرك. اما قولك، خير منه اما، فلعمري، امك خير من امه، ولو لم تكن إلا انها امرأة من قريش، لكان لنساء قريش فضلهن. فكيف وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم فاطمة في دينها وسابقتها. فامك لعمر الله خير من امه. واما ابوك فقد حاكم اباه إلى الله فقضى لابيه على ابيك.

فقال الحسين: حسبك جهلك، آثرت العاجل على الآجل.

فقال معاوية: واما ما ذكرت من انك خير من يزيد نفساً، فيزيد والله خير لامة محمد منك.

فقال الحسين: هذا هو الإفك والزور، يزيد شارب الخمر ومشتري اللهو خير مني؟

---

(١) نفس المصدر ١٨٨.

فقال معاوية : مهلًا عن شتم ابن عمك، فانك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك . ثم التفت معاوية إلى الناس وقال: ايها الناس، قد علمتم ان رسول الله ﷺ قبض ولم يستخلف احداً، فرأى المسلمون ان يستخلف ابا بكر، وكانت بيعته بيعة هدى، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة، رأى ان يستخلف عمر، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى ان يجعلها شورى بين ستة نفر، اختارهم من المسلمين، فصنع ابو بكر ما لم يصنعه رسول الله ﷺ، وصنع عمر ما لم يصنعه ابو بكر، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين، فلذلك رأيت ان ابايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف، ونظراً لهم بعين الانصاف)[1] .

انَّ رد معاوية على الإمام الحسين عليه السلام تضمن العديد من المغالطات والاكاذيب، كما انه نهج نهجاً معوجاً عندما افحمه الامام عليه السلام وبين سيئات يزيد واعماله المشينة، فهو لم يملك امام هذا الوصف ليزيد إلا ان اتهم الامام عليه السلام بأنه انما كان يسب يزيد وانه (يزيد) ما كان يفعل ذلك لو ذكر عنده الامام عليه السلام بسوء، وما عسى ان يقول يزيد في الحسين عليه السلام؟ وهل حقيقة ان يزيد لم يعمد كأبيه وكل الامويين ومواليهم واتباعهم وحواشيهم بسب أمير المؤمنين عليه السلام من على المنابر، بمناسبة ودون مناسبة؟ أي خلق عال ذلك الذي امتاز به يزيد فجعله يتعفف عن السباب، ولا يفعل ذلك كأبيه؟ لم يفعل الإمام الحسين عليه السلام شيئاً سوى ان وصف يزيد، فهل كان ذلك شتيمة بنظر معاوية واشياعه؟

المغالطة الأموية الكبرى

وثمة مغالطة كبرى لجأ اليها واراد بها ان يقف في صف من سبقه من الخلفاء فاشار إلى عدم استخلاف الرسول ﷺ علياً من بعده.

وهي مغالطة لجأ اليها من ارادوا تحويل الخلافة مند البداية عن مسارها الصحيح، وبذلك ضم نفسه إلى صفوف من جاء قبله وهم يتمتعون برصيد كبير لدى فئات كبيرة من الامة، كما ان الاسلوب الذي لجأ اليه الخليفة الاول، وهو ترشيح الثاني بعده، والاسلوب الذي لجأ اليه الثاني بترشيح ستة اشخاص يتشاورون لاختيار احدهم، وهما اسلوبان مختلفان متغايران ومغايران للصيغة التي ارادها رسول

(١) نفس المصدر السابق ١٨٨.

الله ﷺ، اتاحا لمعاوية الاستفادة من هذه (السوابق) في الترشيح للخلافة، باعتبار ان ليس هناك صيغة محددة لذلك، وهو ما يتيح له هو أيضاً أن يتصرف على ذلك الأَساس، مدعياً ان المصلحة التي دعت من سبقه على عدم الالتزام بصيغة معينة وانهم انما تصرفوا وفق الظروف التي مروا بها، هي نفسها التي تدعوه الآن إلى ترشيح يزيد، لانه بذلك يحافظ على مصلحة الأمة ويضمن وحدتها وامنها، وهي امور طالما ادعاها معاوية، ونجدها طي خطبه وكلامه وتوجيهاته، وقد اتاح بذلك الفرصة لمن جاء بعده من كافة السلالات الحاكمة للتذرع بها واعتمادها اساساً للحكم والسياسة.

لذلك فانه صرح ان ما فعله قبله انما كانوا يصنعونه نظراً للمسلمين على حد تعبيرهم، وعلى اساس منطقهم وتصرفهم نفسه، فانه ايضاً رأى ان يبايع ليزيد، لما وقع الناس فيه من الاختلاف، ونظرا لهم بعين الانصاف.

وهي حجة تبدو معقولة بنظر الكثير من المسلمين في ايام معاوية واليوم ايضاً، اذ لا يختلف معاوية بنظرهم عن أبي بكر وعمر، بل لعله بنظر الكثيرين يتفوق عليهما، فاذا ما مدح شخصا أو رشحه لخلافة المسلمين فمن غير المعقول انه لم يقم بالتحري عنه أو انه رشحه دون ان يرى فيه مؤهلات جديرة بمنصب الخلافة، فشهادة معاوية وحدها تكفي ولا يهم كلام الامة كلها، أليس ذلك ما يطالعنا خلف كلمات ابن خلدون وابن العربي وابن حجر وامثالهم.

غير انها مجرد حجة بنظر الكثيرين الذين يعرفون حقيقة معاوية ويزيد، امثال الإمام الحسين عليه السلام. فالحسين لم يكن ممن انبهروا بملمات معاوية وبيانه وأضاليله، أو ممن انطلت عليهم تلك الالاعيب والمسرحيات التي اخرجها لاستخلاف يزيد ووضعه مقام رسول الله ﷺ، وكان تفويت مخطط معاوية من قبله يشكل مساهمة في هذا التعيين ومشاركة في المؤامرة الخطيرة ضد الاسلام، ولم يكن اقناعه بذلك بالامر اليسير الذي يتم بمجرد رغبة معاوية في ذلك، لذلك فان الفصل الاخير من هذه المسرحية اتسم بالكثير من الاثارة وكان حقاً جديراً بمعاوية الفنان بمثل هذه الالاعيب التي امضى حياته في تصميمها وتوزيع ادوارها.

البيعة تحت ارهاب السيوف

فبعد ان أيس من اقناع النفر الذين عارضوه، جمعهم، وحذرهم بقوله:

(... انه قد أعذر من أنذر، اني كنت اخطب فيكم، فيقوم الي القائم منكم

فيكذبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك واصفح، واني قائم بمقالة، فاقسم بالله لئن رد علي احدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه.

ثم دعا صاصب حرسه بحضرتهم فقاله: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين، ومع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما. ثم خرج، وخرجوا معه حتى رقى المنبر.. ثم قال: ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز امر دونهم، ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وانهم رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله فبايع الناس، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر، ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة، فلقي الناس اولئك النفر، فقالوا لهم: زعمتم انكم لا تبايعون، فلم رضيتم واعطيتم وبايعتم؟ قالوا: والله ما فعلنا. قالوا: ما منعكم ان تردوا على الرجل؟ قالوا: كادنا وخفنا القتل، وبايعه أهل المدينة)[١].

على ان روايات اخرى تؤكد ان الإمام الحسين عليه السلام لم يكن مع هؤلاء النفر.

وقد روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة قصة مشابهة تختلف بعض التفصيلات وقد جاء فيها ان معاوية. (أمر من حرسه وشرطته قوماً ان يحضروا هؤلاء النفر الذين ابوا البيعة، وهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأوصاهم معاوية فقال: اني خارج العشية إلى أهل الشام، فاخبرهم ان هؤلاء النفر قد بايعوا وسلموا. فان تكلم احد منهم بكلام يصدقني أو يكذبني فيه، فلا ينقضي كلامه حتى يطير رأسه فحذر القوم ذلك فلما كان العشي، خرج معاوية، وخرج معه هؤلاء النفر، وهو يضاحكهم ويحدثهم، ثم خرج بينهم، واظهر لاهل الشام الرضا عنهم، أي القوم وانهم بايعوا. فقال: يا أهل الشام ان هؤلاء النفر دعاهم أمير المؤمنين فوجدهم واصلين مطيعين، وقد بايعوا وسلموا!، قال ذلك والقوم سكوت، ولم يتكلموا شيئاً حذر القتل، فوثب اناس من أهل الشام فقالوا: يا أمير المؤمنين، ان كان رابك منهم ريب، فخل بيننا وبينهم، حتى نضرب اعناقهم، فقال معاوية: سبحان الله، ما احلى دماء قريش عندكم يا أهل الشام، لا

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٣٥٤- ٣٥٥.

اسمع لهم ذاكراً بسوء، فانهم قد بايعوا وسلموا، وارتضوني فرضيت عنهم، رضي الله عنهم.

ثم ارتحل معاوية راجعاً إلى مكة، وقد اعطى الناس اعطياتهم، واجزل العطاء واخرج إلى كل قبيلة جوائزها وأعطياتها ولم يخرج لبني هاشم جائزة أو عطاء)[١].

وربما تكون وقائع هذه الرواية الثانية وما فيها من تفصيلات اقرب إلى اخراج معاوية وتركيبته واخلاقه، وقد انصرف إلى الشام بعد ان اكمل مهمته بنجاح منقطع النظير، وهو امر جدير بأمثاله من الساسة المحنكين، المحاكين لتجارب القياصرة والفراعنة.

واذا ما تصورنا هذا الموقف، حيث معاوية، واعوانه شاكي السلاح، على استعداد لقطع رقبة أي متكلم، مهما كان كلامه، وهو على استعداد لتنفيذ وعيده، ومن اشهر فوق رؤوسهم السيوف يعلمون ذلك، وانه ما كان ليتوانى عن تنفيذ تهديده، فالمسألة مصيرية بالنسبة له، والكل يعلم كم بذل في سبيلها من جهود وطاقات استمرت فترة طويلة من الزمن، بدا لنا المشهد واضحاً، ولعل اصوات أهل الشام التي ارتفعت مطالبة بقطع رؤوس المعارضين، كانت بايعاز مباشر منه، وكانت من فصول اللعبة الاخيرة التي يقوم باعدادها لتنصيب يزيد، ولو ان احدا من المعارضين قتل، ربما كانت مسؤولية قتلة سيتحملها احد القتلة المباشرين ويتنصل منها معاوية، وربما ادعى ان المقتول اراد الاعراب عن رغبته في مبايعة يزيد فلم يتح له القاتل فرصة ذلك، ليعمل معاوية بعد ذلك على سد افواه ذويه بالاموال لكي يسكتوا وربما بقطع رقابهم ايضاً.

واذا ما تساءل احد: اذا كان الإمام الحسين عليه السلام وهو من نتكلم عنه هنا (خاف) القتل، فكيف نبرر استبساله بعد عدة سنين واقدامه على مواجهة السلطة بكل اجهزتها وقوتها وعدم تراجعه أو ابداء استعداده لوضع يده في يد يزيد رغم تعرضه الاكيد للقتل والابادة؟

اما ما كان الاجدر به ان يقف موقفه هذا منذ البداية، حتى وان قتله معاوية؟ ليسجل له، بدل ان تسجل عليه هذه النقطة من (التراجع). ؟

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٢١.

وهو سؤال له مبرراته بنظر من لم يعرف الحسين عليه السلام ولم يعرف معاوية.

ان الإمام الحسين لم يخف القتل قطعاً، ولكنه على فرض حضوره ذلك الاجتماع لم يرد لدمه ان يذهب هدراً دون ان يحقق للامة شيئاً، ودون ان يجعلها ذلك تصحو من سباتها وتنتفض على جلادها، بل ان هذا الجلاد سيعمد بما اوتي من مهارة كبيرة في المكر والغدر، الذي يسميه هو دهاء إلى تشويه قضيته عليه السلام امام الأمة، وعرضها كفتنة أو نزوة جاشت في رأسه كما قال له فعلاً في احدى المرات، وستمكنه براعته في التضليل وامكاناته في الثروة والمال على تزويرها بل ومحوها ونسيانها وطيها إلى الابد.

فلم يكن الامام عليه السلام مغامراً كما صوره اعداؤه ولم تكن حياته عنده رخيصة إلى الحد الذي يبذلها ويضحي بها دون سبب وجيه، واي امر اكثر وجاهة من انقاذ الامة برمتها من مخالب فرعون وظلم فرعون وضلال فرعون؟

وهذا امر سنتحدث عنه في حينه بعون الله غير ان ما يهمنا هنا ان نزيل الشبهة من رؤوس الذين يظنون ان الحسين عليه السلام كان يمكنه ان ينحني امام سيف القتلة، و يمكنه ان يتراجع عن المنهج الذي وضعه جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد اصبح هو المسؤول الاول والمؤهل الاول لحمله وتطبيقه وقيادة الامة على اساسه.

والا فهل دل حاله عليه السلام على انه هادن الدولة الظالمة واستسلم لها؟ ام ان ما عمله هو تفويت الفرصة على معاوية لتنفيذ مخططه بتنصيب يزيد وقتله هو، واسكات الامة إلى الابد؟

لقد امتلك معاوية رصيداً لا بأس به بين صفوف أهل الشام، وآل امية في الحجاز، ووجد من يعتبره خليفة حقا وصحابياً جليلًا مفضلًا، واذا ما قام باستئصال آل البيت فان لديه القدرة على غلق الملف كله، وتنفيذ كل مآربه بحرية ومرونة اكثر، وهذا ما جعل الإمام الحسين عليه السلام يفوت الفرصة عليه عدة مرات عندما اراد استدراجه للثورة، أو اعلان موقفه برفضه هو..؟ وسنرى لماذا لم يستجب الامام عليه السلام لمن دعاه للثورة في زمن معاوية.

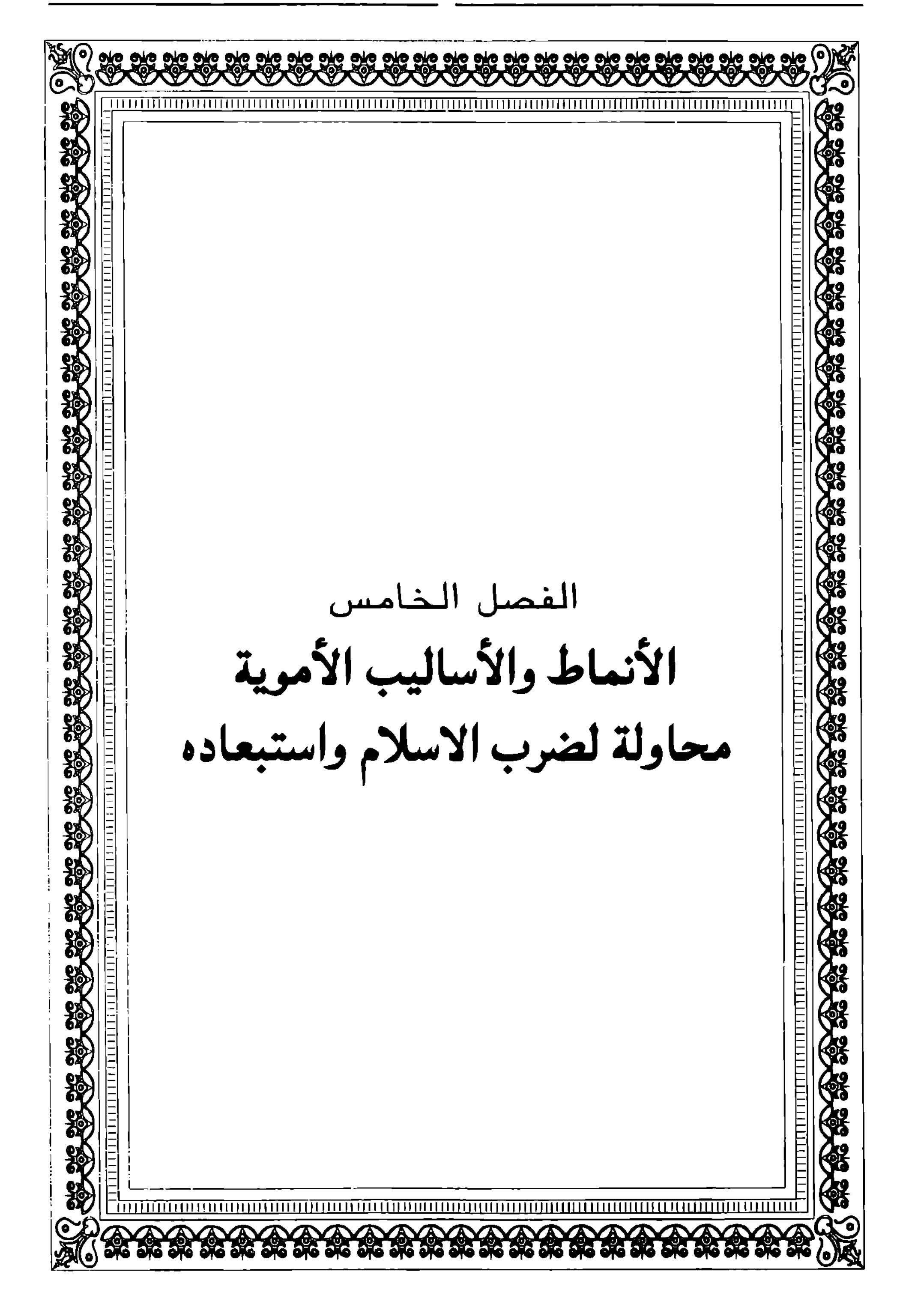
اما يزيد فانه لم يكن يمتلك ذلك الرصيد، وكان مكشوفاً امام الامة كلها، وهذا من شأنه ان يوضح عدالة قضية الحسين عليه السلام امامها، ويكشف لها عمق الهوة التي انحدرت اليها، ومدى الانحراف الذي وصلت اليه، ومن شأن ذلك ايضاً ان يجعلها

تنتبه بشكل اقوى إلى حالها السيئة في ظل الدولة الجائرة وحاكمها الذي تسلط عليها في غفلة من الزمن وفي ظروف غير طبيعية هي ابعد ما تكون عن الظروف التي عاشتها في عهد رسول اله ﷺ.

لقد اراد الإمام الحسين عليه السلام ان ينبه الامة إلى انها اذ قبلت بيزيد بديلًا لرسول الله ﷺ، واستساغت ذلك، بعد ان استدرجت لهذا الحال، فانه عليه السلام يدلها بفعل مؤثر حاسم ان تدرك مدى انحدارها وما سوف تصير اليه ان هي بقيت في حالها المهينة وانحرافها المتسارع.

ومع كل ذلك فاننا لا نزال نرى إلى اليوم من يبرر شرعية وجود يزيد خليفة على المسلمين ويبرر ما قام به من اعمال للحفاظ على مملكة والده، وهو امر لا بد ان له اسبابه ودوافعه عند هؤلاء، وسنحاول ان نناقشها في الوقت المناسب بعون الله.

غير اننا نؤكد بايجاز هنا: ان ما دعى أمير المؤمنين عليه السلام للسكوت عن حقه وقد اوضحه في عدة مناسبات هو الحفاظ على الاسلام من الانحراف، والتعطيل ثم النسيان إلى الابد، وهو ما دعى الإمام الحسن عليه السلام إلى توقيع وثيقة الصلح مع معاوية، هو نفسه الذي جعل الإمام الحسين عليه السلام يسكت عن معاوية رغم وضوح موقفه من يزيد، فمعاوية كان قادراً على تمييع القضية من الاساس بعد ان يستأصل الحسين عليه السلام وآله، وهو ما بدا قادراً عليه، للاسباب التي ذكرناها وعرفها القارىء خلال استعراضنا لشخصية معاوية الفريدة المتميزة بعبقرية الشر ودهاء الشيطان، وهو يسعى سعيه الحثيث لاكمال اكبر وأخطر لعبة له، وهي استخلاف يزيد.



الفصل الخامس

الأنماط والأساليب الأموية محاولة لضرب الاسلام واستبعاده

الأنماط والأساليب الأموية
محاولة لضرب الاسلام واستبعاده

تمهيد

لقد رأينا المجتمع الاسلامي في غضون ملاحظاتنا في هذا الكتاب، وهو يفقد بعض مقومات وجوده كمجتمع ذي كيان خاص قائم على مجموعة المبادىء والخصائص الاسلامية، وكان تجريده من أيٍّ من مقومات وجوده يعني فقدانه لعنصر التكامل الذي جعل منه ذلك الكيان المعروف ذي الخصائص المنسجمة المتناسقة، ويعني الانحدار به وتشويهه وسلبه حياته وديمومته وبقائه. فهو مجتمع لم ينبن على أسس وتصورات بشرية خالصة، يمكن تغييرها عند تغيير الظروف والاشخاص، بل هو قائم على تصور الهي، كل ما فيه يتجه إلى تكريس خلافة الانسان على الارض وتنظيمها وفق السنن الالهية التي أوضحها القرآن الكريم والرسول العظيم ﷺ.

وقد رأينا كيف ان التساهل مع الانحرافات البسيطة في عهود سابقة على عهد معاوية، ادى إلى ان يتسع الشق، ويتمادى معاوية، ومن بعده يزيد بالانحراف بزاوية منفرجة لا يبقى معها مجال لجذوى اية دعوة اصلاحية، تريد تقويم هذا الجانب أو ذاك، بل لا بد من اعادة بناء هيكل المجتمع الاسلامي، بناءً جديداً، يبدأ من رأس الدولة وهو [الخليفة] في هذه الحالة، ويستمر إلى استكمال واستعادة ما فقد من مقومات هذا المجتمع، وهي كثير ومتعددة.

لقد كان انحراف الامة الاسلامية مخططاً له بعناية فائقة وبفعل مدبر، لاننا رأينا ان شكل الانحراف الاخير ما كان ليقبل في المجتمعات التي سبقت معاوية أو يزيد، فهو حدث ضخم اثر على كيان الامة كله، وقد تمَّ بتسارع موزون وخطوات متصاعدة لم تكن تبدو اعتباطية، بل بخطوات مدروسة معدة، فقد تغير كل شيء في هذه (الدولة الاسلامية) الجديدة.

تغير النظام المالي، وتغيرت المفاهيم العبادية، وكذلك العلاقات الاجتماعية، وتغير هيكل الدولة الاسلامية، وتغيرت التصورات الاسلامية، وعادت اغلبها،

تصورات جاهلية بحتة تؤكد على قيم الجاهلية وأفكارها، وقد تكون مغطاة باغطية (الشرعية الاسلامية الاموية).

كما تغيرت كل اساليب العمل والاداءات السُلوكية في دولة الاسلام الاموي، وقبل كل شيء: تغير رأس الدولة، وخليفة رسول الله ﷺ الذي كان ينبغي ان تتوفر فيه مواصفات القيادة والامامة والخلافة على نفس الاسس التي ارادها الرسول الكريم ﷺ، وعمل على الظهور بها، ، عند قيادته الفعلية لهذه الدولة.

وعندما يشير احد إلى ان ذلك غير ممكن عملياً، اذ لا أحد كالرسول ﷺ، فاننا نقول بان الاداء العالي في قيادة الامة كان يمكن ان يستمر على نفس تلك الوتيرة لو وضع الرجل المناسب الذي اعدَّه الرسول ﷺ في مكانه الصحيح منذ البداية، ولو لم تأخذ الاحداث مجراها التي اخذته والتي حدثنا التاريخ عنها فيما بعد.

وعندما يختفي رسول الله ﷺ من الساحة بوفاته وهو امر لا بد ان يحدث وقد حدث فعلًا فان الامور كان يمكن ان تستمر كما كانت على عهده لو تولى القيادة من يحمل فهمه وتصوره واستعداداته وشعوره العالي بالمسؤولية، ومن كان بحكم ذلك اقرب اليه وأقرب إلى العصمة من أي كائن بشري آخر، لانه من نتاجه واعداده وتربيته، وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أن رفض فكرة امكانية قيام الاسلام بقيادة الحياة وحل كافة مشكلاتها على اساسه ووفق قوانينه وجعله يقتصر على مجرد الممارسات الطقوسية التعبدية التي تأخذ الشكل المسيحي للعبادة، تعني الغاء دور الاسلام نهائياً واقرار عدم ضرورة وجوده، كما تفعل بعض الدول المعاصرة التي تعلن ان الدين الرسمي لها هو الاسلام، وتعلن فصله عن السياسة وامور الحكم بقرار واضح وتشريعات معلنة ولا مبطنة كما فعلت الدولة الاموية، فالاسلام دين وجد ليطبق على اساس انسجامه مع الوجود الانساني، ليقود الانسان إلى الخلاص الحقيقي من ربقة التصورات البشرية الارضية البحتة، وليرفع من هذه التصورات، ليجعلها تتفاعل وتنسجم مع تصوره الكامل كما اوضحه القرآن الكريم والسنة المشرفة.

ان علينا ان لا نفكر بعقلية الانسان الذي وجد نفسه يعيش في مجتمع حمل الهوية الظاهرية للاسلام ويتسمى باسمه، لكنه لا يحمل منه إلا هذا الاسم فقط، والذي لم يعرف منذ البداية طعم الفعل الحقيقي أو التطبيق العملي لهذا الاسلام، ولم يسمع عنه انه قد طبق بشكل حقيقي إلا مرة واحدة ومنذ زمن بعيد، وقد وجدنا انفسنا ونحن لا نعرف من الاسلام إلا اسمه ولا نعرف إلا بعض مفاهيمه العامة بشكل

سطحي غائم، وطبيعي ان تضيع المفاهيم الحقيقية في غمرة الصراعات التي شهدها ويشهدها العالم في زمن الرسالة وبعدها وحتى وقتنا الحاضر، وطبيعي ان يتجه تفكير بعضنا تجاه هذا الفهم ان الاسلام، عندما لم يطبق إلا في فترة محدودة وقصيرة جداً، قياساً إلى الفترة الطويلة من عمره، فان معنى ذلك انه يفتقد بعض المقوِّمات أو الحلقات المفقودة؛ واننا لن نستطيع، ونحن اكثر بعداً عن ذلك العصر الاول الذي طبق فيه بشكل تام وباداءٍ عال، ان نجدها ونعيدها إلى السلسلة الكاملة أو العقد الكامل للتشريعات والتصورات الاسلامية.

ان عدم تطبيق الاسلام من قبل من سبقونا يسلب آخر ما يتبقى من ثقة ومقاومة في نفوس الكثيرين منا، ويرون ان السعي بهذا الاتجاه مضيعة للوقت، وضرب من الخيال، ويحسبون ان الخلل في هذا الدين وليس في من سطوا عليه ونصبوا من انفسهم قادة للمسلمين وأئمة لهم.

ولا شك ان ما وقع بعد نصف قرن فقط من حكومة الرسول ﷺ، حينما استبعد الاسلام بشكل عملي عن الحياة العامة، كان يشكل اكبر خيبة امل للجيل الذي نشأ في تلك العقود، اذ عادت معظم القيم والاوضاع والممارسات الجاهلية، ولما تكد تختفي، وعادت طبقات ثرية مترفة إلى الظهور في مركز الصدارة، وتكاد تكون هي نفسها سليلة تلك الطبقات المترفة الجاهلية الاولى قبيل ظهور الاسلام.

لقد وظف الاسلام من قبل معاوية لتعزيز مصالح هذه الطبقة الجديدة التي عادت اكثر ثراءً ونفوذاً وترفاً في عهده والعهود اللاحقة، والتي اصبحت لا تكلف نفسها في اغلب الاحيان حتى الالتزام المظهري بالاسلام، وشجع سلاسل اخرى من الحاكمين على ان تحذو حذو هذه الدولة الاموية فيما بعد لتتفوّق عليها في مجال الانحراف عن الاسلام، بل وتخرج بشكل سافر عن معظم حدوده وقوانينه التي لا يعود الاسلام بعد نبذها واستبعادها اسلاماً حتى بالاسم ايضاً.

وقد رأينا كيف مهد معاوية لهذا الخروج المتعمد، وكيف استدرج الامة حتى قبلت بيزيد خليفة لرسول الله ﷺ عليها.

ان معاوية كان من (الذكاء) وبعد النظر (والدهاء) بحيث ادرك انه كان لا بد ان يبقى في الظاهر محافظاً على الاشكال الظاهرية التي يعرف بها المسلم، وانه استطاع ان يحيط نفسه بهالة مزيفة من القداسة ادعاها بحيث بدا مقبولًا من فئات كبيرة من

المجتمع الاسلامي في عهده، وربما في عهود لاحقة ايضاً، إلا ان يزيد بحماقاته وقصور نظرته وبالارث الضخم الذي ورثه عن والده واصبح كل شيء فيه رهن مشيئته دون ان يكلف نفسه عناء أي شيء، والذي كان فاسقاً متجاهرا بفسقه ودعارته منذ بداية شبابه، لم يكلف نفسه عناء اخفاء كل ذلك، ظانا ان الامور وجدت كذلك، وان الاسلام هو اسلام والده لا اسلام محمد بن عبدالله ﷺ.

فهل كانت مجرد الرغبة بتغيير الحال أو التضحية ببعض المكاسب قادرة لوحدها على ردع هذا (الخليفة) الفاسد ورده عن سلوكه المشين، وتقويم نظام الحكم برمته؟ ومن كان ينبغي ان يضحي اولًا ليردع هذا الشخص المتسلط ودولته؟ اهو شخص بعينه ام الامة كلها؟ لا شك ان الامة كلها مسؤولة عن ذلك، وما لم يرتدع (الخليفة) ويتراجع، ويستجيب للاسلام استجابة تامة، فان مسؤوليات الامة تحتم عليها عدم السماح له بالبقاء في مركز القيادة خليفة لرسول الله ﷺ، ويجب ان يتيح الفرصة امام المؤهلين الحقيقيين لشغل هذا المنصب الحساس.

ولقد انتفضت الامة فعلًا على يزيد ولكن متى؟

فبعد واقعة الطف واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام واصحابه. ادركت واقعها، وادركت انها لا بد ان تقف موقفا حاسماً من الانحراف المتعمد، والّا ضاع كل شيء. لقد جاءت هذه الانتفاضة نتيجة الصحوة الاسلامية الكبرى التي اثارها الإمام الحسين عليه السلام بموقفه الحازم لوقف الانحراف، وهذا امر سنتحدث عنه إن شاء الله بعد ان نستعرض احداث وملابسات تلك الثورة الكبيرة التي لم يدرك ابعادها واسبابها ونتائجها الباهرة الكثيرون لحد الآن.

وسوف نجد ان مواقف الائمة (علي والحسن والحسين) كانت مواقف واحدة، استهدفت وقف الانحراف بالطريقة المناسبة التي رآها كل إمام، وانها لم تكن مواقف متناقضة كما حسبها البعض ممن لم يكلفوا انفسهم عناء دراستها واستقصاء نتائجها.

لقد كان موقف الامامين علي والحسن عليه السلام خلفية اصيلة لموقف الإمام الحسين عليه السلام، الذي كان مكملًا لهما، ولانه كان الموقف الوحيد المناسب لوقف الانحراف الذي امتد واستطال بشكل معلن مكشوف، اذ لم يحاول يزيد، رأس الدولة الاسلامية التستر أو التخفي على ممارساته اللا أخلاقية الفاضحة، وكان الامر نفسه مع عماله وحاشيته بعد ذلك، الذين اثر سلوكهم في المجتمعات التي حكموها، فقد

(غلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي ايامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي واظهر الناس شرب الشراب)[١].

مع ان التمهيد لظهور حالات التسيب والابتعاد عن الاسلام في المدينة قد بدأ في عهد معاوية، بشكل اثار بعض الصحابة فدعوه للقضاء على تلك الظواهر.

قصة طريفة

وتروى قصة طريفة عن عبد الرحمن بن سيحان الشاعر، وقد اخذه العسس وهو ثمل فأمر به الوليد بن عتبة والي معاوية على المدينة (فضرب ثمانين سوطاً، فارتحل عبد الرحمن إلى معاوية يشكو له فعل الوليد، لأن حلفه كان مع حرب، وكان الذي اسلمه للعسس مروان بن الحكم، فغضب معاوية وكتب إلى الوليد (.. فالعجب لضربك ابن سيحان فيما تشرب منه، ما زدت على ان عرفت أهل المدينة ما كنت تشربه مما حرم عليك. فاذا جاءك كتابي فأبطل الحد عن ابن سيحان وطف به في حلق المسجد واخبرهم ان صاحب شرطتك تعدى عليه وظلمه، وان أمير المؤمنين قد ابطل ذلك عنه. اليس اين سيحان الذي يقول:

واني امرؤ انمى إلى افضل الورى ... عديداً اذا ارفضت عصا المتحلف

الى نفر من عبد شمس كأنهم ... هضاب اجأ اركانها لم تقصف

ميامين يرضون الكفاية ان كفوا ... ويكفون ما ولوا بغير تكلف

غطارفة ساسوا البلاد فاحسنوا ... سياستهاحتى اقرت لمردف

فمن يك منهم موسراً يفشي فضله ... ومن يك منهم معسراً يتعفف

سموا فعلوا فوق البرية كلها ... ببنيان عال من منيف ومشرف)[٢]

فالتحالفات كانت موجودة اذا، وحلف ابن سيحان كان مع حرب، ومعاوية على الاغلب علم من أمر واليه ما علمه الناس، وربما تشبه بمعاوية نفسه، وكانت السهولة التي اراد بها معاوية ابطال الحد عن ابن سيحان تؤشر للميوعة وعدم الجدية في تطبيق امور الشريعة، والوليد نفسه استمر والياً ليزيد، غير ان دأب معاوية كان

(١) مروج الذهب ٣/ ٨٢.

(٢) الأغاني ٢/ ٨٣.

التستر اما يزيد فلم يكلف نفسه عناء ذلك في ظل السلطة المطلقة التي ورثها دون عناء أو معارضة تذكر.

الأسلوب الأموي في العطاء والبذل

اما فيما يتعلق باسلوب الاغراءات المادية فقد كان يزيد يتبع نفس اسلوب معاوية في العطاء والبذل وربما في الحيلة والخديعة، وقد رأينا كيف ان القصة المخترعة عن طلبه من ابيه ان يوليه امور المسلمين ولو لثلاثة ايام، وكيف انه قد طلب منه ان يزيد في عطاء أهل الشام وبعض القبائل الاخرى الموالية.

لقد كان اول شيء فعله عند توليه (الخلافة)، وحالما ارتفع عن مجلسه انه امر لكل واحد ممن حضر المجلس.. (بمال على مقداره في نفسه ومحله في قومه، وزاد في عطائهم ورفع مراتبهم)[1].

كانت الاموال والعطاء الكيفي، هي الوسيلة المفضَّلة التي لجأ اليها الامويون لكسب الناس واسكاتهم، وضمان ولائهم وخضوعهم للعرش الاموي.

معاوية المتستر ويزيد المتهتك

ثغرة في بنية المجتمع الاسلامي

لقد كان تمادي يزيد في اظهار سلوكه الفاضح امام الامة، وعدم التزامه ولو بالحدود الدنيا من الانضباط والجدية، مثار قلق لمعاوية منذ البداية وقبل ان يرشحه (اميراً المؤمنين)؛ وقد نصحه في غمرة استعدادته لهذا الامر، ان يظهر للناس صفحة مغايرة لتلك التي عرفوها عنه، وأوصاه بالالتزام الظاهري ببعض الفروض العبادية مثل الصلاة، ليتسنى له كسب ود الناس واحترامهم متى ما لمسوا فيه هذا الاستعداد للتقرُّب من هذا الدين الذي احبوه وتمسكوا به رغم المحاولات الدؤوبة لابعادهم عنه، والذي يبدو ان يزيد قد ابتعد عنه وقلاه، وربما لم يتعرف عليه نهائياً. (.. واحضر الصلاة، فانك اذا فعلت ما اوصيك به، عرف الناس لك حقك وعظمت مملكتك وعظمت في اعين الناس)[2].

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٨١.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٢٣٣.

وكان يدرك ان لا طاقة ليزيد بذلك، وانه لن يستطيع التقرب من الامة عن هذا السبيل، فاوصاه ان لا يتظاهر بسلوكه الفاضح امامها على الاقل، ويتكتم جهد امكانه، لأنَّ من شأن ذلك ان يؤدي في النهاية إلى اثارة المشاكل بوجه الخليفة المرتقب الصغير السن والقليل الخبرة، والذي لا يملك من (الدهاء) ما يملكه والده، وان طيشه وغروره ونزقه، اذا ما اضيف إلى الشباب والبطالة والدعة، قد يجر عليه المصائب بعد ذلك ويوقعه في مآزق وأزمات، وقد ترفق في نصيحته، اذ انه ربما علم انه لا يستجيب له لو بالغ في النصيحة أو استعمل الشدة، وقد يرفض حتى (الخلافة) في سبيل ملذاته ومسرَّاته، وفي هذا ما فيه من خيبة امل كبيرة لمعاوية تقضي على كل احلامه وطموحاته لبسط سيادة ذويه على الامة في مملكة وراثية تمتد لآجال وآجال.

(. . . فأحب ان يعظه برفق، فقال له:

يا بني ما اقدرك على ان تصل إلى حاجتك من غير تهتك يذهب بمروءتك وقدرك ويشمت بك عدوك ويسيء بك صديقك)[1].

انه لا يمنعه من ممارساته الشاذة البعيدة عن الاسلام، ولم ينكر عليه فعله، إلا لأن ذلك قد افتضح وعلمت به الامة، واصبح يشكل مؤاخذة كبيرة قد تجر عليه المشاكل وتكون احد اسباب اسقاطه في النهاية مما يجعل عدوه يشمت به، على حد تعبيره، وما نظن انه فكر، عندما نطق هذه العبارة، إلا بذلك (العدو التقليدي) المتمثل بعلي وآله عليهم السلام، فهؤلاء هم (المتصدون) المحتملون لكل انحراف، حتى ولو كان قد وقع من رأس السلطة الحاكمة.

إخضاع الأمة للرغبة الأموية في استبعاد الاسلام عن الحياة

لقد أريد اخضاع الامة لكي تستجيب للانحراف وتنسجم معه ومع رغبة الحاكم المنحرف، وعندما تكون مبررات الانحراف مغلفة (بشرعية) مزيفة مصطنعة موضوعة من قبل الحاكم واعوانه المأجورين المدعين صحبة الرسول ﷺ ورواية أحاديثه الصحيحة، وعندما تكون وسائله اضافة لهؤلاء الاعوان ثروة الامة كلها وقد وضعت بيده يتصرف بها كيف يشاء، وعندما يكون سيفه معلقاً فوق رؤوسهم، وعندما يمتد زمن الانحراف ويستطيل، يبدو في النهاية وكأنه هو الحالة الطبيعية التي ينبغي ان

(١) نفس المصدر ٨/ ٣١٨.

تسود، وكأن ما شهدته الامة في زمن الرسول ﷺ كان استثناء لن يتاح تكراره أو تكرار حتى مشهد واحد منه، فان الامة في النهاية تخضع وتستجيب لرغبات الحاكم، خصوصاً وانها لم تتخل نهائياً عما الفته في الجاهلية، وانها لم تكن بعيدة العهد عن تلك القيم الجاهلية الاولى.

ولا يعني ذلك ان الامة قد تخلت عن الاسلام نهائيا، وانه لم يعد بين افرادها من لم يعد يهتم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر كما اراد رسول الله ﷺ، غير ان الاصوات خفتت، وانكار المنكر بعد ان كان يتم بالسيف والقول الصريح، أصبح مجرد خواطر وامنيات قد تتوارد في الاذهان والقلوب، قد تقض بعض المضاجع وقد تثير دوافع الشعور بالذنب عند البعض، إلا ان القول لم يرتفع عن مستوى الهمس، ولم يبلغ حد امتشاق الحسام بوجه الظالم.

هل انتهى الاسلام في عهد بني أمية؟ ضجة مفتعلة

لقد اثار بعض الكتاب ضجة حول ادعاءات مزعومة تقول ان الاسلام قد انتهى في عهد بني امية، وان على هؤلاء الذين يقولون ذلك أن يطمئنوا، ولا تهزهم الزوبعة الاموية التي هبت على العالم الاسلامي.

(ينبغي ان نلغي ذلك الايحاء الخبيث بان الاسلام قد انتهى بعد الخلافة الراشدة. ويكون ذلك بعرض الواقع الاسلامي بامانة كاملة وبدقة، كذلك بانحرافاته واستقامته معاً في وقت واحد، وسيتبين لنا بالحساب، حساب مجموع الانحرافات ومجموع الاستقامات، ان الحصيلة المتبقية ضخمة جداً رغم وجود الانحراف ويكون هذا بالتالي فرصة سانحة لتقدير عظمة هذا الدين وضخامته واصالة جذوره في التربة وتعمقها بحيث يجتث منها ما اجتثته الدولة الاموية ثم تبقى منه هذه الحصيلة الضخمة، وتبقى تلك الحيوية التي تسعى لنشر الدين في الأرض بكل اصرار، والتدفق والحماس التي قام بها المسلمون في العهد الاموي بالذات)[1].

ان الايحاء بانتهاء الاسلام خبيث حقاً ومقصود، غير ان التساؤل يبقى هنا: ألم يكن الامويون يسعون لانهاء الاسلام فعلًا، والاحتفاظ بقشرته الخارجية ان صح التعبير لامكانية استثمارها لاضفاء الشرعية على (حكمهم الاسلامي)؟ اذ لو زالت هذه

(١) كيف نكتب التاريخ ١٢٣.

القشرة نهائياً، فتحت أي مبرر كان يمكن لهم ان يبسطوا سلطانهم ونفوذهم المطلق على الامة؟ واية كفاءات استثنائية تمتعوا بها اتاحت لهم السيطرة عليها، ان لم يكن عن هذا السبيل الممهد والمقبول والمألوف وهي ادعاء خلافة رسول الله ﷺ ليتسموا بها ظاهرياً ويحولوها إلى ملك استبدادي مطلق في الواقع؟

هل عاد احد يسمع عند مبايعة معاوية أو يزيد أو السلالة الاموية المتعاقبة على الحكم، تلك النغمة القديمة التي طلبت من أمير المؤمنين عليه السلام نفسه العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة الشيخين مع انه كان اشد العارفين بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ ومن اشد الملتزمين بهما، أم ان هذه الشروط قد اختفت، ولم توضع إلا امام أمير المؤمنين عليه السلام فقط لانها ارادت اعاقة استخلافه وتبوئه مركز القيادة لهذه الامة؟ أكان وضعها امامه لكي يلتزم بها لانه لم يكن ملتزماً بالاسلام ولا يعرف حدوده؟ ام انها كما قلنا للأخذ على يده ومنعه من اداء دوره في ظل ظروف طبيعية صحيحة؟

لماذا لم يكرر الامر مع معاوية أو يزيد أو غيرهما؟

ان الاسلام لم ينته، وهو موجود، فعوامل القوة فيه تشع دائماً وتتغلب على كل محاولات الاعداء لطمسه وايقاف مسيرته، إلا اننا نتحدث عن الصورة المشوهة له في العهد الاموي.

دعونا لا نكرر تلك المغالطات التي طلع بها علينا وعاظ السلاطين (وفقهاء الدولة وعلماؤها) المتكسبين (بفقههم وعلمهم) ونروح في جدل بيزنطي حول امكانية عزل الخليفة الفاسق من عدمه، وحول امكانية استخلاف المفضول رغم وجود الافضل؛ ودعونا نعيش مع المجتمع الاسلامي الاول في عهد رسول الله ﷺ، ونتساءل بجدية: هل قدر لهذا الدين ان يبدو بالصورة التي بدا عليها بعد نصف قرن فقط، أو اقل من ذلك، بعد وفاة رسول الله ﷺ؟ وهل كان مقدّراً له أن يسير هذه المسيرة التنازلية؟ ترى كيف سيبلغ الحال بعد عشرة قرون اذا ما سار وفق ذلك العد التنازلي المشؤوم؟ لا بد انه سيطمر حينذاك ويندثر استناداً لما شهده خلال اقل من نصف قرن.

لماذا نسكت على هذا الخرق الفاضح والتعدي المقصود على الاسلام وعلى امة الاسلام، ونسميه مجرد انحراف، ونحمد الله على انه قد بقيت لنا مجموعة من الاستقامات كافية لتشييد بنائنا الاسلامي من جديد؟

ان الاسلام قائم فعلًا وحي فعلًا، كما ان طبيعة التصور الاسلامي للفرد المسلم لا يتيح له ان يفكر بعدم قدرة الاسلام على قيادة الحياة وفق تصوراته وقيمه ومبادئه كلها، والا يكون بذلك قد خرج عنه، ما دام لم يعتقد بصلاحيته لذلك، اذ ان الايمان مسألة متكاملة في ذهن المؤمن، لا يمكن التفريط باي جانب منها، غير اننا في مجال تشخيص عللنا واوضاعنا، وما شاب تاريخنا من حوادث جسام ادت إلى ان تتخذ حياتنا مسيرتها الحالية التي تتخدها الآن، فهل نرى ان علينا السكوت عن الأخطاء الكبيرة، بل الجرائم والخروج المتعمد على الاسلام، ونروح نبررها بنفس «عقلية فقهاء الدولة الذين لا يكفون عن الجدل والنقاش ما دامت الدولة الاموية المكرورة المعادة تتكفل أرزاقهم ومعايشهم، ونقول: عفى الله عما سلف وانه غفور رحيم، وان ما حدث كان نتيجة اجتهاد تأول فيه معاوية واخطأ، وتأول فيه يزيد فاخطأ، وتأول غيرهما فأخطأوا، ولا ندري على أي اساس تكرر ذلك التأويل الخاطىء عشرات المرات، وبأمور خطيرة تهم الامة بأكملها،؟ هل تحملا هما نتائج (اخطائهما وانحرافاتهما) ام تحملتها مليارات الناس منذ ذلك الحين والى يومنا هذا، وانعكس تأثيرها على الاسلام انتكاسة كبيرة شاملة منعت نهوضه وتقدمه وانتشاره كما ينبغي ان يكون..؟

وهل السكوت عن اخطاء معاوية ويزيد وغيرهما سيحسم المسألة ويوقف الانحراف، ولن يظهر ثانية فراعنة وطواغيت جدد امثالهما يعبثون بالاسلام ويسخرونه لاغراضهم ومطامعهم بنفس الحجج التي لجأ اليها أولئك وبنفس الاساليب التي اتبعوها؟

ان تشخيص المرض ولو بعد وقت متأخر قد يعمل على ايقاف سريانه وانتشاره، وقد يمنع تكرار حدوثه في مكان آخر، وهذا ما ينبغي ان نفعله، وان لا نخجل من ذلك بحجة اننا يجب ان لا نكشف عيوبنا واخطاءنا امام الآخرين الغرباء من أبناء الديانات الاخرى واعدائنا الملحدين الضالين، ومن شأن عرض هذه الاخطاء ان نتيح الفرصة لهم جميعاً لتضخيمها وعرضها على انها عيوب في ديننا الاسلامي، باعتبار ان اولئك كانوا قادة المسلمين لفترة لا يستهان بها من الزمن، وقد قبلتهم الامة و(ارتضتهم) قادة لها، كما يزعم العديدون منا نحن.

ان الامر غير ذلك بالتأكيد، وان علينا ان لا نتهيب من الظهور بمظهرنا الحقيقي الواضح ونزيل الالتباس عن كل وقائع تاريخنا وناقشها بوضوح وعدالة، لان من شأن

ذلك ان ينبهنا إلى ضرورة التصدي، بل وكيفية التصدي ايضاً لكل انحراف محتمل، والوقوف بوجهه، ومنعه من التكرار، لكي لايكون حالة سائدة مقبولة، كما كان الحال في العهد الاموي.

الحكم الأموي خرج على نظام الحكم في الاسلام

لقد وصل الحكم الأموي في نهاية عهد معاوية وبداية عهد يزيد إلى مرحلة استطاع فيها العمل بمرونة وسهولة كبيرتين لتجريد وسلب المجتمع الاسلامي من الكثير من مقوماته واسباب تماسكه ووجوده كمجتمع اسلامي تقوم اواصره على الاسلام بكل ما فيه من شمولية وتكامل، فلم يكن هذا الحكم مجرد حكم منحرف عن الإسلام، وانما كان يمثل وضعاً جديداً قائماً ضد الإسلام، مع انه استعمل بعض شعاراته وردد بعض كلماته، لانه كان بحاجة لتبرير وجوده وشرعيته بالاسلام، ومن هنا، كان وجود هذا الحكم المناوىء للاسلام، والذي يدعي تمثيله والحكم باسمه اكبر طعنة غادرة توجه لهذا الدين الذي اوضح مفهوم خلافة الانسان على الارض بشكل واضح، واراد للحياة ان تسير وفق هذا المفهوم، لتكون هذه الخلافة بحق خلافة الله، ولا تكون مجرد هوى يخضع للنزعات البشرية والعبث الآدمي.

ونعيد هنا ما سبق ان اكدنا عليه، وهو اننا نتكلم عن دولة اسلامية، من المفروض ان تستمد كل قيمها وتصوراتها واساليبها في التعامل والحكم من الله وحده، ما دامت قد بررت بذلك وجودها امام الامة، وان أي خروج عنه، يعني الغاء المبرر لوجودها كدولة قائمة على الاسلام، ويجب استبدالها بدولة اسلامية تحكم باسم الاسلام فعلًا، وتطبق كل تعاليمه واحكامه.

ان علينا ونحن نناقش هذه الموضوعات ان نتذكر اننا نتكلم عن قضية اسلامية بحتة، وبتصور الاسلام وحسب، وبمفاهيمه ولغته ينبغي ان نناقش الامور ونتناول الاحداث، لكي يتسنى لنا على اساسها الفرز بين انماط السلوك والمواقف المتطابقة والنابعة عن الاسلام، وبين تلك التي تتعارض وتتقاطع معه، لنصل بذلك إلى تقويم واقعي وسليم لتلك المواقف وفق الرؤية الاسلامية والمنهج الاسلامي في التقويم والنظر والاستدلال، لا وفق مناهج غريبة عن الاسلام لا تستمد قيمها وتصوراتها منه أو تتقارب معه، لأننا بذلك نقع في وهم كبير حينما نحاول تطبيق المقاييس والتصورات غير الإسلامية على واقع إسلامي، أو واقع كان ينبغي أن يكون إسلامياً لأن مبرر وجوده وكيانه الوحيد هو الاسلام.

الخلافة الاسلامية والخلافة الأموية، عرض ومقارنة

وهنا لا بد لنا من العودة إلى مفهوم الخلافة في الاسلام، خلافة الانسان على الطبيعة، وخلافته على الناس الآخرين، اخوانه في الانسانية، لنرى إلى أي حد بلغت نقاط التطابق والافتراق بين خط (الخلافة الاموية) في عهدي معاوية ويزيد، لاننا نؤرخ لهما، وبين خط الاسلام المرسوم والمحدد بدقة وعناية وحسم من قبل الله جل وعلا.

اننا اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار، كل وجهات النظر الاسلامية حول مفهوم الخلافة، نرى انها تجمع على انها عقد مكتوب موثق، أرساه القرآن الكريم، وأَوضحه الرسول الكريم ﷺ بسنته المطهرة. وما اراده الله لخليفته من صفات، جسَّدها هو أولًا، ثم جسدها من بعده وصيه أمير المؤمنين عليه السلام بقيادته الفعلية للامة خلال عهده القصير.

ومن هنا فان بيعة الامة لاي (خليفة)، حتى ولو لم تنطبق عليها شروط الاستخلاف، كما هو الحال مع معاوية أو يزيد، اشترطت العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومعنى هذا: ان أي خروج على هذا العقد الالهي بالاستخلاف، يجعل هذا العقد مفسوخاً بشكل طبيعي، لأن احد طرفي الاستخلاف وهو الإنسان (الخليفة)، ما دام لم يلتزم بما اراده المستخلف وهو الله سبحانه وتعالى، فانه أخلَّ بالعقد وشروطه وخرج عنه، أي انه غير مؤهل وغير قادر لتطبيقه والسير بموجبه، مهما كانت الاعذار التي يسوقها لهذا الخروج المتعمد عن هذا العقد.

ان تحقيق مشيئة الله وقدرته واحكامه ليست مرهونة بهذا الإنسان القابل للانحراف والخطأ والعجز، وانه لا يمكن تحقيقها إلا عن طريقه هو، فأي اختيار جعل زيداً من الناس يقوم بمهمة الخلافة دون وعي كامل بشروطها والتزاماتها..؟

ولا يصح هنا إِلَّا الاختيار الالهي، فهو وحده الذي اثبت صوابه وصحته، ان الاختيار الالهي للانبياء، وجعلهم يتمتعون بقدر من العصمة والشعور العالي بالمسؤولية، لا بد ان يستمر عن طريق هؤلاء الانبياء لاختيار خلفائهم، ممن يتمتعون بذلك القدر العالي من المسؤولية، مسؤولية الاستخلاف وحمل الامانة الثقيلة، إذ ان عمر الرسالة ينبغي ان لا يكون مرهوناً بعمر الرسول الذي يعيش مدة محدودة على هذه الارض، وانما ينبغي ان يستمر من خلال خلفاء الرسول ومن خلال الائمة

القادرين على ذلك. فالخليفة امام وقائد، يتمتع بقدرة استثنائية على فهم الرسالة واستيعابها، وشرح احكامها ومفرداتها وتنظيم العمل بها وادائها وتطبيقها كما يريد الله سبحانه وتعالى، ويفهم مسؤولياته الجسيمة امام الله وامام الامة ايضاً.

ومن العبث ان نتصور ان دور الإمام القائد المعد من قبل الرسول لا ينبغي بالضرورة ان يمتد إلى ما بعد وفاة الرسول، وان الرسالة قد استكملت جوانبها الادائية لكل المستجدات الحياتية، وان الحياة ستكرر بنفس الاسلوب والنمط اللذين كانا سائدين في عهده، وان أي امرىء (مقبول) و (مرشح) من المسلمين يمكن ان يقوم بنفس المهمة التي قام بها الرسول وبالنسبة للرسالة الاسلامية، باعتبارها خاتمة الرسالات التي لم تنسخها أو تأت بعدها رسالة اخرى إلى ان يرث الله الارض ومن عليها، فان مبدأ استمرار الامامة بعد النبوة، يبدو ضروريا بشكل ملح تقتضيه العناية الالهية التي طلعت على البشرية بهذه الرسالة الكاملة الأخيرة، والتي لا تريد لها حتماً الضياع والاهمال والاندثار، وانما تريد لها ان تظل هي المنهج الوحيد للانسانية كلها في كل العصور.

وبغض النظر عن الملابسات التي رافقت تاريخنا الاسلامي وجعلت منصب الامامة أو الخلافة لا يأخذ دوره الطبيعي المرسوم، كما اراد القرآن الكريم والرسول العظيم ﷺ، فان وصول المسلمين إلى حال قبلوا فيه اشخاصاً امثال معاوية ويزيد واضرابهما، ممثلين لرسول الله ﷺ امر لا بد ان يعد انتكاسة هائلة لهذا الدين ومحاولة لئيمة لمنعه وايقافه من الإنتشار والنمو.

تناقض الطروحات السياسية الاموية مع القرآن

واذا ما رجعنا إلى اقوال فقهاء الدولة المأجورين، الذين اعتمدت اطروحاتهم فيما بعد، كأطروحات لسلف صالح متمكن، واقرب عهداً إلى زمن الرسالة الاول، ورأينا كيف ان بعضها يؤكد على (التمسك) بالبيعة وعدم الخروج عنها ولا يهمُّ كيف تمت هذه البيعة وكيف ان الإمام الفاسق لا يعزل لأي سبب، وان هذه البيعة تتم حتى لو انعقدت بشخصين أو شخص واحد، وان هذا الذي جعل ابن عمر، يخشى الخروج على يزيد بعد ان اعطاه بيعته، وان امامة المفضول جائزة.

وعرضنا هذه الاطروحات على مجمل ما طرحه القرآن الكريم وبين لنا كيف ان خلفاء الله هم الانبياء اولًا، واوضح لنا مجمل الخطوط التي ينبغي علينا ان لا نخرج

عنها، أو ان نأخذ ببعضها ونترك البعض الآخر، واذا ما عرضناها ايضاً على سنة الرسول الكريم ﷺ المجسِّد الاعظم لخلافة الله على الارض، رأينا ان اقوال هؤلاء (الفقهاء) الذين اسندوها إلى احاديث اما موضوعة من قبل محدثي الدولة ووعاظ السلاطين فيها، أو مؤولة أو مبنية على امور واوضاع مستحدثة لم تكن قائمة اصلًا في عهد رسول الله ﷺ، وان اقوالهم بهذا الاتجاه الذي يجيز للامة ان تسير وراء امام فاسق أو جائر أو مفضول، وتجعله قائداً لها ورائدا لمسيرتها، امر تبدو العبثية فيه والرغبة في اللعب بقضايا خطيرة تمس مصير الامة التي تمتد حياتها عبر العصور، ممثلة بالآف الملايين من البشر من حقهم ان يعيشوا وضوح الاسلام ورؤية الاسلام، وحياة الاسلام، لا حياة يجرون فيها خلف طغاة وفراعنة وفسقة جهلة يحيطون انفسهم بمنظرين وفقهاء ومفلسفين، يجوزون لهم ما لم يجيزه الله جل وعلا شأنه.

لقد اطلعنا على احداث تاريخية عديدة، استشار فيها (الخلفاء) فقهاءهم حول بعض الامور التي كان الجميع يعلمون ان الخروج عليها غير جائز، فافتى لهم هؤلاء بتخريجات وتبريرات (شرعية) منمقة، اشاروا فيها إلى جواز الخروج عن بعض الامور بحكم الضرورة أو المصلحة، وان لا مانع من ذلك ان استغفروا ربهم.. أو غير ذلك، وانهم كخلفاء غير محاسبين امام الله نهائياً مع ان اعمالهم قد تسبب اهدار دم العشرات وتشتيت اهليهم والعبث بمقدراتهم.

قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم: (لما ولي يزيد بن عبد الملك قال: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز، فأتي باربعين شيخاً فشهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب)[1].

ان ما يعالجه الفقه الاسلامي من امور الحياة على اساس الشريعة الاسلامية، ليس هو من قبيل الترف الفكري والمسائل الفلسفية والجدلية التي لا تتعلق بصميم حياة الناس، لذلك فان علينا ان نقيس اهمية ما يطرحه كل فقيه بمجمل ما يطرحه من مسائل جدية معاشة تعالج امور الحياة ومستجداتها.

ولذلك فاننا نجد ان التوجه الفقهي الذي يتيح للخليفة ان يفسق وان يجور وان يخرج عن الاسلام خروجاً علنياً سافرا وتبرئته من كل ذنب أو تبعة بعد ذلك، لا يقصد

(١) تاريخ الخلفاء ٢٢٩.

منه إلا اتاحة الفرص لاولئك المتسلطين والذين لا يملكون الحدود الدنيا من المؤهلات للوثوب على الامة وعلى الاسلام، والاستحواذ على اخطر مهمة يأخذها بشر على عاتقه، والرجوع إلى نفس النمط العائلي الوراثي القديم الذي سارت عليه السلالات الفرعونية والقيصرية والكسروية من قبل، وهو ما سعى اليه معاوية حينما حاول التمهيد لقيام حكم وراثي مطلق يبدأ بيزيد اولًا واستمر فعلًا نمط (الخلافة) على هذا الاساس الوراثي الفرعوني المستبد فيما بعد، بفضل فقهاء الدولة ومحدِّثيها المتحلقين حول عروش الخلفاء الفراعنة.

ولم تكن مؤهلات أي (خليفة) ينحدر من احدى هذه السلالات الاموية والعباسية وغيرها تتجاوز كونه ابن خليفة وحسب، اما ما عدا ذلك فقد حدثتنا عنه وقائع التاريخ واحداثه الحزينة الباكية.

تمهيد معاوية لخلافة يزيد، عد تنازلي للسقوط

لقد رأينا كيف ان معاوية مهد لخلافة يزيد بقوله انه لم يكن خيراً ممن جاء قبله وانه افضل ممن سيجيء بعده، وان يزيد نفسه قال انه ليس افضل من معاوية، وانه لا يرقى اليه، كما انه لا يشتغل بطلب علم ولا يعتذر عن جهل... الخ، ان المقصود من ذلك ان يضع الامة امام واقع يجعلها تقبل أي (خليفة) من السلالة الحاكمة مهما كان مستواه، واذا ما مر (خليفة) افضل ممن جاء قبله، فاننا نرى التصفيق والتكبير والتهليل بظهور خليفة (راشد) جديد رغم بعد العهد (بالخلفاء الراشدين) كما حدث مع عمر بن عبد العزيز، فلماذا اخفوا رؤوسهم في الرمال واكتفوا بايجاد المبررات الشرعية لاعمال من سبقوه، وطاروا من الفرح به لا في عهده وانما بعد ذلك، وكأنهم يبرهنون به على كفاءة الدولة الاموية وصلاحها.

لقد مرت علينا القصة التي قال فيها معاوية ليزيد: ما تراك فاعلًا لو وليت واصبحت خليفة؟ قال يزيد بحماسة: كنت اذاً والله اسير بهم بسيرة عمر بن الخطاب. فضحك معاوية وقال له: لقد جهد ابوك ان يعمل بسيرة عثمان فعجز، فكيف تستطيع انت ان تعمل بسيرة عمر..؟

قصص عديدة موضوعة في اغلب الظن تطالعنا من بين الاحداث، تصور لنا ان الامر لا بدَّ ان ينحدر في النهاية، لانه ليس في الامكان التشبه حتى بالخلفاء السابقين، وحتى بعثمان أو معاوية، رغم كل ما فيه مما يعرفه المسلمون وما تعرضه وقائع

التاريخ علينا ومع الاسف، فان حيلة معاوية هذه انطلت حتى على رجال اذكياء باحثين، فرأوا ان كل من عاش في عهد الرسول ﷺ كان يمثل قمة لا يستطيع احد الوصول اليها بعد ذلك، وان اعمالهم العظيمة كانت تطوعية ولم يكونوا ملزمين بها، وهكذا برر لمعاوية ويزيد انحدارهما وسقوطهما...

(ولكنا لا نحاسب احداً بمقتضى ذلك التطوع النبيل، ولا نحاسب بني امية ولا بني العباس ولا آل عثمان ولا غيرهم بتلك القمم الشاهقة التي وصل اليها افراد في المجتمع المسلم في عهد الذروة، كان على رأسهم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم انما نحاسبهم بما فرض الله عليهم فرضاً وجعل النكول عنه ذنباً يساءلون عنه امام الله يوم القيامة، فيغفر سبحانه لمن يشاء ويؤاخذ من يشاء)[١].

اننا على هذا الاساس نتوقع حساباً عادياً لمن أخذ على عاتقه تولي مسؤولية الامة كلها يتساوى مع حساب ابسط انسان عادي، والله غفور رحيم يغفر سبحانه لمن يشاء ويؤاخذ من يشاء، وكأننا نذكر ذلك لتذكيره جل وعلا بما علمنا هو ونطلب منه طي سجل العقوبات بأجمعه.

لقد استطاع معاوية قبيل موته ان يقول ليزيد بسهولة متناهية مطمئناً إلى مستقبله:

(يا بني اني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الاشياء، وذللت لك الاعداء، وأخضعت لك اعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد)[٢].

وفي خطابه الاخير هذا يعلن استسلام الامة كلها ليزيد غير نفر عديدين ذكرهم، ووقوعها فريسة بين يديه له ان يتصرف بها ويلهو كيفما شاء، بعد تلك الجهود المضنية التي بذلها فكأنه رأى ان الامر كله لعبة وسياسة لا شأن للدين أو القيم الالهية به بتاتاً.

النظام الفرعوني الأموي، أصول هرقلية وكسروية

ان الرجوع بنمط الحكم الاسلامي إلى الاساليب الطاغوتية السائدة قبل الاسلام، يشكل اكبر نكسة حلت بالمسلمين، وقد غضوا ابصارهم عنها وتساهلوا بشأنها ولم ترتفع إلا اصوات قليلة اخمدت في النهاية، وابيد اصحابها، وأسكتوا

(١) كيف نكتب التاريخ، محمد قطب ١١٧.
(٢) الطبري ٣/ ٢٦٠.

بأقسى وسائل القمع التي عرفت والتي لا تزال عندما تذكر تشعر المرء ان مرتكبيها لا يمكن بأي حال من الاحوال ان ينتموا إلى الجنس البشري.

ولو ان الصراع كان بين فردين ينتميان إلى عائلة قيصرية أو كسروية، لربما وجدنا بتصور أولئك المتصارعين ما يبرّر قيامهم بذلك، ولو أنَّ حادث يزيد وصعوده (خليفة) تم في ظل امبراطورية لا تعترف بالاسلام، أو تدين به، لربما وجد من يبرر قيام معاوية ويزيد بما قاما به من خروج سافر على نمط الحكم الاسلامي الذي تم الانحراف عنه فعلًا، أما عندما تكون المبررات (اسلامية) فاننا لا نستطيع حل التناقضات التي حملتها تلك المبررات، ولا نستطيع تفسير سبب سكوت المسلمين عن المتناقضات التي أوجدتها الدولة الجديدة، وتلك العمليات التمهيدية الضخمة التي استمرت سنيناً طوالًا، وعمل فيها معاوية (بجدارة) على تغيير طبيعة المسيرة الاسلامية وتشويه التصور الاسلامي وقلبه وجعله تصوراً أموياً مصلحياً تجارياً بحتاً، لا ينظر للأمور إلا من خلال المصلحة الأكيدة للطبقة الحاكمة، والا من خلال السيطرة التامة والاستغلال المباشر لكل فئات الأمة، واستقطاب الأعوان الذين يعملون على تكريس الرؤية الأموية الجديدة والمغايرة تماماً للرؤية الاسلامية الصحيحة.

لقد كان قيصر أو هرقل من (نعاج) السيد المسيح، بالتعبير الكنسي المسيحي، ينحني للصليب، ويتناول الخبز المقدس ويعمد بالماء المقدس، غير أن الكنيسة التي ادعت حق تمثيل المسيح، أعطت حقاً لقيصر في أن يتحكم برقاب الناس، ويكون ملكهم المطلق، على أن يخضع ظاهرياً للطقوس الكنسية، وعلى أن يسمح للكنيسة باقتطاع حصتها من الغنيمة الكبيرة التي يأخذها قيصر من الرعية، وأن تفرض سيطرة ثانوية لها هي، يكون من شأنها أن تعزز سيطرة قيصر نفسه، ما دام قد ضمن لها أن تعيش بجانبه وتسالمه وتدعو إلى مصالحه ولا تتجاوز عليه.

لقد تنازلت الكنيسة أمام قيصر، مبررة تنازلها بنصوص من (الكتب المقدسة) منسوبة إلى السيد المسيح عليه السلام وكنت ترى إلى جانب كل فرعون كاهناً يحرق له البخور وشفتيه على الصليب المقدس، ويلبسه رداء الدين وطيلسانه.

ولكي ينجح فرعون أو قيصر في نزع رداء الدين الحقيقي عن الشعب، فإن عليه أن يرتدي هو رداء ينسبه إلى الدين، ما دام الدين ضرورياً إلى الدرجة الكبيرة التي رآه بها الشعب.

وحتى العهود والالتزامات والقوانين المكتوبة وغير المكتوبة التي فرضها فرعون وكذلك قيصر على شعبيهما، أراد لها أن تكون سنة، لها نفس تأثير السنن والقوانين الإلهية.

كان قانون فرعون هو القانون الأعلى الذي لا ينبغي اختراقه أو تجاوزه، وكان قانون قيصر هو القانون الأعلى، وكذلك قانون كسرى، وكل قانون طاغوتي آخر، وما على الدين إذا ما أراد أن يتعايش معه بسلام إلا أن ينحني أمامه ويستجيب لرغباته، ويكون غطاءً شرعياً يبرر كل تصرفاته وأفعاله وتجاوزاته. لقد تنازل المعبد أمام فرعون، وتنازلت الكنيسة أمام قيصر، ووجدت مبررات التنازل من قبل (ممثلي) الكنيسة والمعبد، وكرس الأمر ليكونا في النهاية الهين يمارسان ما يشاءان من أعمال وتعديات على السلطة الإلهية الحقيقية دون أن يحتاجا لمن يبرر لهما أعمالهما.

الآثار السلبية، لاستبعاد النظام السياسي في الاسلام عن الحكم

إن الاسلام دين لا يوجد له ممثل أمام الناس، إلا أولئك الذين اندمجوا بروحه وقانونه وتصوره، ولم يكونوا بحاجة إلى معبد مقدس يحرقون فيه البخور كذلك الذي أوجدته (الديانات) السابقة، ولم يكن هذا الدين بحاجة إلى طقوس غريبة ولا أنماط من الفلسفات المعقدة والهلوسات والتصورات والسفسطات التي تتقاطع مع واقع الانسان وحياته وتفكيره السليم.

فهو دين يخاطب الفطرة المستقيمة مباشرة دون التواء ودون حاجة إلى أي إيحاءات خارقة أو توجيهات من خارج الكتاب والسنة المطهرة، فهو نسيج وحده، غير متأثر بالأساطير والخرافات أو الاطروحات البشرية المجردة، وقد أراد الله له أن يظل كخاتم للأديان البرنامج الوحيد الذي تسير البشرية على أساسه إلى النهاية، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن شأن دين كهذا، أريد له أن يظل لهذا الأمد الطويل، لتحكمه البشرية في حياتها، أن يمتلك مقومات البقاء، وأن يبدي لمعتنقيه والآخرين، صلاحيته الفعلية للممارسة والتطبيق، وإذا ما بدا أي خلل بأي جانب من جوانبه بفعل متعمد مقصود أو غير مقصود فإن من شأن هذا أن يجر إلى المزيد من الخلل، ومن شأنه أيضاً أن يضعف تأثيره على معتنقيه، خصوصاً إذا ما كان ذلك الفعل تم من قبل أناس أعلنوا انتماءهم له، سواء صحت نيتهم أم كانوا غير صادقين.

إذ كيف نبرر تصرفنا بحكم إلهي قطعي، واستبداله بأحكام مغايرة من عندنا بحجة (الاجتهاد) و(النظر) للمسلمين (ووحدتهم) و(مصلحتهم)، وما إلى ذلك من تبريرات، لنكون بذلك قد هدمنا أركاناً مهمة كان لا بد أن تقوم عليها كل جوانبه الاخرى.

ولم نأخذ على عاتقنا هنا مناقشة كل ما حدث من قبل معاوية، إلا بالقدر الذي يفيدنا في هذه الدراسة، غير أننا نتساءل مرة أخرى: كيف حدث أن قبل المسلمون بيزيد خليفة وممثلًا لرسول الله ﷺ وقبلها كيف حصل أن قبلوا بمعاوية خليفة. إن المسألة ليست مسألة صراع شخصين متكافئين على الحكم، إذ لو كان كذلك لما تصارعا في دولة الإسلام ما داما يمتلكان نفس التصورات ونفس الوعي والفهم والحرص على أمور الأمة ومقدراتها، ولو أنه تم في دولة قيصرية أو كسروية أو فرعونية، لرأينا مبرراً لذلك، لكنه عندما يتم في دولة الاسلام الناشئة التي أريد لها أن تمتد في كل العالم وتحكم إلى الأبد وفق تصور رسول الله ﷺ، في تصوراته ورؤيته وحياته، ونرى أن ممثله هو من أبعد الناس عنه وعن تصوراته وقيمه وحياته وفهمه، فهذا ما لا يستطاع فهمه.

إن نتيجة هذا الأمر، لا تنسحب على المدى القصير والموقت فقط، وإنما ستظل تلوح أمام المسلمين على امتداد الأزمان دماراً وخراباً وسقوطاً، وهذا ما حدث بالفعل، إذ أصبحنا نعاني ونحن نبعد عن تلك الفترة بحوالي أربعة عشر قرناً من نتائج ذلك الحدث المخزي وكأنه يقع أمامنا الآن.

وإذا ما استبعدنا ما تولد عن ذلك الوضع الشاذ من أحزاب وتيارات ومذاهب وقوى متنافرة، فإن أكبر نكسة يعانيها المسلمون لحد الآن هو استبعاد الاسلام بشكل فعلي عن حياتهم، ولو لم يكن هذا الدين يملك عناصر القوة والديمومة والنفاذ، ولو قد أتيح لمن تصدى له وعاداه بعد أن اخترقه وانتسب إليه أن ينفذ خططه كما أراد، لما عدنا نرى الإسلام، حتى من خلال الشعائر والطقوس التعبدية المظهرية.

ومع ذلك، فإن الاسلام قد استبعد عن ممارسة دوره في هذه الحياة، وقد أدت نتائج الانحراف إلى ضعف التصورات الاسلامية الصحيحة، ونشوء حالات واسعة من اللامبالاة وعدم الاهتمام والتميع بين صفوف المسلمين، مما أتاح للمبادىء الغريبة والأفكار والتيارات الدخيلة أن تنفذ إليهم على مر العصور، وتفعل فعلها فيهم وتشكلهم بأشكالها وتطبعهم بطابعها. لقد كانت تلك نكسة أليمة عانى منها المسلمون

طيلة عهودهم ولا نزال نحن نعيش آثارها ونتائجها، إذ أننا باستبعادنا الأشكال الصحيحة للتصورات والممارسات والتوجهات الاسلامية، واستبدالها بأشكال أخرى أحياناً بفعل فقهاء الدولة ووعاظ السلاطين وسدنة العروش والمعابد الملكية، وعندما رأينا أن هذا الدين لم يعد إلا مجرد تعاليم كتبت على الورق ولم يعد إلا خيالًا غامضاً لاح لنا أو لأجدادنا في زمن مر وانقضى، ثم لم يتكرر ثانية، عدنا نعتقد أن هذا الدين قدر له أن يطبق في عهد الأمين الذي أنزل عليه وهو رسول الله ﷺ، وإنه لم يكن مكرساً ليطبق على مر العصور، وربما كان فيه من (المثالية)، وعدم الواقعية مما جعله لا يستجيب لمتطلبات الحياة وواقعها، وإن علينا نحن أبناء هذه الحياة التي نعيشها فعلًا، أن نجد لنا منهجاً آخر، ينظم لنا حياتنا ويضمن لنا سعادتنا وحريتنا، وعساه أن يكون كيفما كان، في الديمقراطية الغربية : وفي الاشتراكية أو في الوجودية أو غيرها، فنحن لم نجد لهذا الدين دولة وسلطة فعلية تتحكم في الحياة وتقود وتنظم كل برامجها وفعالياتها.

والا فهل نحن مطمئنون حقاً اننا عشنا ونعيش في ظل انظمة اسلامية حقيقية..؟

لقد اعتمدت الاساليب والتصرفات الاموية التي بررت بالضرورة والحاجة والمصلحة والحفاظ على الجماعة ووحدة المسلمين الخ، لا كمبررات أو تصرفات شخصية اعتمدها الحكام الامويون منذ عهد معاوية لتعزيز سلطة العرش لا غير، وانما كسنن اسلامية اخذ بها من جاء بعدهم من العباسيين وغيرهم، وعززوها بمختلف الوسائل والذرائع والاساليب بدعم من مؤسسات اسلامية فقهية وتشريعية متخصصة تدين بالولاء للعروش الحاكمة، فلا ترى أي مبرر أو حجة للخروج عليها أو التصدي لجورها وانحرافها، مهما كان سلوك الحاكم، وحتى اذا كان فاسقاً أو فاسداً مشهوراً بفسقه وفساده، متجاهراً به، غير متحرج منه.

وكانت بعض (الاحاديث) التي نسبت للرسول الكريم ﷺ قد ثبتت في مراجع الدولة وكتبها وادبياتها، ونشرت في مدارسها، وكلها أكدت على عدم جواز نزع البيعة أو الرجوع عنها، وعدم جواز الخروج على الحاكم الفاسق، والا كان مصير من يفعل ذلك، لا مجرد عقاب صارم من هذا الحاكم، وانما جهنم، وبئس المصير.

لقد كان وجود يزيد (خليفة) فرصة ذهبية لمن تسلموا الحكم بعد ذلك، ليقولوا للناس: نحن افضل من يزيد، ومع ذلك فقد كان يزيد (خليفة) مطاعاً في وقت لا يزال

فيه بعض اصحاب رسول الله ﷺ احياء، ولا زال بعض التابعين، بل الالاف منهم يلتفون حوله، ولا يرون في بقائه على العرش من ضرر، وربما لم يتكلم بعضهم إلا بعد ان مات يزيد، فما حجة رفضكم لنا، وقد قبل من كان اسوأ منا (خليفة) على المسلمين؟

وبذلك برر ابن خلدون في مقدمته حكم يزيد وبقاءه (خليفة) وعدم جواز الخروج عليه واعتبر ان الحسين عليه السلام قد اخطأ (بالخروج) على يزيد ورفضه له مع انه لم يخطىء بالحكم الشرعي لانه منوط (بظنه)، وهي مغالطات والاعيب لفظية ملتوية لجأ اليها ابن خلدون واضرابه مبررين وجود حكام آخرين على نمط يزيد (غير انهم لم يقتلوا الحسين عليه السلام نفسه)، يقول ابن خلدون:

(لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره، بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره، فرأى الحسين ان الخروج على يزيد متعين من اجل فسقه لا سيما من له القدرة على ذلك وظنها من نفسه بأهليته وشوكته، فاما الاهلية فكانت كما ظن وزيادة، واما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها لان عصبية مضر كانت في قريش وعصبية عبد مناف انما كانت في بني أمية، واصبحت مضر اطوع لبني امية من سواهم بما كانت لهم من ذلك قبل فقد تبين لك غلط الحسين إلا انه في امر دنيوي لا يضرُّه الغلط فيه، واما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك، ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية اخوه في مسيره إلى الكوفة وعلموا غلطه في ذلك، ولم يرجع عما هو بسبيله لما اراده الله واما غير الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم، فرأوا ان الخروج على يزيد وان كان فاسقاً لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج والدماء فأقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولم ينكروا عليه ولا اثموه لانه مجتهد وهو اسوة المجتهدين، ولا يذهب بك الغلط ان تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره، فانهم اكثرالصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه، الخ)[1].

ولنا تعليقات على ما اورده ابن خلدون بخصوص ثورة الحسين عليه السلام عند استعراض الثورة ونتائجها غير ان ما نود ذكره هنا: ان الامة بررت قعودها عن كل

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢٣٩/ ٢٤٠.

حاكم منحرف، بما برر به أولئك (الصحابة) قعودهم عن حرب يزيد وعدم التحاقهم بركب الثورة، وربما تبرر بذلك إلى اليوم كل قعود لها وتكاسل عن مواجهة الانحراف ومنعه.

الأمويون الجدد والتناقض المفضوح

وربما يعجب الآن كثيرون، ممن يرون انفسهم افضل من يزيد، وربما يكونون افضل منه فعلًا، عندما يواجهون بتحرك اسلامي يريد اقصاءهم واستبدال انظمة حكمهم والاوضاع التي يقفون فيها في القمة، حكاما وملوكا، باوضاع اسلامية تستهدف النهج الاسلامي الاول، وحتى هؤلاء الاسلاميون انفسهم، قد لا يرى بعضهم عند استعراض مسألة الحكم الاموي مسألة الحكم الاسلامي برمته إلا من خلال الغبش والغبار الذي تطاير نتيجة السعي المحموم لتشويه الاسلام وابعاده عن الحياة، وتشويه واقعيته وجديته وقدرته على قيادة هذه الحياة بما يضمن للجميع حريتهم وأمنهم وسعادتهم، وقد لا يرى بعضهم في سلوك معظم (الخلفاء) الامويين ما يبرر الخروج عليهم، مع انهم يرفضون الآن نماذج مشابهة لهم.

مناقشة أفكار: محمد قطب

وهكذا.. (كانت الانحرافات الاموية اصولًا مرعية لمن جاء بعدهم من الحكام، والخطورة فيها انها اصبحت سوابق تؤخذ كأنها اصول مرعية في سياسة الحكم؛ يجيء كل حاكم - الا من رحم الله - فيسير على نهج سلفه، مبرراً لنفسه الامر بانه هكذا فعل اسلافه حين آلت اليهم السلطة فلا حرج عليه ان يفعل كما فعلوا، بل لا حرج عليه ان يزيد؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «ومن سن في الاسلام سنة سيئة فعمل بها بعده، كتب عليه وزر من عمل بها ولا ينقص من اوزارهم شيئاً»)[1].

وهذا كلام واقعي جميل نسمعه من كاتب اسلامي مرموق، يتداول كتبه آلاف القراء كل عام، غير اننا نتساءل عن سبب هذه الرخاوة التي تبدو في ثنايا العديد من سطور كتابه عن كتابة التاريخ الاسلامي، فهو يضع يده على اكبر الانحرافات التي وقعت في تاريخ الاسلام، لكنه يعود فيطلب من قرائه التساهل وعدم شجبها ورفضها

(١) كيف نكتب التاريخ ١٢٤-١١٠-١١٣.

ومناقشتها بشكل يظهر حقيقتها وحقيقة القائمين بها، وكأن الامر الذي يبحث هنا هو مسألة فلسفية أو ادبية بحتة تتعلق بترف فكري لا يمس امور المسلمين أو مصائرهم، ولم تنسحب نتائجها على حياتهم طيلة ما يقارب الف واربعمائة عام.

فلنستمع إليه وهو يتحدث عن بني امية:

(... فسنجد في سياسة الحكم عن الصورة المثالية، ابرز معالمها تحول الحكم من الخلافة إلى الملك العضوض.

والى هنا يكون قد وقع من الحكم الاموي انحرافات في عالم السياسة اياً كانت الاساليب التي استندوا اليها لتبريرها. الاول هو تغيير النموذج الاعلى لنظام الحكم الاسلامي الذي تتمثل فيه روح الاسلام كاملة، وهو الخلافة، واستبدال الملك العضوض به. والثاني محاولة اسكات الناس بالقوة عن مراقبة اعمال الحاكم، وامره بالمعروف ونهيه عن المنكر وصرفهم بالعنف عن اداء واجبهم الإسلامي في هذا الشأن.

وتبدو جسامة الآثار التي ترتبت على هذين الانحرافين، حين نرى العهود التالية تأخذهما كأنهما مبادىء مقررة، مما ادى إلى استقرار لون من الإستبداد السياسي في حياة المسلمين كأنه اصل من اصول الحياة الاسلامية.

وقد كان لهذا الامر آثار خطيرة في حياة الامة لم تظهر بوضوح في العهد الاموي، فقد كانت اوضح في العهد العباسي ثم العهد العثماني.

وثمة انحراف ثالث وقع فيه الامويون ثم ظلت رقعته تتزايد في العهود التالية: ذلك هو البحبحة في بيت المال، اما الامويون فقد اباحوا لانفسهم الانفاق من بيت مال المسلمين لشراء الانصار، وتثبيت الملك متأولين ذلك بانه من باب تأليف القلوب، وقد جعل الله الانفاق من الزكاة لتأليف القلوب للاسلام لا لتأييد البيت الحاكم أو التمكين له...)[1].

(... ولكننا لا نستطيع تبرير كل ما كان يفعله معاوية دون ان نجني على قيم اسلامية اصيلة..

..، ونؤاخذهم بضرب كل المعارضين بالعنف، بينما كان بعض المعارضين

---

(١) المصدر السابق.

يحتجون على مخالفات بني امية، ولا يسعون إلى الحكم لمجرد ازاحة بني امية عن السلطان، وكان العلاج الصحيح للامر هو عدول بني امية عن اخطائهم لا ضرب المعارضين الذين احتجوا على تلك الاخطاء.

وينبغي إلا نهون من الانحرافات التي وقعت من الامويين، انها انحرافات، وينبغي ان يظل في حسّنا انها انحرافات، وكل تهوين من امرها، هو تهوين من القيم الاسلامية ذاتها وضرورة بقائها في التطبيق الواقعي ناصعة مضيئة تشهد لهذا الدين، (. . . إن شيئاً ما قد حدث في ذلك المجتمع، بتأثير الفتنة اولّا، ثم بتأثير الصنف الذي مارسه الامويون في ضرب المعارضين، ذلك هو التضاؤل التدريجي في اشتغال الامة بالرقابة، على اعمال الحاكم وتقديم النصيحة له والأَخذ على يده حين يخطىء كما أَمر رسول الله ﷺ والانصراف التدريجي إلى الشؤون الخاصة سواء أكانت اداء للشعائر التعبدية أو ضرباً في مناكب الارض وراء الرزق، وهو بدء منزلق خطير سترى آثاره واضحة فيما تلا ذلك من العهود.

. . . انما المأخوذ عليهم انهم جعلوا الاستثناء كأنه الاصل، فنسي الناس الاصل، واعتبروه ليس امراً اساسياً في سياسة الحكم في الاسلام. .)[1].

ماذا يمكن ان نفهم من كاتبنا الاسلامي الكبير الذي يقرأ له العديدون ويستنيرون بأَفكاره الاسلامية، والذي يقرن اسمه اذا ما ذكر باسم الشهيد السعيد (سيد قطب).

إِنه يشير إلى انحراف اموي خطير، اصبح سابقة لكل الانحرافات التي حدثت بعده في سياسة الحكم عندما حولوه من خلافة إلى ملك، واسكات الناس بالقمع عن مراقبة اعمالهم، سبب انحرافهم ترسيخ الاستبداد، لبحبحة في بيت المال واباحة الانفاق منه لشراء الناس، وهي انحرافات يدعونا الكاتب إلى ان لا نهون من شأنها، اذ ان ذلك يهون من شأن القيم الاسلامية ذاتها، وجعلوا الاستثناء كالاصل، فنسي الناس الاصل الخ

ان اموراً كهذه تهول الانسان المسلم العادي، فكيف اذا كان هذا المسلم واعياً وعلى مستوى رسالته العظيمة؟ اذ ما يرى امامه؟ انه بابسط عبارة: يرى خروجاً متعمداً على الاسلام، ويرى حرباً تشن عليه لحرفه واخراجه عن الخط الالهي الذي اريد له

---

(١) المصدرالسابق ص ١١٥-١٢٥.

ان يقوم عليه، فليست المسألة هنا مسألة سياحة عقلية مجردة لا اثر لها في حياة الناس ومصائرهم، ومستقبلهم، وليست خلافاً في الرأي بين شخصين على مسألة في علم النجوم أو الفلك.

انها مسألة مصيرية اثرت نتائجها على آلاف الملايين من البشر على امتداد تاريخ الاسلام، ويعلم الله أي عدد آخر منهم ستمتد عليه هذه النتائج بعد يومنا هذا.

اننا عندما نتناول هذا الخروج المتعمد من خلال تصور وفهم اسلاميين، لا نجد أَمامنا أي حجة نبرر بها ما قام به معاوية ويزيد، ولا نفهم من ذلك إلا انه خروج متعمد وسافر وصريح على الاسلام، وان من شأن من يقوم بذلك ان يكون غريباً عن الاسلام وان ادعى انتماءه اليه بالاسم.

والا فهل تمَّ الخروج عن الاحكام والتشريعات والمبادىء الاسلامية في مجال واحد فقط، أو في مجالين ليأتي من يقول: ان معاوية تأول فأخطأ، أم ان هذا الخروج كان عن كل احكام الاسلام بشكل صريح، هل كان ذلك قضاءً وقدراً الهيين، كما حاولت طائفة عابثة ادعاء ذلك فيما بعد، ونسبت كل ما يقوم به أي انسان إلى الله، وان الانسان مسير لا مخير، واستدلت بظاهر بعض الآيات القرآنية التي فهمتها بصورة خاطئة أو اريد لها ان تفهمها بصورة خاطئة.

اما اذا ما انخدع بعضنا فرأوا ان (الخلفاء الامويين) ما زالوا يقومون بالفتوحات ويقيمون الشعائر الظاهرية للدين ويتظاهرون بالصلاح ويرددون بعض الشعارات الاسلامية العامة ويعترفون لرسول الله ﷺ بفضله ونبوته، وما عدا ذلك، فلم يكن سوى انحراف يجب ان لا ينسى معه فضل هؤلاء على الاسلام والمسلمين، كما اوحي بذلك لكاتبنا الكبير الاستاذ محمد قطب، فاننا في هذه الحال ينبغي ان نعلم ان المظاهر الشعائرية الطقوسية الظاهرية، ما دامت لم تمس العرش، وما دامت تقرب الناس منهم، ولم تكن عاملًا يتعارض مع مصالحهم، بل انها قد تزين عرشهم بثوب قشيب مزين، فان وجودها ضروري لهم، وينبغي ان لا يؤخذ (تمسكهم) الظاهري بها، على انه الشيء الحقيقي الذي انطوت عليه قلوبهم، وهذا ما كشفوه لنا من خلال اقوالهم وممارساتهم ومن خلال ما كشفته الوقائع التاريخية لنا وقد تبين لنا ان التستر بأي مظهر ديني لم يكن امراً جديداً، بل انه احد الاساليب التي لجأ اليها الفراعنة والقياصرة واسرة الطواغيت، وانه امر لا يزال يلجأ اليه اعداء الدين الحقيقيون بل اشدهم عداوة له لاستمالة الناس وخصوصاً البسطاء والسذج منهم.

انَّ اكبر مؤامرة نفذت ضد الاسلام لم تكن عفوية وانما كانت امراً تسخر له طاقات كبيرة وخبرات للشر هائلة، تفاعلت مع بعضها ومع تلك الخبرات القديمة التي تعاملت بالملك وسياسته كما علمنا من فصول هذا الكتاب، ورأينا فيها معاوية مكرساً حيزاً كبيراً من برنامجه اليومي للالتقاء بالقصاصين ورواة السير وقراءة سير الملوك الغابرين وسياساتهم ودهائهم وحيلتهم.

ولم يكن صعباً استدراج اناس كبار مثل كاتبنا، ليهونوا بعد ذلك من شأن ذلك الانحراف الاموي الخطير الذي جر المسلمين جميعاً بعد ذلك إلى منزلقه المميت، كما استدرج من قبل اناس آخرين عدوا من الاذكياء والعباقرة كابن خلدون وغيره.

وهكذا، ففي الوقت الذي نرى فيه وضوح الصورة التي عرضت علينا قبل قليل من هذا الكاتب الاسلامي الكبير واقصد به محمد قطب، وهو من افضل النماذج واكثرها انصافاً، فاننا نراه، عندما يحاول ان يتناول الامر بالنقد الجدي، فان ستارا من الحياء أو الخشية يغلف هذا النقد وربما يعود ذلك إلى الوضع الذي يعيشه زمن كتابة هذا الكتاب، اذ أنه سرعان ما يتراجع بعد التشخيص الدقيق لانحرافات بني امية، ويدعو إلى تبني نظرة نقدية (موضوعية) تبين ما لهم وما عليهم، و كأنه قد بقي شيء لديهم لم يفعلوه، وان ذنوبهم الكبيرة هي مجرد اخطاء بسيطة نشأت عن اجتهادات لا غير، ولم ينتج عنها سوى اضرار بسيطة، لا هذه النكسات الهائلة المتلاحقة التي لا يزال العالم يعاني منها حتى اليوم، والتي جرت اكبر الويلات على البشرية، عندما استبعد الاسلام بشكل فعلي عن الحياة لمقتضيات السياسة والمصلحة، كما برَّر هذا السلوك القاتل.

ولسنا بصدد الحديث عن مجزرتي الطف والحرة هنا، لو اردنا ان نأخذ عهد يزيد مثالاً للانحراف الاموي، وهما عملان مشينان قام بهما يزيد خلال حكمه القصير الذي لم يتجاوز ثلاث سنوات إلا بقليل، فان هذين الحدثين كانا نتيجة محتمة لمعطيات الحكم الاموي الجائر.

لم يكن يزيد قد استلم الحكم بعد، عندما ثار الإمام الحسين عليه السلام ورفض مبايعته، لكنه لم يكن ايضاً بالشخص المغمور الذي لا يعرف عنه المسلمون شيئاً، فهذا (الخليفة) المرتقب ابن (الخليفة) المتربع على العرش والمسيطر على امور الدولة ومقدرات الامة، والذي اعده ابوه لتولي هذا المنصب قبل عشر سنوات من وفاته (كما

تبين) لنا كان امتدادا لابيه، الذي كان رغم انحرافه الواضح اكثر تحفظاً في سلوكه امام جماهير المسلمين.

وكان يزيد لا يستطيع، بل انه لم يكلف نفسه عناء اخفاء تصرفاته المنحرفة إلى ابعد الحدود امامهم، بل كان يستهين بهم وبكل قيم الاسلام ومبادئه، فلم يكن يزيد متمسكاً حتى بأبسط القواعد المظهرية لهذا الدين، والتي حاول والده ان يأخذه بها لتتحسن صورته امام الامة.

لقد كان استلام يزيد الفعلي للحكم ايذاناً بالاعلان الرسمي عن استبعاد الاسلام عن كل دور مرسوم له في هذه الحياة، ورفضه رفضاً نهائياً.

هذا هو واقع الامر، وهذا ما علمه الجميع، وفي مقدمتهم الإمام الحسين عليه السلام، ومع ذلك، عندما تهول بعضهم هذه الحقيقة، وتدعهم يدركون انهم لا بد ان يحكموا على القائمين بالانحراف بالخروج الاكيد عن الدين، يبدأون عند ذاك بايجاد الذرائع التي (يتمكنون) بواسطتها تبرير بعض تصرفات هؤلاء وتفسيرها وايجاد المخارج (الشرعية) لها لاظهارها في النهاية وكأنها (اجتهادات) أو اخطاء بشرية عادية، ان يشأ الله يغفرها لهم وهو الغفور الرحيم.

ويظل امثال هؤلاء المتمادين الاولين امثال يزيد وغيره يجدون دائماً من يختلق لهم الاعذار ويجد لهم الحجج ويدعو لهم ويسأل الله ان يوفقهم وان يجعلهم في النهاية في مستقر رحمته وان يهديهم سواء السبيل، متناسين حكمة الله وعدله وحسابه ووعده ووعيده، وكأن ما يصرح به الله (جل وعلا) بوضوح في كتابه المجيد وعلى لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله مجرد كلام لا يقصد به أي شيء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً،

وهكذا، ورغم هذا الوضوح الذي يبدو لنا من خلال سطور كتاب مؤرخنا الجليل، فانه نراه يتراجع، وكأنه يندم على (اندفاعته) هذه امام الملأ، وكأنه يعتذر لمعاوية ويزيد ومن هم على شاكلتهما، ويطالعنا بالنصوص التالية التي لا نستطيع ان نفهم لها معنى اذا ما وضعناها مع النصوص التي وان سبق ان طالعنا بها، ليقول بعد كل ما قاله لنا من قبل:

(ان التاريخ السياسي للمسلمين كان خطاً اسود؛ وليكن كذلك، ولكنه خط اسود في صفحة يغلب عليها البياض..

ان قوماً تهولهم الزوبعة التي غشيت المجتمع المسلم بالنزاع بين علي ومعاوية، وبمقتل عثمان من قبل، فيحسبون ان الإسلام قد توقف وانتهى عند هذه النقطة، فما بالنا نقف عند الزوبعة ولا نلتفت إلى المد؟؛ انها معجزة هذا الدين ان يستوعب الصدمة المدمرة ثم يقوم معافى يستأنف نشاطه كأن لم يصبه شيء)[1].

(.. لا يوجد نص يحدد شكل الحكم في الدولة الاسلامية، فقد جاء النص عن امرين رئيسيين:

الشورى، والحكم كما انزل الله، ولكن لم يرد نص يحدِّد شكل الحكم، خلافة أم ملك: مدى الحياة ام لمدّة محدودة؟ إلى غير ذلك من التفضيلات الاجرائية التي ترك امرها لاجتهاد الامة المسلمة عند التطبيق.

ولقد (... هزت الفتنة وجدان المسلمين هزاً عنيفاً حتى تمنوا ان ينتهي الصراع على اية صورة، وان يعود المجتمع المسلم إلى الاستقرار، ولو على حساب بعض المثل الاسلامية الرفيعة، وكان هذا من الاسباب التي دعت فريقاً من اجلة الصحابة ان يتحاشوا الدخول في الصراع مؤيدين علياً أو معاوية، خشية ان يزيد تدخلهم من حدة الصراع بدلًا من ان يحسمه.

وحين نعيد كتابة هذه الفترة ينبغي ان نكون على بينة من عدة محاذير، المحذور الاول: ان معظم ما نتداوله في مدارسنا وفي دراساتنا عن هذه الفترة مكتوب بأيد شيعية أو سبئية همها الاول التشنيع على بني امية وتجسيم اخطائها وابرازها واخفاء الحسنات، وتفسيرها تفسيراً ملتوياً يذهب بما فيها من الخير ويعرضها كأنها من السيئات.

وسنجد حين نلتزم بتلك الضوابط الاسلامية جميعاً، اننا نستطيع ان نفسر ونبرر كثيراً من اعمال معاوية التي قام الشيعة والسبئيون بتشويهها لهوى في انفسهم، ولكننا لا نستطيع ان نبرر كل ما يفعله معاوية دون ان نجني على قيم اسلامية اصيلة.

ثم انه يجب علينا ان نتذكر ان ما ينطبق على شخص معاوية وظروفه، لا ينطبق بالضرورة على شخص يزيد وظروفه، ولا ينطبق بالضرورة كذلك على بقية حكام بني

---

(١) المصدر السابق ١٤/ ٥٨.

امية، بحيث تصبح براءة معاوية مما نسب اليه كله أو بعضه شهادة تبرئة لكل حكام بني امية بالتبعية.

ولا نحاسب بني امية ولا بني العباس ولا آل عثمان ولا غيرهم بتلك القمم الشاهقة التي وصل اليها افراد في المبتمع المسلم في عهد الذروة...،

ان الانشغال بالجهاد ظل حياً في النفوس، وان الحكم الاموي حرص على احيائه وتغذيته.

ان خطورة انحرافات السياسة التي وقعت من بني امية والتي اخذت تنعكس رويداً رويداً على المجتمع المسلم في عهدهم لا تكمن في درجة تلك الانحرافات، فلم تكن درجتها خطيرة بالقياس إلى الاحداث التي وقعت في ذلك الحين.

وليس المأخوذ على بني امية انهم استخدموا فقه الضرورة حين دعت اليه الحاجة عقيب الفتنة. ثم جدت انحرافات جديدة لم يكن لها وجود في عهد الامويين، كان من ابرزها الترف الذي اخذ يتفشى قصور الخلفاء ثم الامراء والوزراء)[١].

و (كان الامويون رغم تحويلهم الخلافة إلى ملك يحرصون على ان يختاووا اصلحهم ليتولى الحكم.

تلك هي الانحرافات التي أسسها بنو أمية، ولم تكن في وقتهم بادية الخطر لأن حجمها كان ضئيلًا. وقد كان الأمويون برغم وجود الترف ـ أقل فساداً بالمال من العباسيين، لأنهم كانوا أكثر انشغالًا بتثبيت دولتهم من ناحية، وبالجهاد في سبيل الله من ناحية أخرى)[٢].

وهل هذا استدراك أم تراجع عما قاله كاتبنا الكبير أولا...؟ ألم يدرك بعد أنه يتكلم عن أخطر قضية من قضايا الإسلام، ترتب عليها ابتعاد حقيقي عنه من قبل الحاكمين والأمة على السواء، وترتب عليه تعطيل الحدود التي كان ينبغي أن تكون هي العاملة والواضحة في خط العمل الاسلامي ومسيرته..؟.

(١) نفس المصدر ١١٠- ١٢٦.

(٢) نفس المصدر ١٢٦- ١٢٧.

وهل أن السنن الربانية التي تحدد مدى الصعود والانحدار لأية أمة من الأمم ومنها امتنا الاسلامية، قد لوحظت من قبل كاتبنا الكبير عند تناوله هذا الموضوع الحساس الذي يتعلّق بعموم المجتمع الإسلامي منذ بداية عهد معاوية..؟ وهل لوحظت خصوصية القانون الرباني والخطاب الإلهي للأمة المسلمة.. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وهل ظلت أمام أنظار هذه الأمة المسلمة على الدوام؟.

إن مقياس نصر هذه الأمة وسموها وارتفاعها مرهون بتمسُّكها بكتاب الله ونهجه وصراطه دون تفريط بأي جانب من جوانبه، حتى وإن بدا الخروج للمجتهدين المتؤولين) من فقهاء الدولة والمتفقهين ـ (باجتهادهم وتأويلهم) قليل الخطر سهل العواقب، إن نصر الله لا بد أن ينال بالتمسك التام بدينه وشريعته المقدسة.

وإن أحد أسباب الاخلال بهذه السنة الربانية والتي كان من نتائج انحراف الأمة المسلمة عنها، انحدارها وهزيمتها وتراجعها، هو تأثير الحاكمين الذين تسلطوا على الامة ووجهوها لتتصرف وفق هواهم ورغباتهم وطموحاتهم.

ان الحاكم فرد من الامة، والسنن الربانية تجري عليه كواحد منها، كما تجري عليها كلها، غير اننا نتساءل: متى كانت الأُمة في غياب الوعي والشعور بالمسؤولية، وفي وجود القمع والارهاب والكبت سياسة حكامها؟ واذا ما استجابت الامة لرغبات حاكم معين حاول ان ينحرف بها عن خطها الصحيح وانحرفت معه وبتأثيره، هل يستطيع أي فرد من افرادها تبرير انحرافه امام الله بأي حال من الاحوال اذا ما عرض عليه يوم الجزاء الاكبر؟

وهل تستطيع الامة بمجموعها، اذا ما وقفت نفس ذاك الموقف ان تبرر هذا الانحراف؟

وهل تستطيع ان تدعي ان الحاكم هو وحده المسؤول عن ذلك؟ وهل تقف السنن الربانية وتتعطل بمجرد اظهار هذا التبرير من الامة وقولها: ان تلك كانت رغبة حكامها وانها استجابت لرغبتهم الذين بايعتهم ولم تملك ان تخلعهم أو تثور عليهم لان في عنقها بيعة لهم وثقها وكتب نصها فقهاء الدولة ووعاظها؟ وهل لا تكون هي المسؤولة المباشرة عن تقويم سلوك الحاكم نفسه، وتصرفاته الشخصية اذا ما تغير أو انحرف لنفس السبب المذكور؟

ان تأثر الامة بحاكمها امر بدا واضحاً في كل مراحل التاريخ الاسلامي، والا فهل يستطيع احد ان يتجاهل الاثر الخطير الذي تركته السياسة الاموية (الرائدة في فن تذويب الامة وابعادها عن الاسلام، حينما جعلت من اللامبالاة وضعف الشعور بالمسؤولية هي الصفة السائدة بين افراد هذه الامة، وجعلت من سلوك (خلفائها) نماذج مشينة متنافرة مع ابسط النماذج الاسلامية المطلوبة، مع انها تمثِّل اكبر الشخصيات الاسلامية بل اكبر رموز الاسلام واعظمها على مر الازمان، وهي شخصية رسول الله ﷺ، تحكم باسمه وتخلفه على امرة المؤمنين وقيادتهم وامامتهم؟

كيف تبرر الامة موقفها امام خالقها، وقد جعلت من حاكمها وهواه بديلًا والهاً؟ ألمجرد انه (تغلب) ولا يهم كيف وبأيِّ اسلوب واصبح (خليفة) و (اميراً للمؤمنين) واصبحت (بيعته) التي يصح انعقادها بواحد أو اثنين ملزمة للامة كلها ولا يجوز الخروج عليها وان كان فاسقاً؟

انه لأمر خطير حقاً، وقد بدا خطره فعلًا فيما بعد، فيما مر من عصور، ان اصبح معاوية ثم يزيد المكشوف الذي اعلن للامة منذ اللحظة الاولى لاستلامه الحكم، وفي الخطاب الاول الذي القاه:

(. . . لست اعتذر عن جهل ولست اشتغل بطلب العلم. .)[1].

هكذا قال لهم بفصيح العبارة وواضح القول: عليكم ان تقبلوني على علاتي وكما انا. ومع ذلك فان هذه الامة قد قبلته، ولم تتساءل عن سلوكه، واحنت رأسها امامه واسلمت قيادها له.

ومهما حاول المتخصصون بفنون التجميل، تحسين صورة يزيد وتقريبه إلى الامة، فانهم لم يستطيعوا ان يقولوا اكثر مما قال ابن كثير في (البداية والنهاية):

(. . وقد كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال حسن المعاشرة، وكان فيه ايضاً اقبال على الشهوات، وترك الصلوات في بعض الاوقات، واماتتها في غالب الاوقات)[2].

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٨٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٨/ ٢٣٣.

اترانا هنا نتحدث عن الملك الضليل امرىء القيس أو عن طرفة بن العبد، فنذكر له هذه الصفات التي قد تؤهله لان يكون ربما نداً لاحدهما لانهما امتازا بهذه الصفات، وربما بأكثر منها، بل ربما كان حتى السليك بن السلكة، وتأبط شراً امتلكا هذه الصفات.

اننا نتكلم هنا عن (خليفة المسلمين) لا عن رائد ظريف من روّاد الملاهي، امتاز بالفصاحة والشجاعة والكرم وقول الشعر وحسن المعاشرة، فهل هذه هي المؤهلات المطلوبة عند خليفة رسول الله ﷺ..؟

اننا لا نتكلم هنا عن بطل من ابطال الحانات أو عاشق من عشاق الغانيات، أو احد احلاس البطالة والكسل والترف، لنجد في النهاية ان ما اورده ابن كثير له من صفات هي لائقة به جداً.

اننا لا نتكلم ايضاً عن (كسرى) أو (قيصر) أو (فرعون)، وانما نتحدث عن خليفة محمد ﷺ وممثله، وامام المسلمين وقائدهم، وعندما نبحث في الزوايا لا نجد له حتى الصفات التي ذكرها بعض المؤرخين بأنه كان كريماً حليماً فصيحاً شاعراً شجاعاً حسن الرأي في الملك جميلًا، حسن المعاشرة، وليس فيه من نقص سوى بعض الاقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات واماتتها في اغلب الاحيان.

أَترى ان الاقبال على الشهوات واماتة الصلوات مما يليق بمسلم عادي لا يتحمل إلا مسؤولية نفسه؟ كيف نراها غير ضائرة ولا مخلة برجل يتحمَّل مسؤولية الامة كلها ونتكلم عنه بهذه الرخاوة المثيرة..؟

هل حدثنا مؤرخ بخلاف ما حدثنا عنه ابن كثير؟ مهما حاول ان يحسن صورته فهو لم يستطع ان يقول افضل مما قال، وقد سمعنا ما قيل عن يزيد.

فكيف نستطيع ان نفهم ما قاله الاستاذ محمد قطب:

(كان الامويون رغم تحويلهم الخلافة إلى ملك يحرصون على ان يختاروا اصلحهم ليتولى الحكم..)[1].

فهل كان يزيد أَصلح بني امية لتولي مهمة الخلافة...؟

---

(١) كيف نكتب التاريخ ١٢٦.

واذا كان يزيد اصلحهم فكيف حال اسوئهم يا ترى؟ وهل كاتبنا الفاضل مقتنع حقاً بما يقول؟

الدولة الأموية أكبر نكسة حلت على الاسلام والمسلمين

ان الانحراف الذي اتسع إلى مدى بعيد في عهد معاوية كان واضحاً جداً، رغم انَّ الامة الاسلامية قد استدرجت اليه، وقد لفت نظر العديد من ابنائها، وجعلهم يدركون ضرورة ايقافه أو القضاء عليه، لان مجموع ابناء الامة قد استسلم بشكل واضح واصبح يعيش حالة اللامبالاة وعدم الشعور بالمسؤولية، بعد ان اقتيد إلى هذا الوضع الذي لم يكن يحسب قبل فترة قصيرة من ذلك انه سيعيشه بعد العهد الاسلاميّ الاول، وبعدما ازدهرت الآمال وشهدت فعلًا اختفاء العديد من التناقضات والممارسات القديمة داخل هذا المجتمع الاسلامي الجديد، اما وقد وصلت حالة الانحدار إلى الوضع الذي اتاح للفئة الحاكمة لكي تكرس لاوضاع جديدة اكثر سوءاً ومليئة بالتناقضات في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية، اوضاع اتسمت بطابع جديد مفتعل مليء بقيم مفتعلة غريبة هجينة لتحل محل القيم الاسلامية التي ينادي الجميع بشعاراتها لكن في الظاهر فقط وعلى المستوى الاعلامي، فان الامة قد احبطت آمالها، ولم تعد ترى مصلحة لها حتى في هذا الدين الذي سرق علنا في وضح النهار وامام انظارها وحولت مكتسبات الامة على اساس من مقولات واحاديث مكذوبة نسبت إلى قائد هذا الدين محمد ﷺ، ورأت الوجوه التي اختفت في مطلع الرسالة وانزوت في حجورها وكهوفها قد عادت ثانية إلى الظهور من خلال ابناء واحفاد اولئك الجاهليين القدماء فان هذه اكبر نكسة نفسية اصيبت بها الامة وجعلتها تشعر بخيبة امل حقيقية، بل موت حقيقي لكل طموح بمستقبل هذا الدين. واوشكت ان تصل إلى الهاوية من خلال مرور التجربة الاسلامية للمجتمع والدولة بشكل واضح وملموس، وتأثرها باللمسات الاموية البعيدة عن الاسلام.

(لتصبح مليئة بالتناقضات من كل جهة ومن كل صوب، وتصبح عاجزة عن مجاراة ومواكبة الحد الادنى من حاجات الامة ومصالحها حتى تعلن عن افلاسها نهائياً عن مواكبة الحد الادنى من حاجات هذه الامة وعن الحلول بالحد الادنى للقضايا التي تتبناها وللرسالة التي تعلن عنها، فحينما يتسلسل الانحراف في خط تصاعدي من هذا القبيل أو في خط تنازلي إلى الهاوية من هذا القبيل، فمن المنطقي في فهم تسلسل

الاحداث ان هذه التجربة سوف تتعرَّض بعد مدى من الزمن للانهيار الكامل، يعني ان الدولة والمجتمع الاسلامي والحضارة الاسلامية لقيادة المجتمع سوف تتعرض للانهيار الكامل، لان هذه التجربة حين تصبح ملأى بالتناقضات وحين تصبح عاجزة عن مواجهة وظائفها الحقيقية، تصبح عاجزة عن حماية نفسها، لان التجربة تكون قد استنفدت امكانية البقاء والاستمرار على مسرح التاريخ، كما ان الامة ليست على مستوى حمايتها، لان الامة لا تجني من هذه التجربة الخير الذي تفكر فيه، ولا تحقق عن طريق هذه التجربة الآمال التي تصبو اليها، فلا ترتبط بأي ارتباط حياتي حقيقي معها. فالمفروض ان تنهار هذه التجربة في مدى من الزمن، تنهار كنتيجة نهائية وخاتمة حتمية لبذرة الانحراف التي غرست فيها)[١].

الاشتباه في تأثير الدولة الأموية على تطور المدنية الاسلامية

ومهما اراد (المتفائلون) الايحاء بان هذه الامة لا زالت بخير، وانها لا تعرف غير طريق الاسلام وانها لا تزال متماسكة قوية، والدليل على ذلك هو الصحوات التي مرَّت بها عبر التاريخ، وآخرها هذه الصحوة الحديثة التي تمر بها الآن، فان هذا لا يشكل بالتأكيد دليلًا على ذلك، ونطرح سؤالًا بهذا الخصوص:

كيف اريد لهذه الامة ان تكون وفق تصور قيادة الدولة الاسلامية الاولى، قيادة الرسول ﷺ؟ وكيف اصبحت فعلًا؟ كما اخبرتنا الوقائع والاحداث..؟ هل اريد لها ان تقنع بهذا الحد الادنى بانها امة تنتمي إلى الاسلام مع انها لا تعيش حياته ووقائعه، ام اريد لها ان تكون امة تعيش الاسلام فعلًا، واقعاً حياتياً معاشاً؟

ويحتج اولئك (المتفائلون) باشعاع الامة الاسلامية العلمي على غيرها من الشعوب والامم، و (تطور) حياة المسلمين في جوانب العمران والبناء وغيرها ابتداء من (الدولة الاموية) ثم دولة العباسيين، ويذكرون اشعاعها على اوربا عن طريق الاندلس، وغيرها من عواصم الاسلام ويعتبرونه مثالًا حياً على ان الامة الاسلامية امة حية لم تمت، ومن قال انها غير حية وانها ماتت؟ لكن: هل كانت هي الامة كما اريد لها ان تكون حقاً؟

---

(١) اهل البيت ص ١٢٨.

أكذوبة التطور العلمي كدليل على حياة الأمة

ان الدليل على حياتها ان اعداداً غفيرة من ابنائها في كل جيل يرى في الاسلام الحرارة الكفيلة بتحريك كل الاجساد الهامدة التي قرت وسكنت تحت مختلف التأثيرات المعادية والمغرضة وذات المصالح الخاصة، ويرون انه القوة التي لا بد ان تسود في النهاية ويتحركون بايجابية وفعل مؤثر لانهاض الامة وتعريفها بالجوانب التي خفيت عنها من هذا الدين العظيم.

لكن هذا لا يمنع من القول: انَّ الامة لم تعد منذ زمن بعيد هي نفسها، تلك الامة الاسلامية التي ارادها الله، وأرسل رسوله ﷺ لاعدادها وتربيتها.

اما نهوضها في فترات من الزمن في مجالات العلوم وفنون الحضارة، فلا يعني ذلك انها استكملت بهذه العلوم والفنون مقومات وجودها كأمة اسلامية، وانها قد نهضت في كل المجالات الروحية والاجتماعية وعلى صعيد الحكم والسياسة وغيرها، تحمل نفس التصور الاسلامي الصحيح، ونفس الشعور بالمسؤولية الذي حاولت القيادة الاسلامية الاولى ان تجعل الجميع يحملونه بنفس القدر ويمارسونه بنفس الكفاءة ومن منهج واحد في العمل والتطبيق.

ان أي فرد منا يعتز اعتزازاً كبيراً بالحضارة الاسلامية وتأثيرها الفاعل على الحضارات العالمية، تلك الحضارة التي حملها ابناء الاسلام بما تبقى لديهم من مقومات هذا الدين، بشكل فاعل وملحوظ لم يمكن انكاره حتى من قبل مناوئيهم ومخالفيهم.

(ولم يكن العلم وحده هو الذي اعاد اوربا إلى الحياة، بل ان مؤثرات اخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الاسلامية بعثت باكورة اشعتها إلى الحياة الاوربية)[1].

الفضل للاسلام لا لبني أمية أو بني العباس

ان فضل ذلك يعود بلا شك إلى الاسلام، ذلك الدين الذي يدعو للخوض في غمار المعارف والبحث والدراسة في مختلف امور الحياة ونشاطاتها، غير ان من المعلوم ان نهوض الامة أو قسم معين من ابنائها بهذه المهام العلمية والحضارية لا

(١) تجديد الفكر الديني، محمد اقبال ترجمة عباس محمدص ٢٥٠ عن بريفولت في كتاب أبناء الإنسانية).

يعني نهوضها في كل المجالات الحياتية الاخرى، وخصوصاً في مفهوم الاسلام، الذي اراد لهذه الامة ان تقود البشرية كلها، لا ان تكون جزءً سلبياً منقاداً تابعاً أو قليل التأثير أو عديمه على الاطلاق.

ولم يكن تأثير الحضارة الاسلامية ضعيفاً ولا مرحلياً، بل انه وهذه حقيقة واقعة يحمل فعل تأثير دائم، كما انه يشكل الاساس للحضارة المادية المعاصرة في كل انحاء العالم، وخاصة في امور البحث في كافة العلوم كالرياضيات والفلك والجغرافيا والطب والهندسة والكيمياء وغيرها.

غير اننا نتساءل: لو كانت الاجواء الاسلامية نقية وصافية من الدخان والغبش والغبار الذي كدَّرها وشابها، ولو لم يتصد لقيادة الامة من تصدى، فانحرف بها وبمسيرتها، وكانت كما اراد الله لها ان تكون خير امة اخرجت للناس أكانت ستؤثر نفس تأثيرها الاول؟ وهل كان ذلك التأثير سينقطع بعد ان دام فترة من الزمن؟ وهل كانت ستقف على هامش الحياة بعد ذلك كما هو حالها الآن؟ متلقية متأثرة، ثم متخلية عن تراثها العلمي والاخلاقي والروحي بعد ذلك، بعد ان لعب بها الجهل والتأخر والانحطاط طيلة قرون عديدة..؟ اما كانت ستبقى في موقع الصدارة لحد الآن، ليمتد تأثيرها لا في مجالات العلوم والفنون وحسب وانما في كل مجالات الحياة الاخرى؟ اما كانت ستسحب تصورها وفهمها لحقيقة وجودها ووظيفتها على من اثرت فيهم، لتنشر بينهم دين الله القويم كما فهمته أو بالشكل الذي كان يجب عليها ان تفهمه؟

هل يمكن ان يشبع هذا طموحنا ونقبع راضين سعداء لمجرد اننا كنا ذات يوم رجال تأثير على مجرى الاحداث في العالم، وكانت امتنا رائدة في مجالات العلوم والفنون، ولا يهم ما يحدث لنا في المجالات الاخرى من انحطاط وتأخر وما نشهده الآن من الانقطاع المميت عن تلك الحضارة..؟

كان يمكن ان نفخر بشكل حقيقي لو كان المسيحيون متسلحين بما يتسلحون به الآن من علوم ومنجزات حضارية وأثرنا عليهم، كما اثرنا عليهم فعلًا وهم يتخبطون بظلام الجهل والتخلف.

وهل يعني ان المسيحيين الآن، وهم اكثر تطوراً منا في مجالات العلوم والانجازات الحضارية، يشكلون امماً كاملة التطور، وانها قد وصلت إلى القمة بكافة

المجالات الحضارية الانسانية، وان حضاراتهم تحمل معها عوامل البقاء والنمو والديمومة، وانهم بسبيلهم إلى تطور اكبر وانهم قد أمنوا السقوط والانحدار إلى الابد؟

لقد رأينا بعض مظاهر نمو الحضارة الاسلامية في (ظل) الدولة الأموية، فاعتقد العديدون منا، ومنهم من المحدثين الذين يتناولون التاريخ الاسلامي وفق تصورات غريبة محدثة، ان سبب ذلك كان تلك الدولة نفسها. ونتساءل ايضاً: لو ان الدولة الاسلامية قد سادت منذ البداية كما اراد لها رسول الله ﷺ، هل كانت حضارتها ستبدو بذلك الشكل الذي بدت عليه فعلًا ام انها ستكون أوسع وأشمل وأكثر قابلية على التأثير والبقاء..؟

ان الحضارة الاسلامية لا تتمثل ببعض جوانب الابداع في امور السياسة والحكم وسن النقود وتدوين الدواوين وغيرها، وانما هي اوسع من ذلك، لا تتمثل بمجرد مظاهر عادية محدودة وانما بفعل حقيقي يمتد من داخل الانسان المسلم، ليتعامل مع الحياة ومع كل الظواهر الكونية وفي التصور الاسلامي الحضاري الشمولي. وضمن هذا الإطار الذي يتسع لكل فعاليات الانسان ونشاطاته وابداعاته، لا لفترة زمنية محددة، وانما لامد غير محدود، فما دام الاسلام نفسه مؤهلًا لبرمجة كل الفعاليات الانسانية، فهو قادر على اشباع كل رغباته وتطلعاته، وتحقيق كل امنياته في الحرية والعمل والتفكير والعلاقات والابداع والتطور.

ولنا ان نتساءل الآن، كم من المؤرخين قد تناسوا النكسة الاليمة التي حلت بالمسلمين نتيجة استلاب آل امية السلطة الشرعية ووقوفهم على رأسها، ولم يحللوا عواملها ونتائجها الخطيرة، غير متحدثين إلا عن تلك الانجازات الحضارية (الكبرى) التي حصلت في عهدهم مثل سك النقود وتدوين الدواوين، مع ان ذلك سيكون نتيجة حتمية لكل تطور حياتي في اعقاب المعطيات العظيمة لدولة الاسلام الاولى، تطلبته معاملات الحياة التي تعقدت بعد الاتساع الظاهري لرقعة الدولة؟

هل نقيس النجاح ونحدد شرعية وجود تلك الدولة ببعض الانجازات (الحضارية)؟ وهل نستطيع القول ان الدولة الاموية دولة اسلامية ادت دورها بنجاح كامل، بدليل انها طورت بعض جوانب الحياة، وكانت لها (حضارة) لم تكن قد ظهرت للعرب قبل ذلك، (آخذين بنظر الاعتبار اننا نتكلم عن حضارة اسلامية لا

حضارة عربية)، وان هذه الحضارة اوشكت ان تضاهي ببعض جوانبها حضارة الروم والفرس؟

اين يمكن ان نضع (الحضارات) الحديثة وفق هذا المقياس؟ مع انها ليست مبنية على اساس الاسلام اصلاً، بل ان بعضها معاد له ولا يؤمن به اساساً؟

ان الخلط الذي نلجأ اليه عند تناول قضايانا الاسلامية المصيرية والتبريرات التي نلجأ اليها في اغلب الأحيان، لا تتيح لنا الفرصة الكافية للنظر بشكل دقيق وعادل إلى هذه القضايا، والبتّ بامرها، لكي نتجاوز نتائجها وآثارها، ولكي نضع انفسنا في فرص واوضاع افضل للتفاهم والحوار وحل المشكلات، وننطلق إلى فهم اكثر وعياً واكثر موضوعية بشأن العديد من القضايا المستجدة واللاحقة التي قد تواجهنا.

وقد يمكن القول: ان الحضارة الاسلامية في زمن الرشيد أو زمن ملوك الاندلس كانت اكثر تطوراً من تلك المتحققة في زمن الدولة الاسلامية الاولى، فهل كان ذلك يعني ان دول اولئك كانت افضل من دولة الرسل ﷺ..؟ ونتساءل ايضاً: لو استمرَّت قيادة المسلمين على نفس النمط الذي كان عليه زمن تلك الدولة الاولى، وكما اعد لها رسول الله ﷺ، اكانت تلك الحضارة قد اكتفت بما وصلت اليه أو توقفت، ام انها كانت ستستمر وتتصاعد بشكل غير متوقع؟

الفتوحات الاسلامية على عهد الامويين أمجاد زائفة

وامر آخر يضيفه بعض المؤرخين والكتاب إلى امجاد الدولة الاموية في عهدي معاوية ويزيد، وهو اشتغالها بالفتوح وتوسيع رقعة الدولة الاسلامية ان امراً كهذا لو كان يتم في ظروف صحية عادية لكان قد تم على غير الصورة التي تم عليها في عهد الامويين.

فقد كان شعور المسلمين باستئثار الامويين بالسلطة والمكاسب، مبعث خيبة امل كبيرة لهم، تولد عنه شعور باللامبالاة واليأس وفقدان الشعور بالمسؤولية لدى فئات كثيرة منهم.

لقد كانت الفتوحات الاموية في عهدي معاوية ويزيد استمراراً للفتوحات التي سبقتها، والتي ما كان لها ان تتوقف، والا ولدت ردود فعل معادية ضد الحكم، لان المسلمين عرفوا ان من مهامهم الاساسية نشر الاسلام في الارض كما اراد الرسول ﷺ، وحماية الثغور والاطراف. ولم يكن حجم الفتوحات التي تمّت في

ذلك العهد كبيرة على المستويين الكمي والكيفي، كما ان الجيش الذي جهزه معاوية لفتح القسطنطينية قد تراجع بعد ان (صمدت) هذه المدينة، وبعد ان استشهد عدد كبير من المسلمين، وبرر انسحابها وتراجعها (بانشغال المسلمين) بتولية يزيد وسوء الاحوال الجوية وقيام الروم بالقاء القذائف النارية على سفن المسلمين، كما فشلت المحاولة الثانية في عهد سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وقد اضاع يزيد المغرب بعد ذلك ايضاً.

اما الاقاليم التي سير معاوية الجيوش اليها للقضاء على التمرُّد هي خراسان والاقاليم الشمالية مثل سجستان، فانه لم ينجح في ذلك إلا إلى حين، وعندما تمت سيطرته على بعضها عادت هذه الاقاليم للخروج والتمرُّد من جديد.

وعندما نتساءل: هل اريد لعمليات الفتوح هذه ان تكون مجرد مجال للكر والفر، أو كانت عملًا مستمراً مثمراً يدخل الناس في دين الله ولا يستهدف اضافة رقعة من الارض في مساحة الدولة المستظلة بظل حاكمها المستبد؟ وهل كان الغرض منها استحصال الجزية والخراج والخمس لتتكدس في خزينة الحاكم ليبعثرها كما شاء ويوزعها على اتباعه وحاشيته؟ اما كان الامر كذلك فعلًا؟ وان الكثيرين من سكان البلاد المفتوحة سرعان ما تراجعوا بعد ان دخلوا في الاسلام لانهم عوملوا كما عومل غير المسلمين على اساس نفس الاسلوب الذي سمعوا عنه ولم يشهدوه.

لقد كان احد دوافع الامويين لارسال الجيوش للفتوحات اشغال المناوئين وارسالهم مع هذه الجيوش، كما كان يمهد لوضع البلاد في وضع استثنائي لايجاد حجة لضرب أي معارضة محتملة على اساس وجود مواجهة مع العدو.

ولو ان الفتوحات الاسلامية تمت في ظروف صحية واجواء سليمة بعد وفاة الرسول ﷺ وبنفس الاسلوب والسرعة اللتين كانتا عليه زمن الرسول ﷺ لكان العالم كله قد انضوى تحت لواء الاسلام إلى الابد، ولما خرج عنه أو ارتد عليه بعد ذلك احد قط.

لقد اعيقت الفتوحات الاسلامية في عهدي معاوية ويزيد، وكانت (الدولة الاسلامية) بعد ذلك، رغم قيامها على غير الاسس التي كان ينبغي ان تقوم عليها، تمثِّل افضل شكل للحكم وجد على وجه الكرة الارضية في ذلك الحين، في مقابل الحضارات المنهارة وانظمة الحكم الفاسدة التي كانت عرضة للسقوط والتآكل.

وينبغي ان لا نخلط هنا بين حماس المجاهدين المقاتلين وحماة الثغور ودوافعهم الدينية المخلصة وبين دوافع الحكام الذين ارسلوا الجيوش للفتوحات، اذ ان الاسلام ظل دائماً امام انظار هؤلاء المقاتلين المسلمين الذين لا نستطيع القول ان دوافعهم كانت لنيل المكاسب والمغانم، بل لتكريس ونشر دين الله القويم في الارض.

(الخليفة) معاوية مثالًا، ومجتمع الشام نموذجاً

عبث بروح وعقائد الاسلام

كان مقرراً ليزيد ان يكون الشخصية التي تظهر وتتكرر على مسرح الحكم، وكان من افراز معاوية ونتاجاً لتربيته، كما كان مجتمع الشام هو المجتمع (النموذج) الذي اريد لباقي المجتمعات الاسلامية في مختلف الحواضر والاقطار ان تكون على غراره بعد عمل دؤوب من قبل معاوية طيلة عهده، استدرج فيها هذه المجتمعات الاخرى لجعلها على غرار هذا المجتمع من بعض الوجوه فعلًا.

ويهمنا ان نسبق الاحداث هنا فنقول: ان ثورة الحسين عليه السلام لم تكن على يزيد شخصياً، وانما كانت على الوضع المتردي الذي اصبح عليه المسلمون بعد انتهاء عهد معاوية، فيزيد لم يكن قد استلم الحكم بعد إلا منذ بضعة ايام، وخبر توليته لم يكد يصل المدينة حتى رفضه عليه السلام بعزم واصرار مسبقين، فالثورة كانت اذاً رفضاً لمجمل الحال الذي جعل المسلمين يبدون على ما بدوا عليه قبيل قيام الثورة.

لقد عبث معاوية بالاساس العقائدي والكيان الروحي الذي يمكن ان تقوم عليه الدولة الاسلامية، والذي لا يقوم على تصورات شخصية مجردة أو اداءات طقوسية منفصلة عن البرامج الحياتية التي تنظم حياة المسلمين، بل يجعل من الايمان المطلق بالله اساساً لتنفيذ احكامه وتشريعاته والطاعة التامة لرسوله صلى الله عليه وآله الذي ارسى بشكل عملي دعائم الدولة الاسلامية الحقيقية، وارادها ان تمتد وتتصاعد وتأثر عملها وفعالياتها، مستفيدة (كلما امتد الزمن) من الخبرات المتراكمة نتيجة عمل هذه الدولة، ولم يرد لها ان تتضاءل أو تندثر، وتصبح فعالياتها قائمة على تصورات أو اعتبارات شخصية من اناس غير مؤهلين وغير معدين لاكمال هذه المسيرة الضخمة وتحمل مسؤولية قيادتها، بل غير مؤهلين حتى لشرف الانتساب الحقيقي للاسلام.

وكان استبعاد القيادة الشرعية، واقصاؤها عن مركزها منذ اللحظات الاولى، قد قطع الامتداد الطبيعي لهذه الدولة، اذ ان هذه القيادة كانت هي وحدها تمتلك التصور

الذي يتطابق مع تصور رسول الله ﷺ ومع مفاهيم القرآن الكريم، والتي لا تحمل اية بذرة جاهلية ولم تعش أو تنغمر في مستنقع اية حياة أو ممارسة جاهلية أو تصور جاهلي، قيادة لم تعرف إلا الاسلام وحده ولم تتعرف إلا عليه.

شخصية الخليفة الاسلامي بين الملكات الذاتية والاعداد الالهي

وقد عصم الله رسوله ﷺ منذ بداية حياته من الجاهلية وارجاسها وافعالها وممارساتها، وكان يبدو منذ مطلع حياته معدا لحمل هذه الرسالة الاسلامية العظيمة، وتجسيدها كياناً حياً متحركاً فاعلًا مؤثراً، فقد كان منقطعاً عن تلك الحياة تمام الانقطاع، وكانت صفاته الشخصية التي جعلته محل ثقة واطمئنان المجتمع الجاهلي نفسه في مكة، مدخلًا أهَّله للتأثير في هؤلاء الذين لم يروا منه ما كانوا يرونه من بعضهم، كان معداً بفعل الهي وحاملًا لصفات جديدة تؤهله لحمل ونقل هذه الرسالة العظيمة، وكانت تلك العصمة قبل نبوته وبعدها العامل الاول لنجاح قيادته نجاحاً باهراً لم يختلف عليه اثنان، غير ان امد وجوده على هذه الارض محدود جداً كبقية بني البشر، مع ان استمرار نفس نمط القيادة كان الضمانة الوحيدة لترسيخ الاسلام ونشره بصورة سليمة واستكمال تربية اجيال من الامة على نفس النمط الذي رباها به ﷺ، ولذلك كان اعداده لمن سيكون من بعده قائداً للامة واماماً لها منذ طفولته، وهو الإمام علي عليه السلام، يمهد لامتداد القيادة على نفس الفهم والتصورات التي حملها ﷺ.

لم يرد الله سبحانه وتعالى لأية بذرة أو شائبة أو تصور جاهلي ان يلوح على تصرفات رسوله ﷺ، لذلك فقد عصمه منذ البداية، منذ طفولته، عن الحياة الجاهلية. اذ ان للاسلام تصوراً متفرداً يحتاج إلى عقلية تتسع له وحده وتحمله وحده.

(. . . ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله، من لدن ان كان فطيماً اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره)[1].

وهكذا اعد الرسول ﷺ خلفاءه عليهم السلام، ابتداء من أمير المؤمنين عليه السلام منذ البداية ليحملوا نفس تصوره وفهمه وعقليته الاسلامية التي لم تحمل مع الاسلام ديناً

(١) نهج البلاغة ٤٣٧.

آخر أو تصوراً آخر من تصورات الجاهلية وافكارها وقيمها ومفاهيمها، وهكذا صرَّح أمير المؤمنين بوضوح عارضاً هذه النقطة الدقيقة ومبيناً بوضوح: ان على من يتولى مسؤولية القيادة ان يحمل نفس التصور، وان لا تكون في تصوراته ولو نسبة ضئيلة من تلك التصورات والممارسات الجاهلية الاولى، وان يستسلم بشكل مطلق لاحكام الاسلام، لبيان القرآن وسنة رسول الله ﷺ وحسب، وان لا يخرج عليها بأي شكل من الاشكال تحت أي مبرر أو ذريعة (متأولًا أو مجتهداً):

(وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وانا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويمسني جسده ويشمني عرفه، وكان يمضع الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل اثر امه، يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فاراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الاسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وانا ثالثهما، ارى نور الوحي والرسالة واشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه واله وسلم، فقلت يا رسول الله، ما هذه الرنة، فقال هذا الشيطان آيس من عبادته. انك تسمع ما اسمع وترى ما ارى، إلا انك لست بنبي، ولكنك وزير، وانك لعلى خير)[1].

لم يكن ذلك الاعداد الالهي المباشر للرسول ﷺ عبثاً، ولم يكن غير مهم ولا حاجة اليه، فقد كانت مهمة القيادة الاسلامية، تلك المهمة الضخمة بل الهائلة، تقتضي ان لا يكون هناك أي اتصال مسبق مع الافعال والتصورات الجاهلية، ولو من بعيد، لئلا تلتبس وتتشابك مع التصورات والأفعال الاسلامية الجديدة، والتي لم يسبق ان عرفت في مجتمع الجاهلية، ولم يقم الرسول ﷺ بعد ذلك باعداد خليفته الذي اعد بدوره خلفاءه عليهم السلام على نفس النمط الذي اعده عليه رسول الله ﷺ، إلا لتظل القيادة بمنأى عن كل فعل أو تصور جاهلي، ولا ترى امامها غير نموذج واحد وطريق واحد جدير بالاتباع، هو نموذج وطريق رسول الله ﷺ الممثل الحقيقي للاسلام.

(وليس صنع مجتمع التوحيد بالامر الهين، لانه ثورة على الجاهلية بكل

---

(١) نهج البلاغة ص ٤٣٦/ ٤٣٧.

جذورها وتطهير للمحتوى النفسي والفكري للمجتمع من جذور الاستغلال ومشاعره ودوافعه، ومن هنا كان شوط الثورة اطول عادة من العمر الاعتيادي للرسول القائد، وكان لا بد للرسول ان يترك الثورة في وسط الطريق ليلتحق بالرفيق الاعلى وهي في خضم امواج المعركة بين الحق والباطل، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومن الواضح ان الحفاظ على الثورة وهي بعد لم تحقق بصورة نهائية مجتمع التوحيد يفرض ان يمتد دور النبي في قائد رباني يمارس خلافة الله على الارض وتربية الجماعة واعدادها ويكون شهيداً في نفس الوقت، وهذا القائد الرباني هو الامام، ويجب ان يكون معصوماً لانه يستقطب الخطين معاً ويمارس وفقاً لظروف الثورة خط الخلافة إلى جانب خط الشهادة معاً، وعصمة الإمام تعني ان يكون قد استوعب الرسالة التي جاء بها الرسول القائد استيعاباً كاملًا بكل وجوده وفكره ومشاعره وسلوكه، ولم يعش لحظة شيئاً من رواسب الجاهلية وقيمها (لم تنجسه الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسه من مدلهمات ثيابها)[1]، لكي يكون قادراً على الجمع بين الخطين في دور واحد يمارس فيه عملية التغيير دون ان يتغير، ومواصلة الإشعاع النبوي دون ان يخفت واتخاذ القرارات النابعة بكامل حجمها من الرسالة التي يحملها دون ادنى تأثر بالوضع الجاهلي الذي يقاومه، فالامام كالنبي شهيد وخليفة لله في الارض من اجل ان يواصل الحفاظ على الثورة وتحقيق اهدافها، غير ان جزءاً من دور الرسول يكون قد اكتمل وهر اعطاء الرسالة والتبشير بها والبدء بالثورة الإجتماعية على اساسها فالوصي ليس صاحب رسالة، ولا يأتي بدين جديد، بل هو المؤتمن على الرسالة والثورة التي جاء بها الرسول[2]. أما لماذا أعدّ رسول الله ﷺ علياً، واختاره على من سواه، لماذا اختصّ أهل البيت بالخلاص والتطهر من الرجس، فهذا امر لا نملك ان نتساءل فيه كما لا يمكن ان نتساءل: لماذا اختص الله سبحانه وتعالى بالرسالة محمداً ﷺ دون سواه ولم يختر غيره؟ فلا شك ان لك كله تم بتسديد الهي كما

---

(١) زيارة وارث.

(٢) خلافة الانسان وشهادة الانبياء، محمد باقر الصدر، دار التعارف، بيروت ط ١ ١٣٩٩هـ، ص٤٣/ ٤٥.

اكدت لنا الاخبار والاحاديث الواردة عن الرسول ﷺ، واكدت لنا هذه الاخبار والنصوص الصحيحة على ان ذلك قد حصل فعلًا، كما اكدت لنا الاحداث ان من اعد لهذا المنصب القيادي الخطير كان مؤهلًا له فعلًا، ومعداً له اعداداً خاصاً من قبل رسول الله ﷺ الذي احتضنه ورباه منذ وقت مبكر جداً من حياته، وذلك لم يتح لبقية الصحابة الذين امضوا فترة طويلة من حياتهم يعيشون في خضم الحياة الجاهلية ويحملون قيمها ومثلها وتصوراتها، ثم عندما أنعم الله عليهم بالاسلام لم يستطيعوا ان ينتزعوا انفسهم نهائياً من كل تلك القيم والتصورات، بل بقيت بعضها وقد طفت على السطح فيما بعد.

شخصية الزعيم الجاهلي مزيج من المثل الجاهلية والهوى

اما اولئك الذين اخذوا على عواتقهم تكريس وتبني الحياة الجاهلية وقيمها ومثلها بكل سلبياتها وانحطاطاتها مثل أبي سفيان ومعاوية، والذين لم يتعرَّفوا على الاسلام إلا قبيل اشهر معدودة من وفاة الرسول ﷺ، وقد وجدوا انفسهم مجبرين على اعتناقه في غمرة النصر الاسلامي الحاسم، والذين لم يقتربوا منه ومن الرسول ﷺ إلى الحد الذي يجعلهم قادرين على فهمه بالقدر الذي فهمه به المسلمون الاوائل، ناهيك عن فهم اول ملتحق به وهو أمير المؤمنين عليه السلام، فان مهزلة العبث الاول الذي شكل بداية الانحراف المبكر بشأن قيادة المسلمين اتاح لهم فيما بعد ان يكونوا هم في مركز القيادة (خلفاء) لرسول الله ﷺ، وهذه اكبر مهزلة تتم في تاريخنا الاسلامي كله، سببت كل ما عاناه ويعانيه المسلمون من كوارث وويلات.

ومهما حاول احد تبرير تصرُّفاتهم ووصفها بانها أَخطاء وتأولات جاءت نتيجة (اجتهادات)، فان ما طفا على سلوكهم وما صرحوا به انفسهم على رؤوس الاشهاد دل على انهم لم يروا الاسلام إلا حالة ينبغي استثمارها لصالحهم، وقد تم ذلك فعلًا، واستغلوا حالات الانحراف البسيطة التي وقعت قبل معاوية لتجسيمها وتضخيمها والاحتجاج بها على انحرافهم هم، وقد رأينا كيف كان رد معاوية على محمد بن أبي بكر، عندما عاتبه الاخير على خروجه على أمير المؤمنين عليه السلام.

ان الوضع الاسلامي عندما يصل إلى مرحلة تقصى فيها القيادة المؤهلة والمعدة من قبل رسول الله ﷺ بايعاز مباشر من الله جلا وعلا كما رأينا وتحل محلها قيادة كانت في آخر الركب خلال الدولة الاسلامية الاولى، وعندما يصل المجتمع

الاسلامي إلى حالة من الضعف واللامبالاة وعدم الشعور بالمسؤوليَّة بحيث يتقبل هذه (القيادة) الدخيلة التي لم تنتم إلى الاسلام إلا رغم انفها، والتي اسفرت عن وجهها ممثلة بشخص معاوية ثم يزيد الذي اعلن عن انحرافه ولم يتحرَّج من ذلك، واعلن عدم التزامه حتى بالقواعد المتعارفة التي يطالب بها المسلم ويعرف بها مثل اقامة الصلاة والصيام واجتناب المحرمات والفواحش مثل الخمرة والزنا وغيرها، وعندما يحصل ذلك بعد نصف قرن فقط من وفاة قائد الاسلام الاول صلى الله عليه وآله، فان ذلك يمثل نكسة خطيرة لا يمكن معالجتها باسداء النصيحة أو الدعوة إلى الرجوع إلى ما درجت عليه القيادة الاولى، اذ ان السلطة الاموية اوحت كما رأينا بأن العمل بسيرة أبي بكر وعمر وحتى بسيرة عثمان غير ممكن عملياً وذهبت إلى حد الادعاء بأن العمل بسيرة معاوية من قبل من جاء بعد معاوية امر عسير ايضا كما صرح بذلك يزيد، وان على الامة ان تعد نفسها لاستقباله وامثاله (خلفاء) و (امراء للمؤمنين)، وملوكاً مستبدين متسلطين لا يحد من سلطانهم قانون أو دين.

وهكذا عاد مجتمع الظلم والاستغلال والعبودية لغير الله يضرب اطنابه من جديد في ارجاء الدولة الاسلامية، والتي لم يرد لها ان تكون بعد ذلك اسلامية إلا بالاسم فقط.

وظلت المثل الجديدة التي جاء بها الاسلام تمحى وتسحق تحت وطأة القهر والإضطهاد والافقار والتجويع والقتل، ومنعت القيادة الحقيقية من ممارسة دورها الفعلي والحقيقي لخلافة الله علىٰ الارض، هدا الدور الذي لا يتمثل بقيادتها روحياً فقط والشخوص امامها مثالًا حياً على اخلاق الاسلام وسلوكه وانما في قيادة الامة في كل المجالات ومنها المجالات السياسية والإجتماعية والاقتصادية والتربوية والسلوكية لتحقيق اكبر قدر من الخير والتوازن في ظل الاسلام الذي فصل مقومات هذه الخلافة وواجباتها ودور كل فرد من المجتمع المسلم في هذه المسيرة المستمرة.

وجود أئمة أهل البيت عليهم السلام ودورهم ضد الانحراف

ويظل السؤال الاخير مطروحاً: هل يتخلَّى الأئمة عن دورهم القيادي اذا ما اقصوا من قبل من تبوأوا مقاعد الزعامة والحكم، ام انهم كانوا سيظلون يمارسون دورهم في تقويم الامة كلما بدا لها ان تخرج عن الحدود المرسومة لها أو بدا للحاكمين ان ينحرفوا بها؟

لا شك ان الشطر الثاني من السؤال يشكل الاجابة الصحيحة.

وقد رأينا كيف قام الائمة عليهم السلام بادوار متكاملة (كأنها دور واحد لامام واحد عاش عهوداً مختلفة) لتقويم الانحراف بالطريقة المناسبة، ورأينا كيف قام أمير المؤمنين عليه السلام بدوره طيلة عهود الخلفاء الثلاثة، كما رأينا كيف واجه الإمام الحسن عليه السلام خطر القضاء على الاسلام، واستئصال آل البيت الذين كان ينبغي ان يظلوا في الساحة وفي مركز القيادة الجماهيرية حتى وان اقصوا على مراكزهم الحقيقية، وكيف فوت مؤامرة معاوية للذهاب في عدائه ضد الاسلام إلى ابعد حد.

وكانت ادوارهم كلها تسير باتجاه تعميق المثل الاسلامية والحفاظ على الاسلام ووحدة المسلمين ودرء المخاطر عنهم (وهو ما ادَّعاه اعداؤهم الأمويون) وارجاعهم إلى الصواب كلما بدا لهم ان يستجيبوا للانحراف أو يقعوا في الاخطاء، اما إلى أي مدى نجحوا في مهامهم، فهذا امر عندما نناقشه وفق تصور اسلامي صحيح فاننا سنعلم انهم قد نجحوا فيه بالتأكيد، وهذا ما اظهرته لنا الوقائع التي استعرضنا قسماً منها هنا.

فانهم عليهم السلام لو قد تركوا الحال على ما كانت عليه، ولو انهم استسلموا للتصرفات والنزعات المعادية والقيم الجاهلية التي بدأت تظهر من جديد والتي لم تكن قد امحت أو تلاشت بعد، وان وجدت بعض عناصر البقاء والديمومة، لكان الوضع الآن غير ما هو عليه فعلاً، وربما لم نعد نسمع حتى باسم الاسلام يلفظ على هذه الارض، ولم يعد الدين إلا اثراً تاريخياً وتراثاً غابراً.

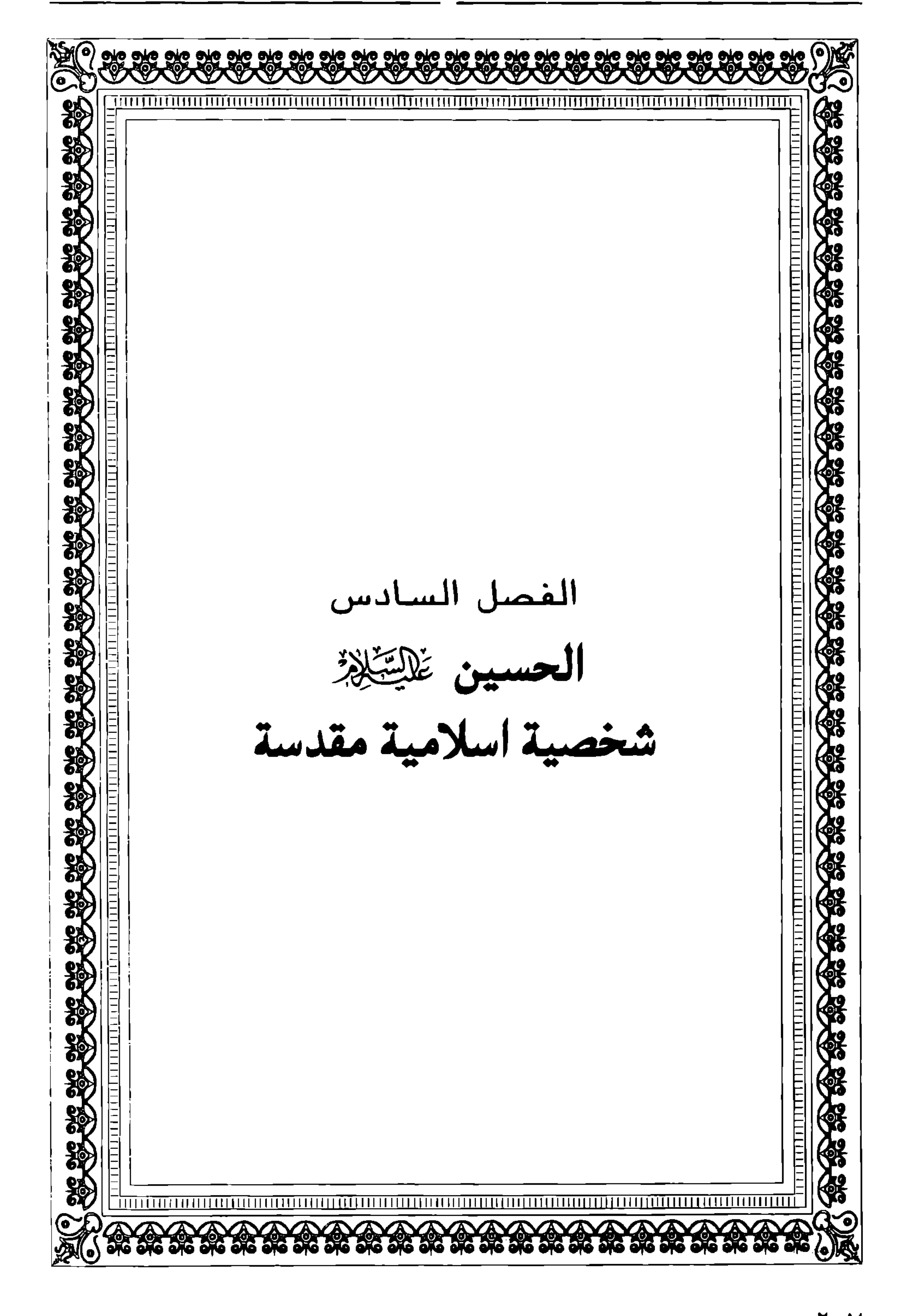
اما موقف الحسين عليه السلام فسنرى انه لا يختلف عن موقف أمير المؤمنين والحسن عليه السلام سواء في عهد معاوية أو بعيد هلاكه وبداية صعود يزيد إلى سدة الحكم.

لقد كان الدافع نفسه وهو الحفاظ على الاسلام ودرء خطر الانحراف عن المسلمين هو الباعث الوحيد لتضحيات الائمة الثلاثة عليهم السلام، ووقوفهم تلك المواقف الباسلة التي ايقظت الامة في النهاية وجعلتها تتطلع إلى المثل الاعلى الحقيقي، كلما سعت المثل الواطئة المتمثلة بطغاة الامة وفراعنتها لايقاعها بين براثنها وفي حبائلها، ولم يكن ذلك ادعاء وانما حقيقة واقعة سجلها لهم التاريخ رغم محاولات تزوير وطمس تلك الحقيقة.

ان تاريخنا ينبغي ان يدرس بعمق، وان تسجل نقاطه بدقة، وان لا تغلب علينا المواقف والافكار المسبقة، وان نعرف لكل ذي حق حقه، فلقد مضى من كانوا قد أثروا على هذا التاريخ وتركوا لمساتهم ونتائج اعمالهم على مصائر وحياة ابناء الامة الاسلامية وابناء البشرية عموماً، ووفدوا على ربهم، غير ان نظرتنا إلى مواقفهم وتصرفاتهم تجعل منا شركاء لهم اذا ما تبنينا تلك المواقف وعملنا على الدفاع عنها أو اعداء لهم اذا شجبناها واشرعنا اقلامنا وسيوفنا ضدهم وضد كل محبذ لهم.

ان بعدنا عن ذلك العصر، وعدم قيامنا بدور فيه ينبغي ان يكون عاملًا لجعلنا ننظر إلى الامر برمته نظرة واعية متفحصة متأنية بعيدين عن واقع الزلل والخطأ، وقبلها: تضعنا امام مهمة فهم تاريخنا ومناقشته على اساس حمل التصور الاسلامي الذي حمله رسول الله صلى الله عليه وآله، وعند ذلك سنعلم الكثير مما حاول العديدون طمسه واخفاءه.

وقبل ان نناقش تاريخنا الاسلامي ونتعامل معه كمسلمين، ينبغي ان نضع انفسنا امام مهمة فهم هذا الدين واهدافه وقيمه العليا فهماً واعياً اصيلًا غير مغلف بذلك الركام الهائل من التصورات والتصرفات الشخصية البحتة التي لعبت مصالح الطبقات الحاكمة المترفة دوراً كبيراً في تشكيلها والتحكم بها على مر العصور والى يومنا هذا، ولعب الجهل وعدم الادراك والتلقي اللاواعي عن (السلف) لمجرد انه سلف دون تمحيص أو تحقيق دوره ايضاً لجعلنا نقفل باب عقولنا ونعتمد على وعيهم وفهمهم ووسائلهم في الاستدلال والنظر والمناقشة، وبذلك فاننا نجعل سبيل الاختلاف والفرقة مفتوحاً على مصراعيه، ما دمنا نتعامل مع احداث حياتنا ووقائعها بهذه السذاجة وبهذه السلبية المقيتة.



الفصل السادس

الحسين عليه السلام شخصية اسلامية مقدسة

الحسن والحسين عليهما السلام
من خلال النصوص المقدسة

عندما يقول رسول الله ﷺ بخصوص ولديه الحسن والحسن عليهما السلام:

(هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم اني احبهما، فأحبهما وأحبب من يحبهما)[1].

(من احب الحسن والحسين فقد احبني ومن ابغضهما فقد ابغضني)[2].

(الحسن والحسين هما ريحانتاي من الدنيا)[3].

(عن انس بن مالك قال سئل النبي ﷺ أي ابنيك احب اليك؟ فقال: الحسن والحسين).

وكان يقول لفاطمة عليها السلام: ادعي لي ابني، فيشمهما ويضمهما اليه)[4].

---

(١) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي الترمذي، تحقيق عزت عبيد عباس/ مكتبة دار الدعوة حمص/ سوريه ٣٧٦٩ وموارد الظمآن الى ذوائد بن حبان، نور الدين علي بن ابي بكر الهيثمي، حققه محمد بن عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٢٣٤. وكنز العمال في سنن الاقوال والافعال ١/ ١٨ العلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، ضبطه وشرح غريبه الشيخ بكري حباني وصححه ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ صفوت الشعار، مكتبة التراث الاسلامي، حلب ٣٤٢٥٥. وتاريخ دمشق الكبير ١/ ٧ ابن عساكر دار المسيرة، بيروت ط ٢ ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م ٤/ ٣١٠. وجامع الاصول في احاديث الرسول تحقيق الشيخ عبد القادر الارناؤوط، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، دمشق ٩/ ٦٥٥٦.

(٢) سنن ابن ماجه ٣/ ١ للحافظ ابي عبد الله بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت/ لبنان ١٤٣، والهندي في كنز العمال ٣٤٢٦٨، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٤/ ٢٠٥/ ٢٠٧. وابن كثير في البداية والنهاية ٨/ ٣٥.

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١/ ١٠، الحافظ نور الدين علي بن ابي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت/ لبنان ٩/ ١٨٤، وكنز العمال، الهندي، ٣٤٢٦٢، والبداية والنهاية ٨/ ٢٠٧، وتاريخ تهذيب دمشق ٤/ ٢٠٧.

(٤) سنن الترمذي ٣٧٨٥ وجامع الاصول ٩/ ٦٥٥٤.

(اللهم اني احبه فأحبه «يعني الحسين»)[1]. . .

واحاديث كثيرة اخرى تشبه هذه الاحاديث. .

فقد تفسر اقواله ﷺ على انها من باب الشفقة والحب الابوي لابنيه الكريمين المعظمين. وقد شهدنا من مظاهر هذه الشفقة وهذا الحب الشيء الكثير ورويت لنا العديد من القصص الرائعة التي أرتنا كيف ان ذاته الشريفة كانت تفيض عليهما حباً وشفقة وعطفاً، وقد حفلت كتب السيرة والتاريخ بهذه القصص التي كانت تدل على الرابطة الحميمة بين الاب ﷺ وولديه، وهي جديرة بالاهتمام والمراجعة لادراك المنزلة الرفيعة التي كانا يحتلانها في نفسه ﷺ[2]،

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٦، البخاري الجعفي، ضبط وترقيم وتخريج وشرح الدكتور مصطفى اديب النجار، دار اليمامة، دمشق ٥/ ٣٣/ ٧/ ٢٠٥، وصحيح مسلم ١/ ٥ مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت ٨٨ ١، وسنن الترمذي ٣٧٨٣، وسنن ابن ماجه ٢ ٤ ١، والمسند للامام احمد بن حنبل المكتب الاسلامي ودار صادر، بيروت/ لبنان ٢/ ٢٤٩ ٠ ٢٩٢/ ٣٣١/ ٥٣٣ والتاريخ الكبير ١/ ٩ البخاري المكتبة الاسلامية ديار بكر/ تركيا ٣/ ٤٥٣/ ٤/ ٣١٥ وتاريخ بغداد مدينة السلام، للحافظ ابي بكر احمد بن علي الخطيب البغداد، دار الكتاب العربي/ بيروت ١/ ١٢٣٩، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق، ٤/ ٢٠٥/ ٩١٣، ٧/ ٣٥، وكنز العمال للهندي، ٣٤٣١١، وابن كثير/ البداية والنهاية ٨/ ٤٣ وغيرها.

(٢) عن ابي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ للحسين: افتح فاك، ثم قبله، ثم قال: اللهم اني احبه فأحبه (أخرجه ابو عمر) (ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، العلامة الحافظ محب الدين احمد بن عبد الله الطبري عن نسخة دار الكتب المصرية، ونسخة الخزانة التيمورية، مطبعة القدسي ومطبعة السعادة/ ص ١٢٢) وعن انس بن مالك، قال: وكان ﷺ يقول لفاطمة ادعي لي ابني فيشمهما ويضمهما اليه) ص ١٢٣ خرجه الترمذي والحافظ والدمشقي في الموافقات، وعن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يصلي والحسن والحسين يتواثبان على ظهره، فباعدهما الناس، فقال: ﷺ دعوهما بابي هما وامي من احبني فليحب هذين- خرجه ابو حاتم/ ١٢٣ (وكان رسول الله ﷺ يصلي بنا وكان الحسن يجيء وهو صغير فكان كلما سجد رسول الله ﷺ وثب على رقبته وظهره فيرفع النبي ﷺ رأسه رفعا رفيقا حتى يضعه) ص ١٢٥. وروى ابو سعيد في شرف النبوة عن عبد العزيز باسناده عن النبي ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ جالساً فأقبل الحسن والحسين فلما رآهما ﷺ قام لهما واستبطأ بلوغهما اليه فاستقبلهما وحملهما على كتفيه وقال: نعم المطي مطيكما ونعم الراكبان انتماص ١٣٠.=

ولكن عندما يصرح ﷺ بجلي العبارة:

(الحسن والحسين سيفا العرش وليسا بمعلقين)[1].

(الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)[2].

(اما حسن فله هيبتي وسؤددي واما حسين فله جرأتي وجودي)[3].

= وعن جابر قال: دخلت على النبي ﷺ والحسمن والحسين على ظهره وهو يقول: نعم الجمل جملكما ونعم العدلان او الحملان انتما. خرجه الغساني ص ١٣٢.

وعن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يصلي، حتى اذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فاذا ارادوا ان يمنعوهما قال ﷺ دعوهما فلما ان صلى وضعهما في حجره وقال: «من احبني فليحب هذين» خرجه الحافظ الدمشقي في معجم النساء ص ١٣.

عن يزيد بن زياد قال: خرج النبي ﷺ من بيت عائشة، فمر على بيت فاطمة، فسمع حسيناً يبكي فقال: الم تعلمي ان بكاءه يؤذيني. خرجه ابن بنت منيع ١٤٣.

(وخرج علينا رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين، هذا على عاتقه الواحد وهذا على عاتقه الآخر وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة حتى انتهى الينا، فقال رجل: يا رسول الله والله انك لتحبهما. فقال: من احبهما فقد احبني ومن ابغضهما فقد ابغضني، ابن كثير، البداية والنهاية ٨/ ٢٠٧.

وقد اقتصرنا على هذه الروايات، ولم نورد كافة المصادر التي وردت فيها، وهي مصادر موثوقة وعديدة تدلل وقائعها على شغف رسول الله ﷺ بولديه واعزازه لهما، كما تدلل على تعلقهما الشديد به ايضاً. وسنجد بعون الله ان تلك الرابطة، لم تكن من الروابط العادية المألوفة، وان فيها استثناء اكد عليه الرسول ﷺ نفسه، وكان (تحيزه) الى صفهما واشاراته وحديثه الواضح بشأنهما يدلل على انه كان يعدهما للعب ادوار عظيمة في المستقبل كما حصل فعلاً، وانقذا الامة من الدمار المحقق الذي كاد ان يشملها لولا ان تصديا عليهما السلام لافشال المخططات الاموية اللئيمة. وسنذكر بعون الله اقوال الرسول ﷺ الصريحة بشأنهما وشهادته لهما مسبقاً بانهما سيدا شباب اهل الجنة، ولا شك ان ذلك لا ينال الا بمواقف استثنائية جليلة.

(١) سنن الترمذي ٣٧٧. وكنز العمال، للهندي ٣٤٢٥١.

(٢) سنن الترمذي ٣٧٦٨، وجامع الاصول، ٩/ ٦٥٥٦، وسنن ابن ماجه ١١٨، وتاريخ بغداد ١١/ ٩٠، ومسند احمد ٣/٣-٦٢-٨٢، ومجمع الزوائد ٩/ ١٧٨-١٨٣-١٨٤، وموارد الظمآن ٢٢٢٤، وكنز العمال للهندي ١٧٧٩٥، ٣٤٣٤٦، ٣٤٦٨٢، والبداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٥١، ٨/ ٣٥، وتاريخ تهذيب دمشق لابن عساكر ٤/ ٢٠٩. ٢٥٥-٣١٧،٧/ ٣٦٨، ٩/ ٢٣١.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ ٢١٤، كنز العمال، الهندي ٢٤٢٥.

(حسين مني وانا من حسين، احب الله من أحب حسيناً. حسين سبط من الاسباط)[١].

(الحسن والحسين ابناي ومن احبهما احبني ومن احبني احبه الله ومن احبه الله ادخله الجنة ومن ابغضهما ابغضني ومن ابغضني ابغضه الله، ومن ابغضه الله ادخله النار)[٢].

(الحسن والحسين من احبهما احببته ومن احببته احبه الله ومن احبه الله ادخله جنات النعيم. رمن ابغضهما أو بغى عليهما ابغضته ومن ابغضته ابغضه الله ومن ابغضه الله ادخله نار جهنم وله عذاب مقيم)[٣].

فان هذه الاقوال منه صلى الله عليه وآله وأقوالًا كثيرة اخرى بخصوصهما ووالديهما أمير المؤمنين والزهراء عليهما السلام لا يمكن ان تفسر بانها من باب الشفقة والحب الابويين الخالصين، ففي هذه الاقوال اشارات كبيرة وعظيمة المدلول وصريحة، ورسول الله صلى الله عليه وآله لا ينطق عن الهوى، ولا يرمي الاقوال جزافاً، بل انه وقد اعطي البيان وجوامع الكلم وتحمل مسؤولية قيادة البشرية كلها ليعني كل كلمة يقولها. . ولو كان يقصد مجرد التعبير عن الحب الابوي الخالص، لاكتفى بالأقوال التي وردت على نمط الاحاديث التي ذكرناها في مقدمة هذا الفصل.

لقد كانت احاديث الرسول صلى الله عليه وآله ترديداً لاقوال القرآن الكريم بحق آل البيت عليهم السلام وترجمة واضحة لها.

---

(١) سنن الترمذي ٣٧٧٧، جامع الاصول ٩/ ٦٥٥٧، سنن ابن ماجه ١٤٤.

(٢) كنز العمال، الهندي ٣٤٢٨٦.

(٣) الهيثمي، مجمع الزوائد ٩/ ١٨١، الهندي، كنز العمال ٣٤٢٨٤،
ووردت احاديث اخرى مشابهة لمضمون هذه الاحاديث، واحاديث اخرى مختلفة، ومما يثير الانتباه كثرة الاحاديث الصحيحة الواردة بشأن الامامين الحسن والحسن عليهما السلام، وبفضلهما. وسنتطرق بصورة موجزة في هذا البحث الى ما ورد في فضلهما مع جدهما صلى الله عليه وآله وابيهما وامهما عليهما السلام في القرآن الكريم وشهادته لهما بانهما معصومان من الرجس، ووصايا الرسول صلى الله عليه وآله بالتمسك بآل البيت وهم خمسة الرسول صلى الله عليه وآله وامير المؤمنين عليه السلام، والزهراء والحسن والحسين عليهم السلام إضافة للتمسك بالقرآن الكريم، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله انهم الضمانة الوحيدة لجعل الامة تسير على خط القرآن دون انحراف، وكانت شهادة القرآن والرسول صلى الله عليه وآله بحقهما من الوضوح بحيث ان انكارها او تجاهلها يكاد يعد انكاراً للقرآن او الاسلام نفسه.

فآية المباهلة، وهي قوله تعالى في سورة ال عمران:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وأشار فيها سبحانه وتعالى إلى علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، حيث لم يدع رسول الله صلى الله عليه وآله احداً معهم، رغم وجود امهات المؤمنين في بيته، وجماعة عشيرته الاقربين، ويدل اختيار الرسول صلى الله عليه وآله لهم خاصة ان الامر كان بامر الهي والا لكان اختار غيرهم للمباهلة وقد وردت شهادة الهية واضحة بحقهم في آية التطهير في سورة الاحزاب:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

(وقد اورد الإمام جلال الدين السيوطي في تفسير هذه الاية من كتابه «الدر المنثور» عشرين رواية من طرق مختلفة في ان المراد من أهل البيت هنا انما هم الخمسة لا غير، وذكر ابن جرير في تفسيره خمس عشرة رواية باسانيد مختلفة في قصد الآية عليهم بالخصوص ـ وكانوا تحت كساء يماني ضمهم الرسول صلى الله عليه وآله اليه ولم يجز لام سلمة (بروايتها) بالانضمام اليهم ـ، قالت أم سلمة:

(في بيتي نزلت هده الآية، وفي البيت علي وفاطمة والحسن والحسين، فجللهم رسول الله صلى الله عليه وآله بكساء كان عليه ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

وكان صلى الله عليه وآله بعد نزول الآية كلما خرج إلى الفجر يمر ببيت فاطمة عليها السلام فيقول:

الصلاة يا أهل البيت انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا.

وفي رواية ذكرها ابن حجر في صواعقه:

انا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم. وقد دلت الآية على عصمتهم.

كما دلت على امامة أمير المؤمنين عليه السلام لانه ادعى الخلافة لنفسه وادعاها له الحسنان وفاطمة ولا يكونون كاذبين لأن الكذب من الرجس، اما آية المودة، وهي قوله تعالى في حم الشورى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً

نَزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ فقد اجمع المحدثون انها نزلت فيهم عليهم السلام في المدينة، بل هي ثابتة فيهم..

ونزلت آيات الابرار في سورة الدهر:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ...﴾ وفي علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وقد اجمعت الصحاح على ذلك. ووردت اسباب نزول الايات بعد ان اثروا عليهم السلام مسكيناً ويتيماً واسيراً لمدة ثلاثة ايام بقوتهم وظلوا جياعاً (فلما اصبحوا خط علي عليه السلام بيد الحسن والحسين واقبلوا إلى رسول الله ﷺ فلما ابصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما اشد ما يسؤوني ما ارى بكم، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطناها بظهرها وغارت عيناها، فساءه ذلك، فنزل جبرائيل عليه السلام وقال: خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك. فاقرأه السورة)[1].

دلالات الأحاديث النبوية على أهمية الأدوار التي أعد لها الحسنان

وقد بدت هذه الاحاديث وكأنها تشير بوضوح إلى ادوار مهمة اعد لها هذان الشخصان القريبان جداً من رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام، كما ورد في كتب الحديث والصحاح والسيرة..

وكأنَّ كلام الرسول ﷺ كان يستشرف المستقبل ويطل عليه، ولعل بعض ما انزله الله بشأنهما وعلمه رسوله ﷺ، جعله يشعر بالمرارة العميقة مما سيعانيانه ويلاقيانه من متاعب وآلام، بدلًا من ان يتبوّا المكانة القيادية التي اعدا لها بعيداً عن كل اثر أو تصور جاهلي أو مسحة جاهلية يمكن ان تطفو أو تلوح في سلوكهما، قريبين بل ومتماسين مع السلوك الامثل لقائد الرسالة ﷺ، وهكذا جاءت تأكيداته وتوصياته ﷺ للامة بأن تتولاهما وتتبى خطهما ولا تحيد عنه، وقد وجد انها الضمانة الوحيدة لحفظها من الانحراف والخطأ.

لقد كانت الادوار المعدة لهذين الامامين، ومن قبلهما والدهما عليه السلام، مع كل الغبن الشخصي الذي لحق بهم، واستدرجت الامة لتساهم به بوعي أو دون وعي،

---

(١) الكلمة الغراء، ط ٥، ص ١٦٩ وما بعدها.

تشير إلى انهم وحدهم كانوا كفيلين بتخليص الامة من ورطتها وانحدارها وسقوطها بيد من تعمدوا اذاها وشق صفوفها والاستئثار بمقدرات ابنائها، ففي كل مرة يقيض لهذا الانحراف ان يبلغ مدى يبدو وكأن لا علاج له، يتصدى الائمة عليهم السلام في الوقت المناسب لتصحيح المسيرة، وجعل الامة تعرف وتدرك الحال التي آلت اليها، وتنطلق على ضوء معرفتها الجديدة للمشاركة في مسيرة الاصلاح والتصحيح التي بدأوها هم عليهم السلام.

ولقد رأينا الدور الدقيق الذي لعبه أمير المؤمنين عليه السلام في البداية، وطيلة ايام حياته للتصدي للانحرافات المتعددة التي وقعت، وكان آخرها ذلك الذي كادت الامة ان تستسلم فيه لمعاوية، وقيامه بتربية جيل من المسلمين، على منهج رسول الله صلى الله عليه وآله في التربية الاسلامية الاصيلة بشكل جعلهم وكأنهم يعيشون عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ان ذلك الجيش الذي نهض مع أمير المؤمنين عليه السلام، وحارب تحت لوائه، وضحى بالكثير من ابنائه، رغم تكاسل العديد منه بعد ذلك تحت وطأة الظروف الشاقة، التي مر بها، وغالبية ذلك الجيش من أهل العراق عاد فانعقد تحت لواء الإمام الحسن عليه السلام ثانية ثم تخلى عنه بفعل الاحداث والمؤثرات، وفي مقدمتها الفعل الاموي المعاكس في الدس والوقيعة والاشاعة وغيرها، ثم عاد مرة اخرى يدعو الإمام الحسين عليه السلام وتخلى عنه بفعل ظروف القمع والشدة التي لجأت اليها السلطة الاموية بشكل مركّز، ثم عاد بعد ذلك ليطالب بثأر الامام عليه السلام ويدرك خطأ موقفه وموقف الامة كلها وعمق الانحرافات التي وصلت اليها، ثم ليظل وتظل الامة كلها في حالة وعي وتربص دائميين بعد ان ادركت عمق الهزيمة بل الهزائم التي الحقت بها على ايدي حكامها المتسلطين ومستعدة دائماً للتصحيح والتغيير.

وهكذا رأينا تربص كل منهما، الحكام وابناء الامة للآخر، عبر العصور. وقد ادرك هؤلاء الحكام المتمثلين بسلسة (الخلفاء) و (امراء المؤمنين)، وجلهم من المنحرفين المترفين واللاهين العابثين، ان قياد الأمة لن يسلس لهم طواعية، وانها لن تستجيب لهم ما دامت تضع امامها اولئك المضحين الاوائل في صدر الاسلام، واولئك القادة الذين ضحوا بأنفسهم ومصالحهم الشخصية من اجل ارساء ورفع مبادىء هذا الدين القويم.

فكانت الحرب المعلنة وغير المعلنة سجالًا بين الحاكمين المنحرفين والمحكومين على مرّ الزمن، وكانت التضحيات الاولى التي كان لها ما يبررها، وقد

اصبح ذلك عاملًا لتقديم المزيد من التضحيات الجديدة، وكانت التساؤلات تتجدد باستمرار عن سبب ايقاف هذا الدين عن اداء دوره الرسالي الطبيعي، واستبداله بذلك الذي رسم بالفرشاة الاموية، واريد له ان يظل نموذجا بديلًا عن النموذخ الاول الصحيح.

دور الإمام الحسين عليه السلام

لقد رأينا الدور الذي لعبه الإمام الحسن عليه السلام بتصديه لضعف الامة بموقف محتج، اراد به ان يريها الحال التي وصلت اليها، واوقف مؤامرة السعي لاستئصال آل البيت عليهم السلام. والطليعة الاسلامية الواعية التي تتبنى خط الرسول صلى الله عليه وآله وخطهم عليهم السلام، مما كان سيشكل محواً نهائياً للسلالة التي اضطلعت مع مربيها وابيها رسول الله صلى الله عليه وآله، واخذت على عاتقها نشر الدين واقامة حدوده مهما كلف الثمن وغلت التضحيات. فكان موقف الإمام الحسن عليه السلام هو الموقف المناسب امام هجوم معاوية الشرس، الذي ما كان ليمتنع فيه عن استخدام اشد الاساليب واقذرها، لا لاستئصال هذا البيت وحسب، وانما لتشويه سمعته امام المسلمين إلى الابد، من خلال الاقاصيص والافتراءات والاكاذيب التي كان سيعمد إلى نشرها عن طريق تجار دعايته الكثيرين من فقهاء الدولة والمحدثين والوعاظ والقصاصين وغيرهم.

ولم تكن الهدنة التي ارادها الإمام الحسن عليه السلام، إلا فرصة اراد فيها للامة ان تلتقط انفاسها وتفكر بواقعها على ضوء المعطيات الجديدة التي جعلتها تفكر بقبول معاوية حاكماً مطلقاً لها، بديلًا عن رسول الله صلى الله عليه وآله، غير مقيد بأي حد من حدود الاسلام أو تشريع من تشريعاته.

وسوف نرى ان دور الإمام الحسين عليه السلام رغم اختلاف الاداء عن اخيه وامامه من قبل لم يكن يختلف بمضمونه عنه، بل كانت له نفس المهمة المؤثرة الفاعلة في الامة، وان اختلاف الاداء (مهادنة الحسن عليه السلام لمعاوية) (وثورة الحسين عليه السلام على يزيد) كان لهما نفس الفعل والتأثير على الامة والعمل على ايقاظها، بل وهزها بقوة وانتشالها من الانحدار المخيف الذي استدرجت اليه بفعل القوة الاموية الغاشمة.

وهكذا... فلم يكن الحب الابوي الخالص وحده، هو الذي دفع رسول الله صلى الله عليه وآله، لاعلان وتأكيد ميله الشديد لهؤلاء الاشخاص، بل ان حب الله سبحانه

وتعالى، واصطفاءه لهم بهذا الشكل الواضح المعلن، هو الذي جعله يقوم بتحشيد المسلمين خلفهم، ومحضهم الود، ونزع الكره والعداوة من قلوب من استدرج لذلك الكره وتلك العداوة، ثم لتقبل امامتهم وقيادتهم في المستقبل دون تردد أو تحفظ. وكان وضوح الآيات القرآنية النازلة بحقهم، ووعد الله (جل وعلا)، ورسوله ﷺ لمن احبهم بدخول الجنة أو لمن ابغضهم بدخول النار، امر يستدعي الوقوف السريع والتأمل العاجل، فان هذه التصريحات خطيرة وحاسمة، ولا تحتمل التأويل والتفسير وتقليب وجهات النظر.

وعندما يؤكد الرسول ﷺ على الحسين عليه السلام: حسين مني وانا من حسين. احب الله من احب حسيناً. حسين سبط من الاسباط).. فانه ﷺ يشير اشارات واضحة إلى انتماء بعضهما لبعض، وانتمائهما معاً إلى الاسلام، وظهور كل منهما في الآخر، باعثاً للاسلام وناشراً له. الاول، رسول الله ﷺ، من خلال قيامه بمهمة عرض الدين الذي انزل عليه وتبليغه للناس كافة، والثاني، الحسين عليه السلام عرضه كصيغة وحيدة للحياة لا تقبل المساومة ولا بديل عنها، وقد لفت كلاهما نظر الامة إلى هذا الدين الذي يحقق سعادتها وانسجامها وتوازنها على مرالعصور، وكانت مهمة الحسين عليه السلام مكملة لمهمة رسول الله ﷺ في الجهاد والعمل والاقبال التام على الله وحده وعدم قبول سواه، مهما كان الثمن الذي يعرض امامهما في معرض المساومة على هذا الدين، وكانت تصوراتهما المشتركة الواضحة التي تنطلق من علم اكيد بهذا الدين، ومعرفة ويقين تامين بخالقهما، دعتهما لا يريان شيئاً كما عبر أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك إلا ويريان الله معه وفيه وامامه وخلفه..

ومثلما لم يتمكن احد من استنطاق رسول الله ﷺ عن سبب اندفاعه الشديد واللامحدود، وتعرضه للمخاطر الجمة ومنها الموت عدة مرات، لنشر هذا الدين وارساء دعائمه، لاننا نعتقد بصواب ما فعله رسول الله ﷺ ولاننا ادركنا صدق وصحة منهجه، فاننا عندما نرى نفس المنهج والتصور والاسلوب في الحياة والعمل لدى اولئك المقربين منه بالنسب والعقيدة والتصور، ونحاول دراسة الدوافع وراء كل الاعمال التي قاموا بها، والتي عندما نستعرضها نجد انها تسير على نفس النهج والاسلوب النبوي، فان علينا ان نسائل انفسنا:

لماذا لا يرى بعضنا نفس ما رآه الآخرون من انعكاس اسلوب الرسول ﷺ على اسلوب الائمة عليهم السلام؟ ونتساءل ايضاً:

هل استطاع احد ان يجد تناقضاً بين الاسلوبين واختلافاً بينهما؟

ام ان الاطروحة الاموية الخبيثة بان نموذج الدولة الاسلامية التي قادها رسول الله ﷺ لا يمكن ان تتكرر، ولا يمكن ان يقدر عليها (خليفة) أو حاكم ابداً، وان التضحيات الاولى لا يمكن تكرارها، بل اصبحت غير مبررة، مع وجود الدولة الاسلامية، بل انه جعل حتى النماذج المتأخرة والتي لا تستطيع اللحاق أو الوصول إلى النموذج الاول، غير ممكنة التكرار والوقوع مرة اخرى. وقد رأينا كيف سخر معاوية من يزيد في احدى القصص الملفقة، عندما قال له انه سيسير سيرة عمر بن الخطاب اذا ما اصبح خليفة وكيف ضحك منه معاوية وقال له بأنه أي معاوية، مع انه افضل من يزيد واكثر كفاءة منه، بذل جهده للسير على اسلوب عثمان أو طريقته فلم يتمكن. فكيف بيزيد وامثال يزيد..؟

وكيف اننا رأينا ان اشارات معاوية الموحية بأن من جاءوا قبلًا هم افضل ممن جاء بعدهم وانهم نماذج فريدة لا يمكن ان تتكرر. هذه الاطروحة الاموية الخبيثة في غياب الحكم الاسلامي الصحيح، وجدت من يبرر قبولها من بين الكثيربن، ووجدت من يصدقها حتى من بين الاسلاميين الواعين، وحتى يومنا هذا، حيث يندبون ذلك العهد الزاهر الاول الذي قدر له ان يظهر ولن يعود، واتاحت لاعداء الاسلام ان يصفوه بالمثالية التي تعني عدم امكانية التطبيق والبعد عن (الواقعية)، وانه يجب ان يركن في الزوايا أو على الرفوف مع ما سبقه من اديان اخرى ويترك شؤون الحياة ولا (يتدخل) فيها، ولا يهتم إلا بأمور (السَّماء)، ويدع ما لقيصر لقيصر.

ترجمة الإمام الحسين

فمن هو الحسين عليه السلام، هذا الذي اشاد به القرآن الكريم بشكل جازم، وتحدث عنه رسول الله ﷺ بهذا الاسلوب الواضح، واعلن انتماءه اليه، مع ان كل الامة تنتمي اليه هو ﷺ؟

اما نسبه: فهو الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وامه فاطمة الزهراء عليها السلام ابنة رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

جده رسول الله ﷺ،

وابوه أمير المؤمنين عليه السلام،

وامه فاطمة الزهراء عليها السلام.

ولد في المدينة وترعرع مع اخيه الحسن عليه السلام في حجر جدهما رسول الله صلى الله عليه وآله وامهما فاطمة الزهراء البتول عليها السلام وابيهما أمير المؤمنين عليه السلام.

لم يشب اسلامه عمل أو تصور جاهلي، وقد وجد نفسه منذ ان كان وليداً في الاحضان الطاهرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وابنته، ووصيه، وهو يرى بعيونهم ويعمل عملهم.

اما كيف نظر إلى الاسلام، وماذا رأى فيه، فيقيناً انه رآه كما رآه جده صلى الله عليه وآله وابوه ووالدته عليهما السلام، وقد كان حريصاً طيلة حياته على وضع النموذج الاول للمسلم المتمثل برسول الله صلى الله عليه وآله امام عينيه. وكانت حياة أمير المؤمنين عليه السلام تمثل النموذج المتوافق والمتطابق مع ذلك النموذج الاول، الذي يشخص امامه دائماً ايضاً.

وهكذا فإن الفترة التي عاشها في حضنيهما، وخصوصاً والده أمير المؤمنين عليه السلام وهي فترة طويلة امتدت منذ ولادته عام ٤ للهجرة، كانت كافية لبلورة تصوراته ووضوح نهجه على النمط الذي كانت عليه تصورات ونهج جده رسول الله صلى الله عليه وآله وابيه أمير المؤمنين عليه السلام.

فقد كان عمره عند استشهاد والده عليه السلام ستة وثلاثين عاماً قضاها كلها قربه عليه السلام، ولم يبتعد عنه حتى خلال الحروب التي خاضها. وقد شهد كل حوادث تلك الفترة المزدحمة بالاحداث الجليلة، بل وشارك ببعضها مشاركة فعلية، ونظر اليها نفس النظرة التي نظر اليها والده واخوه عليهما السلام من قبل، ولم يكن مجرد مشارك عادي بتلك الاحداث والحروب بحكم تحيزه إلى والده عليه السلام لانه والده، بل كان مشاركاً فعالاً بحكم انتمائه الحقيقي للاسلام ورؤيته الواضحة للحق، وهو يراه إلى جانب ابيه عليه السلام، وهو امر لم يكن ليغيب عن الناس العاديين، فكيف به هو الذي عرف الاسلام حق المعرفة، ويعرف والده عليه السلام حق المعرفة ايضاً، وكانت له مواقف مشهورة في الجمل وصفين، وفي معرض احدى خطبه لتحشيد الناس خلف قيادة أمير المؤمنين عليه السلام القى عليه السلام خطبة في أهل الكوفة جاء فيها:

(.. يا أهل الكوفة انتم الاحبة الكرماء والشعار دون الدثار، جدوا في اطفاء ما وتر بينكم وتسهيل ما توعر عليكم. إلا ان الحرب شرها وريع. وطعمها فظيع فمن اخذ لها اهبتها، واستعد لها عدتها ولم يأل كلومها قبل حلولها فذاك صاحبها ومن

عاجلها قبل اوان فرصتها واستبصار سعيه فيها فذلك قمن ان لا ينفع قومه وان يهلك نفسه)[١].

وإذا ما علمنا ان عمره عند استشهاد الإمام الحسن عليه السلام كان يناهز الخامسة والاربعين عاماً، وان فئات عديدة من المسلمين رأت فيه قائداً قد ينقذها من الشر الاموي، فراسلته وطلبت منه ان يثور ضد معاوية، ادركنا المنزلة التي كان يتمتع بها لدى جماهير المسلمين وكيف كانت الامة تتطلع اليه كأمل وحيد ضد تسلُط الدولة الباغية، قادر على اعادتها إلى خط الاسلام الصحيح، مثلما رأت في ابيه واخيه عليهما السلام املها من قبل، فهو نتاج خبرة استثنائية توفرت عواملها ومكوناتها في حياة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وقد تعاهدها بالرعاية والاهتمام منذ البداية، خصوصاً وانه قد اتيح له في الفترات التي جرد فيها من المسؤوليات القيادية الاولى وقت كاف لرعاية ولديه عليهما السلام وتوجيههما واعدادهما على نهجه وطريقته بشكل متأن متقن، وكان نضجه المبكر كفيلًا بجعله يتحمل مسؤولية القيادة مع اخيه في ذلك الجو العاصف الذي تولد اثر وفاة والده عليه السلام.

ومن الطبيعي ان يسعى معاوية للتعتيم على شخصيته ويحاول تصويره على انه شخص صاحب نزوات ومطامع شخصية لا غير، وانه لا يتمتع بأي غطاء جماهيريٍّ، وان كل مؤهلاته هي قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وانتماؤه إلى عبد مناف، وحاول مقابل ذلك ان يوضح للمسلمين بانه يتمتع بنفس تلك القرابة، وانه يمتلك مؤهلات اكثر منه، كما انه يمتاز عنه وعن اخيه وابيه أمير المؤمنين عليه السلام بانه حقق وحدة الجماعة، وهذا ما تشدق به دائما، وحاول ان يبرر به شرعية وجوده (خليفة). وعلى اساس هذه المقاييس التي وضعها معاوية، فان يزيد كان يتمتع بقدر كبير منها، ولا بدَّ انه مؤهل للخلافة مثل ابيه رغم عدم امتلاكه (كفاءة) ذلك الاب الحاذق.

لقد روى لنا ابن كثير ان الحسين عليه السلام قد:

(.. صحب أَباه وروى عنه وكان معه في مغازيه كلها في الجمل وصفين، وكان معظماً موقراً لم يزل في طاعة ابيه حتى قتل)[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد: ١/ ٢٨٣.
(٢) البداية والنهاية، ٨/ ١٥٣.

(وقد حفظ الحسين ايضاً عن النبي ﷺ وروى عنه)[1].

كان الحسين عليه السلام نتاجاً فريداً لجده ﷺ ووالده عليه السلام، وكان يمثّل امتداداً طبيعياً لهما، واذا ما تفحصنا حياته ودرسناها بدقة، نجد انه كان يبدو وقد اعد للعب دور خطير، بل اخطرها على الاطلاق في حياة الامة، يعيدها فيه إلى خطِّها الصحيح الذي حاول الحاكمون الامويون حرفها عنه بشكل معلن وصريح، ومما يؤكد ذلك ما حصل فعلًا، وما سبق من اخبار مؤكدة عن رسول الله ﷺ بشأنه وشأن استشهاده، مما وقع بعد ذلك بالفعل، وكان له اكبر الاثر في تصحيح المسيرة الاسلامية على مر الازمان، كلما رأى طاغية أو عدو للاسلام ان يعلن انحرافه على رؤوس الاشهاد وامام الامة كلها، وسوف نتعرض ان شاء الله لهذه الروايات في الوقت المناسب عند استعراض اهداف ثورته عليه السلام ضد النظام الاموي الجائر.

البيئة التي عاش فيها الحسنان

وقد وردت روايات عديدة عن تلك الطفولة الحافلة التي نعم بها الحسنان عليهما السلام في احضان رسول الله ﷺ وحدبه ورعايته لهما، فقد كان ﷺ يفيض حباً ورقةً وحناناً عندما يقبلان عليه أو يشم ريحهما، فمرة يقطع خطبته امام جمع المسلمين وينزل عن منبره ويتلقاهما ويحملهما، ومرة يطيل سجوده ليتيح لهما فرصة أَطول للبقاء على ظهره الشريف، وتارة تفيض عيناه بالدموع عندما يرى ببصيرته الثاقبة، وبما اعلمه به جبرائيل عن الله ما سيلقيان في سبيل دين الله، وهما اعز خلقه لديه، فتلك الحياة رغم انها حياة شظف وتقشف إلا انها كانت مليئة بدفء العاطفة العظيمة التي حملها رسول الله ﷺ لهم.

فلم تكن حياة الترف هي التي الفاها أو عرفاها في يوم من الايام، ولعل المرء ليعجب كيف عاشا في ظروف التقشف التي عاشاها مع والدتهما ووالدهما عليهم السلام.

روى الزمخشري في تفسير سورة الدهر في الكشاف عن ابن عباس:

(ان الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما رسول الله ﷺ في ناس معه فقالوا: يا ابا الحسن لو نذرت على ولديك. فنذر علي وفاطمة وفضة وجارية لهما،

---

(١) شيخ الاسلام ابن حجر العسقلاني، الاصابة في تمييز العصابة، ط الكليات الازهرية ج ٢ ص ٢٤٨.

ان برئا مما بهما ان يصوموا ثلاثة ايام، فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة اصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً، واختبزت خمسة اقراص على عدددهم، فوضعوها بين ايديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائلٌ، فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، اطعموني اطعمكم الله من موائد الجنة، فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء واصبحوا صياماً، فلما امسوا وضعوا الطعام بين ايديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، ووقف عليهم اسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فلما اصبحوا اخذ علي بيد الحسن والحسين واقبلوا إلى رسول الله ﷺ فلما ابصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع. قال: ما اشد ما يسؤوني ما ارى بكم، وقام فانطلق معهم، فرأى فاطمة في محرابها، قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها، فساءه ذلك. فنزل جبرئيل عليه السلام وقال: خذها يا محمد. هناك الله في أهل بيتك، فأقرأه السورة[1].

وقال علي: (لقد تزوجت بفاطمة وما لي فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه ناضحنا بالنهار وما لي خادم غيرها).

وقال هارون بن عنترة عن ابيه:

دخلت على علي بالخورنق وهو فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه، فقلت: يا أمير المؤمنين، ان الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيبك وانت تفعل هذا بنفسك؟ فقال: والله ما ارزأكم شيئاً وما هي إلا قطيفتي التي اخرجتها من المدينة.

وقال يحيى بن سلمة:

استعمل علي عمرو بن سلمة على اصبهان فقدم ومعه مال وزقاق فيها عسل وسمن فارسلت ام كلثوم بنت علي إلى عمرو تطلب منه سمناً وعسلًا، فأرسل إليها ظرف عسل وظرف سمن، فلما كان الغد خرج علي واحضر المال والعسل والسمن ليقسم، فعد الزقاق فنقصت زقين فسأله عنهما فكتمه وقال: نحن نحضرهما. فعزم عليه إلا ذكرهما فاخبره. فارسل إلى ام كلثوم فأخذ الزقين منها فرآهما قد نقصا، فأمر

(١) الفصول المهمة، الامام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، ط ٥ مكتبة الداوري، قم ص ٢٣١.

التجار بتقويم ما نقص منهما فكان ثلاثة دراهم فأرسل اليها فأخذها منها ثم قسم الجميع.

وقال سفيان:

ان علياً لم يبن آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، وان كان ليؤتى بحبوبه من المدينة في جراب.

وقيل:

انه اخرج سيفاً له إلى السوق فباعه وقال: لو كان عندي اربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول: لا احب ان يدخل بطني إلا ما اعلم.

وقيل:

ان علياً رؤي وهو يحمل في ملحفته تمراً قد اشتراه بدرهم فقيل له: يا أمير المؤمنين إلا نحمله عنك؟ فقال: أبو العيال احق بحمله.

وقال عمر بن عبد العزيز:

ازهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب[1].

فهل كانت الحياة التي عاشها الحسنان في ظل أبيهما عليه السلام شبيهة بتلك الحياة المترفة التي نشأ عليها اكثر ابناء (الصحابة)..؟

وهل كانت تلك الحياة المتقشفة التي كانت تبدو فيها تلك العائلة وكأنها تعيش حياة أفقر الناس، سوى اعداد لافرادها منذ البداية ليشعروا بما شعر به عائلها الكريم تجاه المحرومين والمضطهدين والمستضعفين، وليعملوا على الأخذ بأيديهم نحو عدالة الاسلام وخلق الاسلام، ولكي يزيلوا كل حيف وظلم عنهم في ظل ظروف صحية لا مكان فيها للظلم؟

لقد كان ذلك جانب من حياتهما، اقترن بجوانب اخرى اهمها اعدادهما على يديه وعلى خطاه لترسم تلك الخطى الاولى التي قادت المسلمين منذ البداية واشعرتهم انهم على اختلاف الوانهم ومستوياتهم واجناسهم امة لها كيانها العظيم الخاص.

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٢٦٣/ ٢٦٥.

فلا عجب ان يرى فيهما المرء جدهما صلى الله عليه وآله وسلم واباهما عليه السلام، ولا عجب اذا ما عرضا على الاسلام ان نجد فيهما مثالًا حياً له، يجسدانه في كل امورهما وتصرفاتهما.

فهل ثمة مجال للمقارنة بعد الشهادات الواضحة للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن بأنهما مبرءان من الرجس والعيوب وانهما سيدا شباب أهل الجنة، بمن لا نستطيع ان نقارنه حتى بادنى المسلمين فهما والتزما بالاسلام، فكيف قال معاوية بعد ذلك: (انه لم يبق إلا ابني وابناؤهم، فأبني احب الي من ابنائهم، وكأن المسألة هنا مفاضلة بين ابناء متساوين في الكفاءات والامكانات...، وكأن القرآن الكريم ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد شهدا ليزيد بما شهدا به للحسين، ثم يأتي معاوية (فيجتهد) (ليرى) ان يزيد اولى من الحسين بالخلافة، وانه الوحيد الكفيل بتحقيق مصالح الامة ووحدتها، ويأتي بعده موظفو الدولة من الفقهاء، و (العلماء) و(الصحابة) ليفتوا بجواز امامة المفضول، وعدم جواز الخروج على الإمام الفاسق، وعدم فسخ البيعة لأي سبب من الاسباب، وجواز انعقادها بشخص واحد. لتظل ترددها بعدهم دون وعي اجيال من (الخلف) التي رأت في (السلف) لمجرد انه سلف قمة في كل شيء ولم يكلفوا انفسهم عناء البحث والدراسة والنظر، ولم يدركوا الظروف التي جاء بها معاوية نفسه إلى الحكم، بعد ان مهد لقتل عثمان، ليجعلها هرقلية كلما مات هرقل جاء هرقل على حد تعبير عبد الرحمن بن أبي بكر.

بعض جوانب شخصية الحسين عليه السلام

واذا ما اردنا تسجيل حياة الحسين عليه السلام، نجد ان ذلك ربما اقتضانا كتاباً منفرداً قد يتيح لنا الاحاطة ببعض جوانب شخصيته، وقد نستطيع رسم بعض ملامحها. على ان اكثر ما يساعدنا على فهم هذه الشخصية الفريدة هو سلوكها خلال فترة الثورة، ايام معاوية ويزيد، وهذا ما لفت الانظار بشكل استثنائي إلى حياته في تلك الفترة.

ان فهم دوافع الثورة لدى الإمام الحسين عليه السلام وما حققته بعد ذلك، قد تكون مفتاحاً لفهم تلك الشخصية الكبيرة.

وعندما نستمع إلى اقوال بعض من تحدث عنه[1]:

---

(١) انظر تاريخ ابن عساكر وتاريخ الاسلام للحافظ الذهبي.

(كان الحسين افضل أهل زمانه في العلم والمعرفة بالكتاب والسنة).

وقول البخاري في تاريخه:

(إن الناس كانوا يجتمعون اليه ويحتفون به وكأن على رؤوسهم الطير، يسمعون منه العلم الواسع والحديث الصادق وكان مجلسه في جامع جده رسول الله صلى الله عليه وآله وله حلقة خاصة به).

قال ابن عباس:

(الحسين من بيت النبوة وهم ذروة العلم)،

وقال معاوية لرجل من حزبه استأذنه في السفر إلى الحجاز:

(اذا دخلت مسجد رسول الله، فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير، فتلك حلقة أبي عبد الله الحسين)[١].

(ومن اعدل من الحسين في زمانه في امامته وعدالته في قتال أهل الاراء)[٢].

فان اول ما يتبادر إلى اذهاننا هو قيامه عليه السلام باستثمار الاوقات الثمينة التي قضاها مع ابيه عليه السلام ينهل من علمه، ويتخلق باخلاقه ويعد نفسه للدور القيادي المرسوم له، ليبقى على ذلك الدفق من العلم والمعرفة الالهيين الصحيحين غير المحرفين والمزورين أو المرسومين بالريشة الاموية المضللة، لكي تظل الامة على اتصالها الوثيق بالخط الرسالي الاول.

لقد فات المؤرخين ان يذكروا هذه النقطة بوضوح وتركيز وهي ان آل بيت محمد صلى الله عليه وآله هم ورثة العلم والامامة كما صرح بذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، وصرح بذلك وصيه بشكل واضح لا لبس فيه، وهم أجدر من يقوم بمهمة قيادة الامة وتقويمها وتربيتها، والتضحية في سبيل ذلك الدين الذي رفعهم الله به وجعلهم في مقدمة الناس، وان واجب الحسين عليه السلام تجاه الامة لم يكن ليقل عن واجب ابيه أمير المؤمنين عليه السلام عندما تسلم مسؤولية قيادة الامة باعتباره من اكثر المؤهلين الموجودين لذلك، ولم يهتموا إلا بالتعرض للثورة باعتبارها حدثاً مقطوعاً لا علاقة له بأية احداث اخرى، وربما باعتبارها مطالبة شخصية بالخلافة، بل وشقا لعصا

(١) د. عائشة عبد الرحمن، سكينة بنت الحسين، دار الكتاب العربي، ، لبنان ١٩٧٩ ص ٢٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢٤٠.

المسلمين، وربما اعتبر بعضهم الحسين عليه السلام مجرد ابن لاحد الصحابة قد لا يتفوق على ابن (الصحابي) الآخر يزيد إلا ببعض المؤهلات العلمية.

لقد كانت الثورة حدثا ضخماً، حتى انها جعلت الكثيرين في غمرة التأثر بوقائعها واحداثها ونتائجها، لا يرون شخصية قائدها إلا من خلال ادائه وتصرفاته اثناء هذه الثورة منذ بداية اعلانها واستشهاده واصحابه عليه السلام في واقعة الطف، ولم يهتموا بدراسة الجوانب الاخرى التي حفلت بها حياته والتي جعلت من الثورة امراً محتوماً، ما دام الحسين عليه السلام قد كان هو الحسين بكل تلك المواصفات التي كان عليها، والتي اشاد بها القرآن الكريم والرسول العظيم صلى الله عليه وآله وكل من شهد الحسين وعاصره.

لقد كان الحسين عليه السلام افضل أهل زمانه في العلم والمعرفة بالكتاب والسنة، كما شهد بذلك معاصروه وحتى اعداؤه والذي كان محط اهتمام المسلمين وحفاوتهم لعلمه الواسع وحديثه الصادق، والذي نهل العلم من مصادره الاصيلة الاولى مباشرة، والذي حفظ القرآن واستوعبه في سنوات عمره الاولى، كما اجمع على ذلك كتاب سيرته ومؤرخوه، ما كان لينظر إلى ما كان يحدث نظرة اللامبالاة وعدم الشعور بالمسؤولية، وكان يعلم انه بقيامه لاكثر من عشرين عاما بعد وفاة والده عليه السلام مع اخيه وبعده ايضا بمهمة نشر الاسلام وتوضيحه وترسيخه واعداد اجيال من العلماء تتخرج على يديه خلال هذه الفترة الطويلة كان يقوم ايضاً بمهمة اعداد الامة كلها لكي تنظر إلى هذا الدين كأمل وحيد ينقذها من كل مهاوي الشرك والعبودية والطاغوت لتدرسه وتتأمله وتخوض في شؤونه، لتخلصه من كل ما الحقه به اعداؤه ونسبوه اليه، ولكي توصل إلى الاجيال القادمة حصيلة ضخمة غير مقطوعة ولا مشوهة من التصورات الصحيحة الواضحة غير الدخيلة عن هذا الدين الذي اوشك ان يحرفه الامويون ويجعلوا منه دينا آخر لا يحمل إلا اسمه من خلال العمليات الضخمة الدؤوبة لتأويل القرآن، والروايات والاحاديث الملفقة والاقاصيص والاسرائيليات الدخيلة، وحياة الترف التي اتصفت بها الطبقة الحاكمة ومؤيدوها على حساب الاغلبية المظلومة المضطهدة من ابناء الامة.

فلم تكن حياته عليه السلام مع جده صلى الله عليه وآله وابيه عليه السلام بلا جدوى، ولم يكن متلقياً عادياً للدين، وانه لم يستفد من معطيات الحياة الحافلة، المليئة بالاحداث الجسام، التي عاشها مع جده صلى الله عليه وآله وابيه واخيه عليهما السلام، وانما كان صاحب مدرسة هي مدرسة الرسول صلى الله عليه وآله ووصيه عليه السلام.

دور الإمام الحسين عليه السلام

امتداد لدور النبي صلى الله عليه وآله والوصي عليه السلام

ولا يستطيع احد ان يدعي وجود أي اختلاف أو تناقض بين نظرته وتصوره للاسلام، ونظرة وتصور النبي صلى الله عليه وآله والوصي عليه السلام، فهي امتداد لهما، بل انهما الرائدان الوحيدان والمصدران الاساسيان لها، تلقاها منهما مباشرة دون أية وساطة.

واذا ما استعرضنا نظرة الرسول صلى الله عليه وآله إلى الدين الذي انزل عليه، وطبيعة ممارسته وسيرته الحافلة بالتضحيات في سبيله أو اذا ما استعرضنا الوضوح الخارق الذي اتسمت به نظرة أمير المؤمنين عليه السلام بعده، وسلوكه المطابق لسلوك ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وآله، فاننا لا بد ان نرى نتاج ذلك، نظرة وتصوراً مماثلين، يحملهما الائمة الاطهار عليهم السلام من بعدهما ابتداء من الإمام الحسن عليه السلام وانتهاء بآخر الائمة عجل الله تعالى فرجه الشريف[1].

ولذلك فان اولئك الذين تقبلوا الصورة التي عرضت علينا لسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسنته على انهما مطابقان للقرآن، ولم يروا عليه أي مأخذ باعتبارهم مؤمنين به وبعصمته، عندما درسوا سيرة الاشخاص العاديين سواء الذين تولوا الخلافة منهم أو غيرهم رأوا في عدم قدرتهم على السير بسيرة الرسول صلى الله عليه وآله حجة على أمير المؤمنين عليه السلام، ومن جاء بعده من الائمة عليهم السلام، باعتبار ان سيرة الرسول المعصوم لم يكن يقدر عليها غيره، متناسين ما صرح به صلى الله عليه وآله بخصوص خلفائه ايضاً، وفي هذا تأكيد على ان سيرتهم تطابق ما جاء في القرآن، وتطابق السنة النبوية، وهي تحمل نفس عوامل العصمة والتحيز التام للاسلام والشعور العالي بالمسؤولية الذي جعلهم

(١) أخرج الصدوق في الاكمال بالاسناد الى الامام الصادق عليه السلام: عن آبائه مرفوعاً الى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ان الله عز وجل اختارني من جميع الانبياء، واختار مني علياً وفضله على جميع الاوصياء، واختار من علي الحسن والحسين، واختار من الحسين الاوصياء من ولده، ينفون عن الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الضالين، المراجعات ٢١٣ واخرج الصدوق في الاكمال ايضاً بالاسناد الى سلمان: قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وآله: فاذا الحسين بن علي على فخذه وهو يلثم فاه، ويقول: انت سيد ابن سيد، انت امام ابن امام، اخو امام ابو الائمة، وانت حجة الله وابن حجته وابو حجج تسعة من صلبك تاسعهم قائمهم، المراجعات ٢١٢.

لا يرون شيئاً إلا ويرون الله معه وفيه وقبله وبعده كما عبر عن ذلك أمير المؤمنين عليه السلام [١].

لقد أعد رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل الله (جل وعلا) لحمل واداء وتوضيح هذه الرسالة، وكانت مؤهلاته متفردة بلا شك، كما أن اوصياءه قد أعدوا للاستمرار بحمل هذه المهمة، التي لم يكن يراد لها ان تنقطع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله مباشرة أو بعد سنوات قليلة أو حتى بعد مئات أو آلاف من السنين، وانما إلى ان يرث الله الارض ومن عليها، وكان لا بد لها من اناس يفهمونها فهماً دقيقاً مستوعباً، لا يتأثر بالهوى أو المزاج أو التوجه البشري الارضي البحت، وكان لا بد من مسحة الهية تطبع اولئك الذين اعدوا لأخطر مهمة، وهي مهمة قيادة الامة وتربيتها واعادتها إلى الصواب، كلما عنَّ لأحد ان ينحرف أو يميل بها.

ومع ان التصريحات القرآنية المبينة، واقوال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله التي صدرت بذلك الكم الكبير بحق تلك الصفوة المختارة لهذه الادوار الاستثنائية الكبيرة، والتي بلغت من الوضوح والكثرة ان متجاهلها ربما يعد كالمتجاهل بالقرآن والكافر به رغم وضوح آياته، إلا انها ينبغي ان تكون دافعاً لدراسة حياتهم دراسة موضوعية جادة لتكتشف مدى تطابق تصرفاتهم واوضاعهم مع تصرفات واوضاع الرسول صلى الله عليه وآله، وهو مقياس لا يمكن ان يرقى الشك إلى سلامته.

لقد أعد الائمة عليهم السلام لمهام خطيرة، وقد انجزوها باداء متكامل منسق، لا يحمل أي تناقض، رغم ما قد يبدو احياناً لبعض من لم يتعمقوا في الدراسة والبحث من تناقض ظاهري في سلوك الائمة ومواقفهم. حتى لكأننا أمام إمام واحد عاش تلك الفترة كلها وكان يقوم بدور مناسب لكل حالة ولكل وضع مرت به الامة الاسلامية، وتعرضت له.

---

(١) عن الرسول صلى الله عليه وآله قوله: (يا ايها الناس اني تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي اهل بيتي) وقال صلى الله عليه وآله: (اني تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي اهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض. فانظروا كيف تخلفوني فيهما). اخرجهما الترمذي والنسائي عن الجابر. والمتقي الهندي في اول باب الاعتصام بالكتاب والسنة من كنز العمال ص ٤٤ ج ١. عن زيد بن ارقم وهو الحديث ٨٧٤ من احاديث كنز العمال في ص ٤٤ ج ١ وورد الحديث بصيغ مختلفة عن طريق رواة ثقاة معتمدين، يراجع كتاب المراجعات ١٩/ ٢٥.

لقد كانوا بالتصاقهم بالاسلام، وجعله يستحوذ على كل مشاعرهم وافكارهم وتصرفاتهم، معصومين عن الخروج عليه حتى بابسط الامور الجزئية العادية، لكي تبقى عصمتهم وتحيزهم التام له نموذجاً مرموقاً ومشاراً اليه من قبل الامة كلها، ولكي تظل مواقفهم مثلًا اعلى لكل فرد من ابناء الامة على امتداد العصور، ولكي تكون استكمالًا وامتداداً للخط الرسالي الاول لتنظيم متغيرات الحياة ومتطلباتها وشؤونها.

(فعصمة الإمام عبارة عن نزاهة في كل فكرة، وكل عاطفة وكل شأن. والنزاهة في كل هذا عبارة عن انصهار كامل مع مفاهيم واحكام الرسالة الاسلامية في كل مجالات هذه الافكار والعواطف والشؤون)[1].

ويحسن في هذا المجال ان نتمعن جيداً في معنى الاحاديث الواردة بشأن الائمة عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله ونرى مصاديقها في المسيرة الشخصية لكل امام وكل ما حفلت به حياتهم، وكل ما رافقها من احداث وملابسات وظروف.

وعلينا ان نتساءل: ما دامت الاحاديث والتأكيدات النبوية بشأنهم لم تنطلق من عاطفة مجردة أو ميل شخصي اليهم، مع اننا نلمس تلك العاطفة وذلك الميل من الرسول صلى الله عليه وآله لأقرب الناس اليه وكأنه امر الهي موصى به. وهو امر الهي موصى به فعلًا كما صرَّح بذلك الرسول صلى الله عليه وآله باكثر من مناسبة، لعلنا لن نستطيع احصاء كل الاحاديث التي تؤكد على ذلك بهذه الدراسة الخاصة، فاننا نجد حثاً وتأكيداً على انهم في مقدمة أهل الجنة، بل وسادتهم، وانهم الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وان أمير المؤمنين عليه السلام من الرسول صلى الله عليه وآله بمنزلة هارون من موسى. وان من تولاه فقد تولى النبي صلى الله عليه وآله ومن تولى النبي فقد تولى الله وانهم الثقل الاكبر وان من تمسك بهم لن يضل ابداً وانهم اعلم الناس بالسنة وان المهدي من ولدهم، وقبلها كانت تلك الشهادات الالهية الصريحة التي اكدت ان الله قد اصطفاهم واجتباهم واذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ووعدهم بالجنة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

(.. انا وعلي ابوا هذه الامة، من عرفنا فقد عرف الله، ومن انكرنا فقد انكر الله عز وجل، ومن علي سبطا امتي وسيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين، ومن

---

(١) اهل البيت ٧٥.

ولد الحسين تسعة طاعتهم طاعتي ومعصيتهم معصيتي، تاسعهم قائمهم ومهديهم)[١].

واخرج الصدوق في الاكمال ايضاً بالاسناد إلى سلمان، قال:

(دخلت على النبي ﷺ فاذا الحسين بن علي على فخذه وهو يلثم فاه ويقول: انت سيد ابن سيد، انت امام ابن امام، انت امام ابو الائمة، وانت حجة الله، وابن حجته، وابو حجج تسعة من صلبك تاسعهم قائمهم)[٢].

وقال ﷺ:

(أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهَّرون)[٣].

وقال ﷺ:

(ان الله عز وجل اختارني من جميع الانبياء، واختار مني علياً وفضله على جميع الاوصياء، واختار من علي الحسن والحسين واختار من الحسين الاوصياء من ولده ينفون عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الضالين).

وقال ﷺ:

(أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد العلم فليأت الباب)[٤].

وقد نظر ﷺ يوماً إلى علي وفاطمة والحسن والحسين، فقال ﷺ:

(انا حرب لمن حاربكم، وسلم لمن سالمكم)[٥].

وقد اخرج ابن سعد (كما في ص ٩١ من الصواعق) عن علي:

اخبرني رسول الله ﷺ ان اول من يدخل الجنة انا وفاطمة والحسن والحسين. قلت: يا رسول الله فمحبونا؟ قال: من ورائكم). ص ٤١ الفصول المهمة.

واخرج: (ابن حنبل والترمذي (كما فى ص ٩١ من الصواعق) أنه ﷺ اخذ بيد الحسين وقال:

(من احبني واحب هذين واباهما وامهما كان معي في درجتي يوم القيامة)[٦].

---

(١) المراجعات: ٢١١.

(٢) - (٥) الاكمال، الصدوق: ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٠، ٢٩٩.

(٦) الفصول المهمة: (٤١، ٤٢).

وقال ﷺ:

(إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق).

وقال ﷺ:

(في كل خلف من امتي عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين، وتأويل الجاهلين إلا وان ائمتكم وفدكم إلى الله فانظروا من توفدون)] نقله ابن حجر في صواعقه، الفصرل المهمة ص ١٧٦.

وقال ﷺ:

(الزموا مودتنا أهل البيت، فانه من لقي الله وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده، لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا).

وقال ﷺ:

(معرفة آل محمد براءة من النار وحب آل محمد جواز على الصراط والولاية لآل محمد امان من العذاب)(١).

فما دامت عشرات الآيات والاحاديث الصحيحة قد وردت بحقهم بذلك الوضوح الخارق وتلك الصراحة، اليس من حق كل المسلمين ان يتساءلوا: اليس ذلك لأنهم قد كرسوا واعدوا من قبل الله سبحانه وتعالى للعب ادوار استثنائية كبيرة في حياة الأُمة، كما كرس رسول الله ﷺ واعد من قبل؟ لماذا كان ذلك الاهتمام الالهي بهم؟ ولماذا كان ايضاً ذلك الاهتمام الاستثنائي من قبل رسول الله ﷺ بهم؟ الم يكن دور الامامة ضرورياً لاستمرار دور النبوة للاخذ بيد هذه الامة التي قد تتقاذفها بل تقاذفتها فعلًا امواج الفتن والانحراف والمطامع؟ وهل قيل ما قيل فيهم دون سبب أو هدف معين، ولمجرد القول؟

لا شك ان الامر ليس كذلك، وعلينا بالتأكيد ان نجعل تلك الشهادات الحقَّة الصادرة عن الله ورسوله ﷺ موضع تأمل ودراسة جديتين، وان لا تنظر اليها بذلك الاهمال المقصود والنظرة المعادية التي اراد الامويون جرنا اليها، وكذلك من جاء بعدهم من طلاب الزعامة والحكم بفعل مدبر مقصود، إلى درجة انهم ارادوا تناسي

---

(١) نفس المصدر: (١٧٤، ١٧٧).

كل ذلك، ولو اتيحت لهم فرصة محو الآيات الصادرة بحقهم من القرآن الكريم لفعلوا، غير انهم ارادوا (تأويلها) وتفسيرها بما يتناسب ومصالحهم، ففعلوا ذلك، ولن نجد ان ذلك امرا مستغرباً منهم وقد ذهبوا بعداوتهم إلى ان جعلوا سب علي سنة يشب عليها الصغير ويشيب عليها الكبير، وفعلوا ذلك من على منابرهم حوالي الف شهر، مع ان سب علي كان يعني سب الرسول ﷺ نفسه كما ورد عن ام سلمة (رض).

لقد ذهب معاوية بمغانمه ومكاسبه، وذهبت دولته، واعترف بذنوبه امام الناس قبل ان يعرض على خالقه ليعترف بما لم نعرفه نحن وما لم يشأ الاقرار به امامنا.

وما كان معاوية في أي موقف من مواقف حياته متحيزاً إلى الاسلام أو الامة الاسلامية، بدافع أي شعور بالمسؤولية ترتبه عليه الرسالة الاسلامية بكل ابعادها ومضامينها، وما كان إلا راكضاً ولاهثاً وراء مصالحه واغراضه الخاصة، فعلام نركض نحن ونلهث وراءه ونتحيز اليه، ونتبنى آراءه واطروحاته ومواقفه دون وعي أو تدبر لا لشيء إلا لأننا الفنا ذلك، واصبحنا بحكم العادة والتميع والفراغ واللامبالاة وعدم الشعور بالمسؤولية، والتلقي اللاواعي لآراء وأفكار بعض (السلف) المعاصرين له والمتبنين مواقفه والعاملين على دعم دولته، لا نكلف انفسنا عناء دراسة الظروف التي تبنى فيها هؤلاء مواقفهم، والغريب ان العديدين منا رغم ما يتمتعون به من قابليات ثقافية وعلمية لا يجدون في انفسهم الجرأة على اختراق الطوق المقدس الذي نصبوه لاسلافهم، فكأن ما جاء به أولئك الاسلاف كتاب منزل أو امر موصى به من الله تعالى.

لقد عرض معاوية نفسه علينا مكشوفا بأكثر من مناسبة، وكانت حياته كلها تمثل خرقاً مستمراً للاسلام، فلماذا نحرص نحن على ستر ما كشفه هو بنفسه واشار اليه صراحة..؟

- حدثنا الزمخشري في ربيع الابرار ان معاوية قال:

(اما ابو بكر فقد سلم من الدنيا وسلمت منه، واما عمر فقد عالجها وعالجته، واما عثمان فقد نال منها ونالت منه، واما انا فقد ضاجعتها ظهراً لبطن وانقطعت اليها وانقطعت الي)[1].

---

(١) اصل الشيعة: ٩٣، والطبري: ٦/ ١٨٦.

ومع ذلك فما زال فينا من بدا كأهل الشام في زمن معاوية، يتلقى الاسلام عن طريقه وينظر اليه بعينيه.

ان اللامبالاة هذه الذي تتسم به نظرة بعضنا إلى الامور، وهذا التحيز غير المبرر إلى جانب من لم يكونوا معنا وفي صفنا في أي وقت، من الاوقات، بل كانوا اعداء حقيقيين لامتنا، امر يبعث على الدهشة والاسى معاً، والا فكيف نسيغ لانفسنا تناول امورنا المهمة بهذا الاهمال المتعمد، وهذه السذاجة الجديرة بشعب وثني متخلف لا بأمة تريد ان تستمر صلتها بماضيها المشرف، وتريد ان تقيم وجودها وحضارتها على اساس من ذلك الماضي، والذي لا تريد له ان ينقطع أو يكون مجرد ماضٍ قديم، وانما وجود متجدد يطل بصفحته البيضاء على حاضرنا ليطبعه بطابعه الحي الواضح.. كيف نريد لأنفسنا ان نتواصل مع الاسلام، ونحمل اطروحات اعدائه ومخربيه؟

يقول الاستاذ محمد قطب في كتابه واقعنا المعاصر:

(ولقد كانت فتنة مقتل عثمان (رض) وما تلاها من الحروب بين علي ومعاوية، ازمة حادة ابتلي بها المسلمون والدولة ما تزال في نشأتها، وعداوات الارض قائمة من حولها، ولكن الناظر إلى مجريات الامور يومئذٍ لم يكن ليشك في نهاية الازمة، فقد كان الخلاف على كل عمقه وكل ما اثاره من فرقة في صفوف المسلمين خلافاً على من يتولى الامر ليمكن للاسلام في الارض، وليس خلافاً على الاسلام ذاته، هل يكون هو قاعدة الحياة للمسلمين ام يكون شيء آخر خلافه)(١).

هل هذه هي المسألة بكل بساطة، مجرد فتنة نتج عنها صراع فيمن يتولى الامور ليحقق هو لا غيره ما تصبو الامة اليه ويمكن للاسلام في الارض، ولا شيء غير ذلك؟ وطبيعي ان يدعي اطراف الصراع المحق منهم والمبطل الحرص على الاسلام، والا لما وجد حجة على خصمه امام الامة، فهل كانت الدعاوى كلها صحيحة، وهل كانت دعاوى معاوية كدعاوى علي، وهل كان معاوية يحارب علياً ليكون الاسلام قاعدة الحياة للمسلمين.

اننا ننظر إلى اعداء الاسلام كما ننظرالى انصاره بنفس النظرة الحيادية الغائمة

(١) محمد قطب، واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة، ط ٢، ص: ٦/ ٧.

التي لا تدل على موقف واضح حاسم، والا فكيف كانت سلسلة الاخطاء الفظيعة التي قام بها معاوية مجرد (اجتهاد) عالم من علماء الاسلام الكبار، رغم انها تعدت المئات؟ فهل اخطأ في امر واحد أو امرين حتى نتجاوز ذلك ونقول انه اجتهد واخطأ؟ ام ان حياته كانت بفعل مقصود سلسلة اعتداءات على الاسلام، وخروج عليه وانتهاك لحرماته؟ لقد بقي الاسلام حياً لأنه يملك مقومات الحياة رغم كل شيء، لا لأن معاوية اراد له ذلك، وليس لنا ان نتبجح ونقول ان الاسلام بقي حيًّا لأن كل (المتصارعين) ارادوا حياته، والا فلماذا ذلك الصراع الشرس، لو كان من اجل الاسلام حقا لتنازل احد المتصارعين عن حقه ما دام ذلك في صالح الاسلام؟

وهذا ما فعله أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، وحتى خلافته، حينما وجد بعد ذلك انه لا يستطيع ان يتنازل لمعاوية، بل حتى ان يقره على ولاية الشام، لانه لم يكن يتمتع وباعترافه هو حتى بمستوى آخر الخلفاء عثمان، وعند استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام وسيطرة معاوية على الساحة واستعداده لاستئصال الاسلام، اذا ما وجد خطراً حقيقياً على حياته وعلى ملكه، هادنه الإمام الحسن عليه السلام وتنازل عن حقه، حين ظهر معاوية امام الامة انه سيلتزم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله، اضافة لبعض الألتزامات الأخرى التي اوضحناها، وبذلك ضمن التزامه الظاهري على الاقل بالاسلام، وعدم الخروج المعلن عليه، لان معاوية جدير باثارة فتنة حقيقية وحرب صريحة ضد الاسلام، لو لم يفوت عليه الامام عليه السلام فرصة ذلك، وجعله يبدو امام الامة بمظهر الحريص على دينها ووحدتها، وكان هذا حدا ادنى امكن استخراجه من معاوية، بدلا من جعله يشهر سيفه صراحة ويبيد الطليعة الواعية من الامة وفي مقدمتهم آل البيت عليهم السلام.

انه ليس امراً عادياً ان ينزه القرآن الكريم وهو قول الله العزيز مجموعة معينة من البشر، هم الرسول صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام من الرجس والدنس بعبارات واضحة جلية، ويخبرنا بعزم الخالق وارادته على تطهيرهم من كل ما يمكن ان يعبث بالنفوس البشرية العادية. واذا ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله في مقدمة هؤلاء، وقد علمنا كيف كان سلوكه وكيف كانت سيرته، واذا ما علمنا ان هؤلاء هم اهله واقرب الناس اليه، واننا لم نلمس منهم إلا ما لمسناه منه صلى الله عليه وآله، وانهم قد سلكوا نهجه وطريقه، علمنا ان امامنا مهمة فهم هذه الصفوة ودراستهم ومعرفة مناهجهم وأساليبهم وتصوراتهم على ضوء منهج الرسول صلى الله عليه وآله، لكي نقوم بتبنيها كما تبنينا نهج الرسول صلى الله عليه وآله.

ونسأل اولئك الذين لا يريدون ذلك ويرونه امراً خارجاً عن المألوف؟ لماذا لا يريدون ان يقتنعوا ان دور تلك الصفوة من آل الرسول عليهم السلام كان معداً من الله لاكمال مسيرة الرسول ﷺ، الذي كان دوره ﷺ معداً من الله بلا شك..؟

ولماذا نرى ان ذلك امراً خارقاً للعادة معهم وقد فعله الله مع رسوله في آخر الرسالات؟ هذا هو الامر الوحيد المنسجم مع العقل، لان وفاة الرسول ﷺ من شأنها ان تقطع منهج واسلوب تلك القيادة العارفة وتتركها وفق تفكير البشر العاديين الذين امضوا شطراً كبيراً من حياتهم يعيشون اوضاع الجاهلية وتصوراتها، ومن شأن ذلك ان يخل بمسيرة الاسلام كما اراد الرسول ﷺ، لقد كان وجود القادة الذين يحملون التصور النبوي النقي الذي لم يختلط أو يشوه بأي تصور آخر ضرورياً لاكمال المسيرة لفترة طويلة من الزمن ريثما تعتاد الامة ذلك وتألفه، حتى لا تعود ترى امامها الاشياء من خلال غبش وغبار وضباب الجاهلية، وهو ما اراده الله سبحانه فعلاً وخطط له رسول الله ﷺ وأعد خليفته ووصيه من بعده، غير ان الأمور تغيرت ولم يسر كل شيء بعد وفاته ﷺ كما اراد وخطط.

اننا سنتوصَّل إلى قناعة اكيدة بان معرفة مناهج واساليب وتصورات الائمة الكرام عليهم السلام سيجعلنا قريبين جداً من منهج الرسول الكريم ﷺ، واننا لن نجد أي تقاطع أو تعارض بينها وبينه، حتى بأبسط الامور، بل لعلها السبيل الوحيد إلى فهم ذلك المنهج الاول الذي ارسى دعائمه رسول الانسانية العظيم ﷺ، ومن شأن ذلك تسهيل فهمنا للكثير من امور هذا الدين القويم والسير على مبادئه وتشريعاته، بعيداً عما الصق به ونسب اليه من قبل محترفي الحديث والتفسير والوضع والكذب، الذين شوهوه وارادوا عرضه علينا كنسخة مزورة تختلف عن الاصل اختلافاً واضحاً، ونجحوا في ذلك مع العديدين من الذين اقتنعوا بدجلهم وأكاذيبهم وتزويرهم بدافع المصلحة أو الجهل.

خط أهل البيت ضمانة لتجنب الانحراف

ان الرجوع إلى خط الائمة آل البيت عليهم السلام، كما بدا لنا واضحاً من مجمل الاحاديث الضخمة التي وردت بشأنهم، هو الضمانة الوحيدة لتجنُّب الانحراف والانزلاق بعيداً عن الاسلام، فعندما نستعرض مسيرتنا على ما يطرحونه ويأخذون به ويقرونه، فاننا بذلك، وبذلك وحده، نضمن سلامة وصحة هذه المسيرة، لا في وقت

معين من الزمن، بل خلال حياتهم كلها، تلك الحياة التي مثلت خطاً واحداً ووجهاً واحداً لا يبتعد أو يتناقض ولو بشكل طفيف عن خط الرسول القائد ﷺ. روي عن عمر ان النبي ﷺ قال:

(في كل خلوف من امتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، إلا وان أئمتكم وفدكم إلى الله فانظروا بمن توفدون)[1].

وقد رأينا من هم الائمة الذين اعدهم رسول الله ﷺ ابتداء من اخيه ووصيه أمير المؤمنين عليه السلام للقيام بهذه المهمة الدقيقة التي لا يقدر عليها إلا ذلك النمط الذي فهم الاسلام واخذه عن رسول الله ﷺ دون ان يشاب أو يكدر أو يختلط بأي فهم أو تصور جاهلي قديم..

حدث الثورة الحسينية

يغطي على بعض الجوانب المهمة في شخصية الحسين عليه السلام

ان حدث الثورة الحسينية في الطف كان هائلًا، نسى الكثيرون منا معه، جوانب مهمة من حياة صاحب الثورة عليه السلام نفسه قبل الثورة (ولعل التعتيم على تلك السيرة كان بفعل اموي مقصود)، ولم تبرز امامنا إلا تلك المواقف التي وقفها خلال مسرحيات استخلاف يزيد من قبل معاوية، وخلال مسيره من المدينة إلى العراق مروراً بمكة، وإصراره على رفض الانحراف الذي بدا واضحاً ومعلناً بتتويج يزيد وصعوده على كرسي الخلافة، واعلانه الواضح للامة عن قبول الموت قتلًا وهو الخيار الوحيد الباقي امامه، على إلا يستسلم للحالة التي استسلمت إليها ورضيت بها واستساغتها، ولقد هزتها تلك الوقفة الباسلة فعلًا، وجعلتها تعيد النظر بمواقفها وتزن خطواتها وسلوكها، وتقف متأملة مدهوشة من ذلك الفعل والاداء البطولي الفريد للحسين عليه السلام واصحابه في معركة الطف، وهذا امر سنتحدث عنه إن شاء الله عند التطرق إلى نتائج الثورة المباركة العظيمة في كتاب لاحق.

---

(١) اخرجه الملا، ذخائر العقبى ص ١٧.

إننا ينبغي أن نعرف حقا القائم بتلك الثورة، ونلم بحياته، ولا نكتفي بالتلميحات التي تعرض علينا جوانب بسيطة من هذه الحياة الحافلة التي بدأها مع رسول الله ﷺ وأمه الزهراء وأبيه أمير المؤمنين واخيه الحسن عليه السلام، الذين لم تكن حياتهم عادية، بل مزدحمة بالأحداث والوقائع الجسام، مما جعل تجربته لمواجهة الانحراف الاموي، تجربة ناضجة حية، لا يمكن وصفها بأنها تتسم بالانفعال أو الحماس أو التطرف أو رد الفعل المفاجيء، وذلك ما حاول الكثيرون وفي مقدمتهم معاوية الايحاء به، مما جعل آخرين يعتقدونه ومنهم كتاب ومفكرون ومثقفون عند استعراضهم ثورته وحياته عليه السلام..، مع انه كان نسخة من أخيه وأبيه، ولم يكن سائراً إلا على النهج الذي اراده جده ﷺ لمواجهة الحياة ومتغيراتها، وما قد يواجهه المجتمع المسلم خلالها، وهو النهج الاسلامي الصحيح، لا الأموي المحرف المزور أو غيره.

إن علينا ان نلتفت إلى إجماع المؤرخين الذين كتبوا عن سيرته متفقين على أنه عمل كل ما يقربه إلى الله تعالى، فكان كثير الصلاة والصوم والحج والصدقة وأفعال الخير.

لقد كان يضع مثله الأعلى أمامه فلا يتصرف إلا على أساس رضا الله سبحانه وتجنب سخطه.

وهكذا فإن علينا عندما نسمع أحد أصحابه يخاطبه، وقد رأى شدة عبادته والتزامه القوي بالاسلام: «ما أعظم خوفك من ربك..؟» ان نفهم جوابه عليه السلام: «لا يأمن يوم القيامة إلا من خاف الله في الدنيا..» ونفهم أنه لم يكن ير أمامه إلا الله، خالقه وبارئه والمنعم والمتفضل عليه، وقد أرادنا نحن ان نكون كذلك.

وهكذا كانت وصاياه ومنهجه في تربية الامة، وقد وجدنا أن حياته كانت مصداقاً لأقواله وهذا هو سر فعلها وقوتها وتأثيرها.

يقول عليه السلام:

(أوصيكم بتقوى الله، وأحذركم أيامه، وأرفع لكم أعلامه، فكأن المخوف قد أفد بمجهول وروده ونكير حلوله، وبشع مذاقه، فاعتلق مهجكم وحال بين العمل وبينكم، فبادروا بصحة الاجسام في مدة الاعمار، كأنكم ببغتات طوارقه فتنقلكم من

ظهر الارض إلى بطنها، ومن علوها إلى سفلها، ومن أنسها إلى وحشتها، ومن روحها وضوئها إلى ظلمتها، ومن سعتها إلى ضيقها..).

(إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الاحرار، وهي افضل العبادة...).

(وسأله رجل عن معنى قول الله: **﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ قال** عليه السلام: أمره إن يحدث بما انعم الله به عليه في دينه).

(إن المؤمن اتخذ الله عصمته، وقوله مرآته، فمرة ينظر في نعت المؤمنين، وتارة ينظر في وصف المتجبرين، فهو منه في لطائف ومن نفسه في تعارف، ومن فطنته في يقين ومن قدسه على تمكين).

(من حاول أمراً بمعصية الله كان افوت لما يرجو وأسرع لما يحذر)[1].

وحق التشيع ينبغي فهمه على هذا الأساس، الاقتداء بمحمد ﷺ وآل محمد ﷺ، ومتابعتهم والالتزام بنهجهم، لا مجرد التحيز إليهم وحبهم، هكذا فقط، دون معرفتهم، ومعرفة الدوافع الكامنة خلف سلوكهم الفريد، الذي أنقذ الأمة من العديد من المواقف المهلكة التي جرت إليها بفعل القوى الطامعة والمرتدة والعددة، وقد حاول أئمة أهل البيت عليهم السلام في كل المراحل تربية الأمة على أن تكون شيعة للاسلام ولرسول الله ﷺ، وبذلك تكون شيعة لهم لأن آل الرسول ﷺ هم أول شيعة للرسول وأول شيعة للإسلام، وأول معبر عنه بفعل حياتي حقيقي يجعل من الاسلام الشيء الوحيد الجدير بالاتباع والنظر.

وقد روى ابن كثير ايضاً:

(بل الناس انما ميلهم إلى الحسين، لأنه السيد الكبير، وابن بنت رسول الله ﷺ، فليس على وجه الأرض يومئذٍ احد يساميه ولا يساويه، ولكن الدولة «اليزيدية» كانت كلها تناوئه)[2].

وبلغ من حبهم له وقناعتهم بمركزه السامي الفريد عند الله انه (لما وقع الطاعون

(١) تحف العقول عن آل الرسول، الحسن بن علي بن الحسين الحراني، المكتبة الحيدرية، ١٣٨٠هـ ص ١٧٠/ ١٧٧.

(٢) ابن كثير: ٨/ ١٥٤.

الجارف اطاف الناس بالحسين، فقال: ما احسن ما صنع بكم ربكم أقلع مذنب، وانفق ممسك) العقد الفريد ٣/ ١٤٣.

كما ان اشد اعدائه عداوة له وهو عمرو بن العاص لم يستطع ان يخفي شهادته بحقه، فقال، بينما كان جالساً في ظل الكعبة وقد رأى الحسين مقبلاً:

(هذا أحب أهل الارض إلى أهل السماء)[١].

وقد..

(حج الحسين بن علي خمساً وعشرين حجة ونجائبه تقاد بين يديه)[٢].

وقال من حسب نفسه منافساً له، عبد الله بن الزبير بعد استشهاده عليه السلام:

(أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه. أما والله ما كان يستبدل بالقرأن الغناء والملاهي، ولا بالبكاء من خشية الله اللغو والحداء، ولا بالصيام شرب المدام وأكل الحرام، ولا بالجلوس في حلق الذكر طلب الصيد...)[٣].

وكان ذلك بمعرض المقارنة مع يزيد، الرجل الذي قبلته الامة خليفة عليها.

وقد روى لنا المسعودي أن الإمام علي بن الحسين، زين العابدين سئل عن ابيه الحسين عليه السلام:

(.. ما كان أقل ولد أبيك؟ قال: العجب كيف ولدت له؛ كان يصلي في اليوم والليلة الف ركعة فمتى كان يتفرغ للنساء)[٤].

وبغض النظر عن مواقفه العظيمة من المناوئين للدولة الاسلامية خلال عهد والده عليه السلام، ومواقفه من الدولة الاموية المنحرفة خلال عهد معاوية، وخلال ثورة الطف، مما سنتعرض له بالتفصيل إن شاء الله تعالى في هذا الفصل، والتي كشفت لنا عن جوانب مدهشة من شخصية هذا الإمام العظيم، وقدرات هائلة تمتع بها، فاقت كل ما تمتع به الآخرون، وما كانت تتاح له لو لم يكن متمتعاً بذلك القدر العالي من الشعور بالمسؤولية تجاه الامة والذي أوصله لحد العصمة وعدم إمكان الانحراف أو

---

(١) نفس المصدر: ٣/ ٢٠٩.
(٢) نفس المصدر: ٣/ ٢٠٩. ومروج الذهب: ٣/ ١٢٥.
(٣) نفس المصدر: ٣/ ٢١٤.
(٤) مروج الذهب: ٣/ ١٢٥)

الوقوع أو الانزلاق بين أحضان الظالمين، فإن هذه الاشارات التي وردت عن هؤلاء المؤرخين الذين لا يمكن ان يوصفوا بالانحياز إلى آل البيت عليهم السلام، أو (التشيع) وهي التهمة التي يوصف بها من ينظر بانصاف إلى قضية آل البيت عليهم السلام، والتي لم يخالفهم فيها احد..، اذا ما اضفناها إلى اشارات ابن عساكر والحافظ الذهبي والبخاري وابن خلكان وغيرهم، فاننا سنرى ان امراً غير اعتيادي يظهر امامنا ويرسم لنا شخصية، لا نرى بعد ذلك الوضوح ان يستمر المسلمون على الاختلاف بشأنها، بل ينبغي ان يقفوا منها موقفاً حاسماً، موقفا موالياً متحيزاً متعاطفاً، لأن موقفها كان حاسماً وموالياً ومتحيزاً ومتعاطفاً مع الاسلام.

إذاً فما الذي أجمع عليه المؤرخون، ومن كتبوا سيرته وتحدثوا عنها، بعد أن رأينا وسمعنا كلام القرآن الكريم فيه وفي أهله وما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً بشكل واضح جازم،

أفضل أهل زمانه في العلم والمعرفة والكتاب والسنة،

حفظ عن النبي صلى الله عليه وآله وروى عنه،

الناس كانوا يجتمعون إليه ويحتفون به يسمعون من العلم الواسع والحديث الصادق،

الناس إنما ميلهم إلى الحسين لأنه السيد الكبير وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله،

وكان مجلسه في جامع جده رسول الله صلى الله عليه وآله وله حلقة خاصة به..،

أعدل أهل زمانه في إمامته وعدالته،

ليس على وجه الارض يومئذٍ أحد يساميه،

أحب أهل الارض إلى أهل السماء،

طويلًا بالليل قيامه كثيراً في النهار صيامه،

صحب أباه وروى عنه وكان معه في مغازيه كلها،

كان معظماً موقراً لم يزل في طاعة أبيه حتى قتل،

كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة،

حج خمساً وعشرين حجة ماشياً ونجائبه تقاد بين يديه..، الخ (تراجع المصادر السابقة)

مزايا الإمام الحسين الاستثنائية دليل على الاختيار الالهي

إننا أمام شخصية كبيرة، تتمتع بمزايا استثنائية جداً، مزايا فريدة لن يستطيع احد أن يتصور أنها يمكن ان تجمع في شخص واحد، اللهم إلا إذا كان هذا الشخص مختاراً ومؤهّلا للعب دور استثنائي فريد، من السلالة التي اختصها الله بالنبوة اولاً.. ثم بالإمامة بعد ذلك..، ولم يكن قول رسول الله ﷺ فيه وفي آله عموماً مجرد حدس وتوقعات وحسن ظن مجرد، وإنما كان علمه ﷺ من العلم الذي علمه الله إياه، واخبره فيه أن هؤلاء هم قادة الامة وعدولها، ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وليس من يتصدى لهذه المهمة الخطيرة بجدارة، إنسان قد يخضع لما يخضع له البشر العاديون من الاستجابات السريعة لنزوات النفس ونزعاتها وسقطاتها. إنه دور مكمل لدور الرسول الكريم ﷺ، وينبغي لمن يعد له أو يقوم به أن يجعل من رسول الله ﷺ قدوة له في كل شيء، ويجعل من سنته هدفاً أعلى ويجعل من كتاب الله قانونا دائمياً يرجع إليه دائماً ولا يفارقه في أي حال وتحت أي ظرف.

لقد استمعنا للشهادة الحق، من الخالق الحق بشأن هؤلاء الآل المنزهين عن كل خطأ ورجس، واستمعنا لشهادة الصادق الامين ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى بشأنهم، واستمعنا إلى شهادة التاريخ، وقرأنا بعض ما كتب وسطر عنهم. وانه لأمر واضح، بل وساطع.

وإنه لأمر مذهل، أن نرى أمامنا أناسا بهذا الوضوح وهذه القوة التي تقترب من الاعجاز.

ولعل أشد ما يحير الدارس المتتبع أن غيره يعرف عنهم عليهم السلام نفس ما يعرفه هو بل وربما اكثر.

وعندما نتساءل: لم لا يستجيب هؤلاء (العارفون) لهذه الصفوة المختارة، ويتأثروا بها وبمنهجها في التفكير والعمل..؟ نعود فنقول: ربما كان السبب في ذلك هو نفس السبب الذي دعا من اعترفوا بوضوح القرآن وإعجازه إلى الابتعاد عنه... قبل دولة الإسلام وبعدها بفعل القوة والضغط الامويين، حينما استنفرت (الدولة) وحشدت كل جهودها وطاقاتها لتقف أمام ذلك المد المحمدي الهائل الذي تجسد بالنبي وآله عليهم السلام. تلك الدولة التي اوجدت منهجا جديداً في التفكير والعمل لم

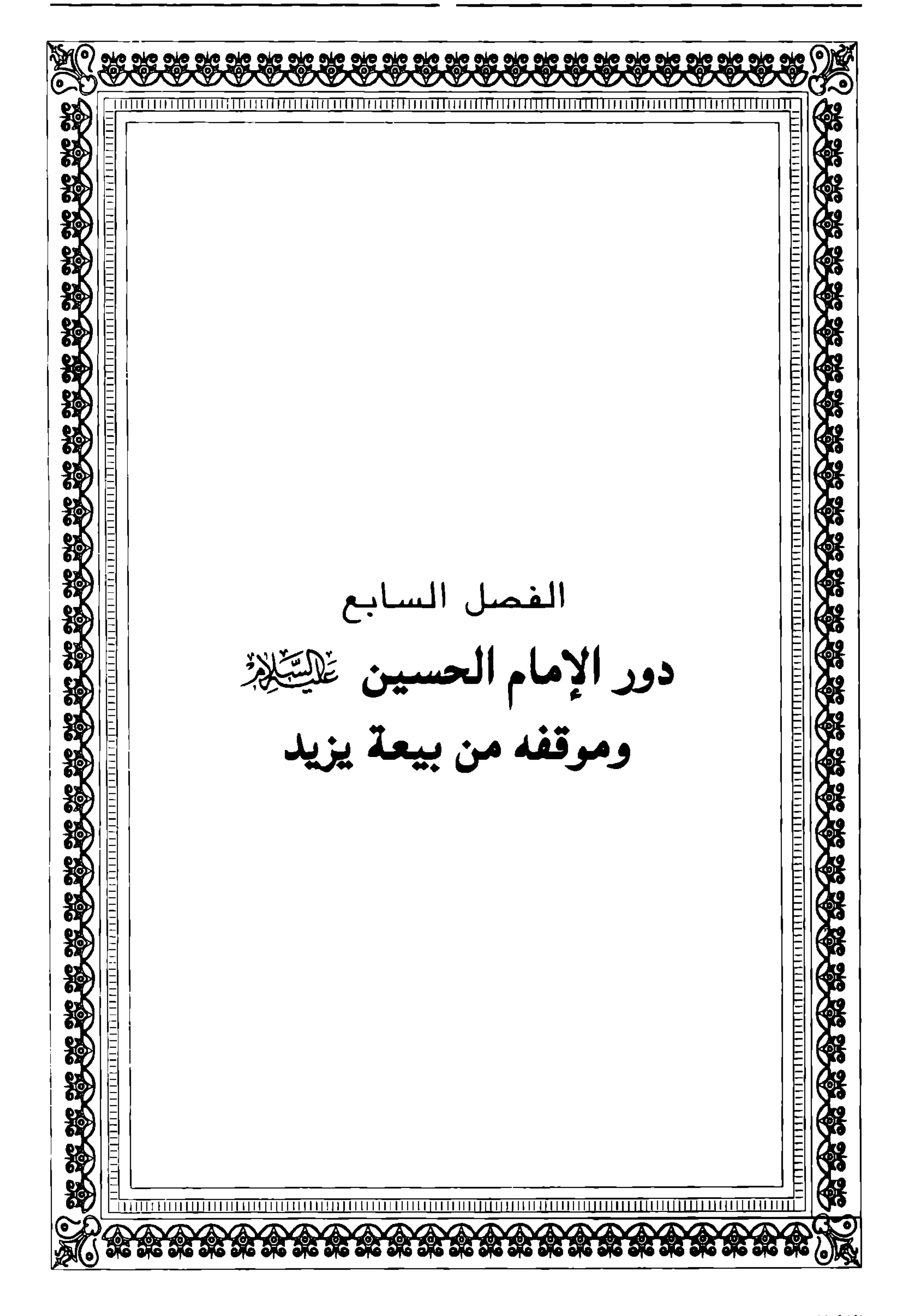
يأخذ من الاسلام إلا اسمه فقط ، والذي اعتمد الأساليب والتصرفات البشرية الارضية المتدنية التي لم تر مثلها الاعلى إلا في مصالحها ورغباتها ونزواتها، والتي رأت في مسألة النبوة برمتها مسألة نزاع على ملك وسلطان، ورأت أن تستولي هي على هذا الملك والسلطان. وحشدت في سبيل ذلك الافاً من (العلماء) و (الصحابة) والمحدثين والمفسرين والفقهاء الذين وضعوا أحاديث، وفسّروا القرآن بشكل جعل الإسلام يبدو وكأنه دين آخر، لولا ما ايد الله به دينه بالكتاب المجيد الذي لم يستطيعوا تحريفه وتزويره فكان عقبة في طريقهم، وكانت طريقهم الماكرة (بتأويله) من الضربات الجسيمة التي ألحقت بالإسلام، فقد رأى معاوية أن من مصلحته جعل الامة تعتقد ان الرسول ﷺ قد اشاد باله لأنهم آله، ورأى ان مدخله إلى حربهم قد يكون من خلال ذلك، ولم ير أمامه إلا يزيد بعد أن لم ير الإسلام وأهله، وهكذا كان سعيه المحموم لتنصيبه (خليفة) و (اميراً للمؤمنين). . ، وهكذا قال بعد أن لم يستطع إخفاء ما بنفسه، وبعد أن رأى أن الجو كان مهيئاً للاستماع إلى صوته الغريب عن صوت الاسلام ونداءاته:

(إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، فابني أَحب إلي من أبنائهم . .)[1]،

وكان هذا مقياسه الوحيد الجديد الذي أراد أن تفهمه الامة، وإشارته الموحية الجديدة بأن الأمر أمر ملك، وقد أخذ رسول الله ﷺ حصته منه ورحل، وبقي هو، وعندما سيرحل سيعمد إلى ما لم يعمد اليه رسول الله ﷺ من إقرار خلفائه عليه السلام بالقوة، لان رسول الله ﷺ كان حريصاً على مصلحة الإسلام، ومعاوية كان حريصاً على الملك له ولعائلته. . ، فلئن ذهب الملك منهم فليذهب كل شيء. لقد تبنى العديدون نظرة معاوية إلى المسألة كلها، اما معاوية فحصل على الملك له ولابنه من بعده. . . ، أما هؤلاء المنحازون المتعصبون، فماذا جنوا غير الإيغال في الضلالة وتبني خط الانحراف، وقد جعلوا بذلك من أنفسهم حجر عثرة في طريق الاسلام وأهله ومعتنقيه ومحبيه، فهل أدركوا العواقب الوخيمة لذلك، وقد وقفوا أعواناً ودعاة للضلالة والانحراف والشيطان. . وكيف سيبررون ذلك أمام من لا بد ان يقفوا أمامه فيحاسبهم، كما يحاسب صاحب الفعل الاصلي. . لأنهم شايعوه وتبنوا مواقفه.

---

(١) العقد الفريد ص ١١١.



الفصل السابع

دور الإمام الحسين عليه السلام وموقفه من بيعة يزيد

دور الإمام الحسين عليه السلام
وموقفه من بيعة يزيد

تمهيد

مهد معاوية لحكم يزيد من بعده، وقد رأينا في الفصل السابق كيف تمت بعض فصول المهزلة التي تم فيها الامر واحكم، وكيف بدا وكأنه استجابة من معاوية لرجاء الامة ورغبتها الحقيقية في ذلك، وكأنه لم يكن بوسعه إلا ان ينزل عند هذه الرغبة، ويوافقها في قرارها. كما رأينا ايضاً ان معاوية لم يكن يصدق أو يتصور ان شيئاً مثل هذا يمكن ان يحدث، حتى لقد فوجىء واخذه بهر، حتى جعل يتنفس في يوم شات كما اخبرنا، واكدته لنا كتب التاريخ والسير.

ان ما لم يمكن تصوره حتى من قبل معاوية نفسه، قد حدث فعلًا بعد ذلك، ووافقت الامة بعد ان استدرجت واخضعت بشتى الطرق المدروسة، على ان يكون يزيد خليفة واميرا للمؤمنين بعد ان يموت معاوية، الذي راح في غمرة اطماعه وحرصه على ان لا يفلت منه المكسب الذي ناضل من اجله بقوة، يمهد لذلك، بعد ان راقته الفكرة، ورأى انها ممكنة فعلًا في ظل الاوضاع الجديدة للمجتمع، والمغايرة للاوضاع التي ارساها ووضع دعائمها رسول الله صلى الله عليه وآله، طوال سبع سنين وربما اكثر من ذلك كما ذكرنا أو أقل كما ذكر الطبري أي سنة ست وخمسين.

(وفيها دعا معاوية الناس إلى بيعة يزيد من بعده وجعله ولي العهد)[١].

(فلم يزل يروض الناس لبيعته سبع سنين ويشاور ويعطي الاقارب ويداني الاباعد حتى استوثق له من اكثر الناس)[٢].

وقد رويت قصص عديدة عن بداية هذا الامر وسببه كما اوضحنا ومنها ان معاوية اراد ان يولي سعيد بن العاص الكوفة بدلًا من المغيرة بن شعبة، فاراد هذا الاخيران تكون له يد بيضاء عند معاوية، فدخل على يزيد. . .

(١) الطبري ٦/ ١٦٨.
(٢) العقد الفريد ٥/ ١١٠.

(فعرّض له بالبيعة فأدى ذلك يزيد إلى ابيه، فرجع معارية المغيرة إلى الكوفة وامره ان يعمل في بيعة يزيد، وأوفد في ذلك وافداً إلى معاوية..)[1].

وقد كتب معاوية بعد ذلك...

(الى مروان بن الحكم عامله على المدينة ان ادع أهل المدينة إلى بيعة يزيد، فان أهل الشام والعراق قد بايعوا)[2].

ان هذه الأمة لم تكن تتصور ـ في وقت ما ـ ان معاوية يجرؤ على الوقوف في وجه أمير المؤمنين عليه السلام، الممثل الشرعي للامة وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، ينافسه ويقاتله ويدعي الخلافة لنفسه دونه، ومع ذلك فان هذا الامر قد حدث فعلًا، واستتب الامر لمعاوية بعد مقتل أمير المؤمنين وصلح الحسن عليه السلام، وما كان ممكناً بالنسبة لمعاوية اصبح ممكناً ليزيد بعد ذلك، حتى ان عبيد الله بن زياد قد طمح إلى الخلافة بعد وفاة يزيد وبايعه أهل البصرة على ذلك.

ان الامر عندما يصل هذا الحد، فإنه يعني ان العد التنازلي الذي يمهد لسقوط الامة نهائياً، كان يسير على وتيرة منتظمة، وبدا كأن هذا السقوط المتسارع كان امرأ حتمياً: لا بد منه، وان المسألة اصبحت مسألة وقت فقط، تجد فيه هذه الامة نفسها بعد ذلك وقد أبعدت عن الاسلام نهائياً والى الابد.

وهكذا.. (بايع الناس ليزيد بن معاوية، غير الحسين بن علي وابن عمر، وابن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وابن عباس)[3].

بيعة يزيد

بين معاوية الممهد لها والحسين عليه السلام الرافض لها

وقد كان الحسين عليه السلام من أشد الناس على معاوية في هذا الامر، لمعرفته بموقعه ومنزلته من الامة، التي كانت رغم محاولات جرها إلى الانحدار والسقوط النهائي تتطلع إلى قائدها الحقيقي الذي لم تنسه، وكانت تأمل الخلاص على يديه،

---

(١) الطبري ٦/ ١٦٠.
(٢) العقد الفريد ٥/ ١١٢.
(٣) الطبري ٦/ ١٧٠.

ولعلها وان تغاضت وسكتت عن معاوية الذي رأينا انه حاول المحافظة على المظاهر الخارجية التي تجعل منه مقبولًا ومقرباً من الامة (كخليفة)، مقابل أمير المؤمنين عليه السلام الذي اراد من الامة ان تحاربه وترفضه، لم تنس ما ورد بشأنه وفي حقه من آيات وأحاديث صحيحة، لم يزل بعض رواتها على قيد الحياة يشهدون بذلك امام الامة كلها.

ربما تراجعت الأُمة عن مواقفها المتراخية وانحرافها، عندما ترى يزيد الذي لم يحاول اية محاولة جادة لستر مباذله وقبائحه وانحطاطه امامها، خليفة عليها فعلًا، وممثلًا لرسول الله صلى الله عليه وآله وقائداً واماماً لها.

ولعلها، حينما تقارن بينه وبين الحسين عليه السلام . . ، فانها سوف لن تجد أي وجه للمقارنة والمفاضلة أو الشبه، ويبرز لها الفرق الهائل بين الشخصيتين اللتين عليها ان تختار احداهما، وتسير خلفها وتقتدي بها . .

معاوية يتهدد الإمام الحسين عليه السلام بالقتل

وقد ازعج معاوية وأمضّه كثيراً ان لا يستجيب الحسين عليه السلام فيبايع يزيداً، وان لا ينحني امام سلطة الدولة الاموية القاهرة الطاغية التي بسطها على الجميع.

(. . . فلما بايع أهل العراق والشام سار إلى الحجاز في الف فارس، فلما دنا من المدينة لقيه الحسين بن علي، اول الناس، فلما نظر اليه قال: لا مرحباً ولا اهلًا، بدنة يترقرق دمها والله مهريقه. قال: مهلًا، فاني والله لست بأهل لهذه المقالة، فقال بلى ولشر منها. ثم دخل على عائشة، وقد بلغها انه ذكر الحسين وأصحابه فقال: لاقتلنهم ان لم يبايعوا. فشكاهم اليها، فوعظته وقالت له: بلغني انك تتهددهم بالقتل؟ فقال: يا ام المؤمنين هم اعز من ذلك، ولكني بايعت ليزيد، وبايعه غيري. أفترين ان انقض بيعة قد تمت؟)[1].

انه بجوابه هذا، وعدم انكاره انه كان يتهددهم بالقتل فعلًا، حاول ان يجعل الجميع يتبنون سياسة الامر الواقع التي حاول اقرارها . . ، وان الله مالك الملك قد شاء ان يهب ملكه ليزيد دون الامة، بعد ان اعطاه لمعاوية قبلًا، واعطاه لكثيرين غيره . . ، وهي مسألة ماكرة بدت (موفقة) بنظر معاوية، ومن امتلك تصوراته، استطاع بها ان

(١) ابن الاثير ٣/ ٣٥٥.

يسكت الكثيرين أو يجبرهم على السكوت امام منطقه الاعوج. .، فامام الالتواء والخصومة واللجاج والجدل، لا تجد الاستقامة طريقاً للغلبة في احيان كثيرة. .، وقد لجأ معاوية حتى إلى القرآن الكريم مستفيداً من بعض آياته الكريمة لاغراضه اللئيمة.

لقد استمعنا اليه وهو يستخدم هذا المنطق، الذي لجأ اليه يزيد من بعده، ولعله قد لقنه من قبل والده الذكي الاريب، وكان ذلك هو المنطق السائد لدى كل سلالات الخلفاء والحاكمين فيما بعد، كما طالعتنا بذلك كتب التواريخ والسير.

قال معاوية لاحد الرجال وهو كاره للبيعة:

(بايع ايها الرجل، فان الله يقول: «فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً. .)[١].

وقال معاوية: (. . . والله انه للملك آتانا الله اياه)[٢].

وقال لاهل العراق في النخيلة:

(. . . ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا وقد عرفت انكم تفعلون ذلك، ولكن انما قاتلتكم لأتأمَّر عليكم. فقد اعطاني الله ذلك وأنتم كارهون)[٣].

وقال: (اني لا احول بين الناس والسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا)[٤].

وقال يوماً وعنده وجوه الناس: (الارض لله، وانا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركت منه كان جائزاً لي)[٥].

وقال يزيد في اول خطبة له بعد موت معاوية:

(الحمد لله ماشاء صنع. من شاء اعطى ومن شاء منع، ومن شاء خفض ومن شاء رفع)[٦].

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١١٢.
(٢) الطبري ٦/ ١٨٦.
(٣) ابن كثير ٨/ ١٤٣.
(٤) الطبري ٦/ ١٨٧.
(٥) مروج الذهب ٣/ ٥٣.
(٦) العقد الفريد ٥/ ١٤٦.

وقال: (ان معاوية كان عبداً من عبيد الله انعم الله عليه)[1].

وقال: (فان معاوية كان عبداً من عباد الله، اكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له)[2].

وقال: (اذا كره الله شيئاً غيره، واذا اراد شيئاً يسره)[3].

وقال عن الحسين عليه السلام:

(.. انما اتى من قبل فقهه ولم يقرأ: قل اللهم مالك الملك)[4].

وقال الضحاك بن قيس عقيب وفاة معاوية:

(ان معاوية الذي كان سور العرب وعونهم وجدهم قطع الله به الفتنة وملكه على العباد، وفتح به البلاد)[5].

فمعاوية اذاً قد ملك بمشيئة الله، حتى وان كره الناس ذلك، فالله هو الذي رفعه واعطاه ووضع غيره ومنعه، وهو الذي اكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له وقطع به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد وأنعم عليه..، وقد يسَّر امره لانه اراده..، هكذا بمشيئة الهية خالصة وتدخل ربّاني مباشر..، فكأن لله فيه معجزة وحكما، اراد ان يريهما للبشر ليدلل على عظمة هذا الخليفة المختار.

بهذه العقلية وهذا التصور اراد معاوية ومن بعده يزيد ان تنظر الناس إلى مسألة الخلافة الاموية، انها ملك.. وان الخلافة وربما حتى النبوة ليست سوى احد اسمائها فهي ملك، وخلافة ورئاسة، وسياسة وأمرة.

على حد تعبير احد الذين مدحوا يزيد بعد استخلافه من قبل ابيه. لقد صوروا المشيئة الالهية وكأنها مرهونة بامره، وكأنها مكرسة لتعطى لامثاله وتمنع غيره، لانه الممثل الحقيقي لها، حتى لكأنه اراد تصوير الامر كأنه عبث اراد الصاقه بالمشيئة الالهية، وأراد تجريد الخلافة من معناها الحقيقي وابرازها على انها مجرد هبة أو منحة

---

(١) ابن كثير ٨/ ١٤٦.
(٢) الطبري ٦/ ١٨٨.
(٣) العقد الفريد ٥/ ١١٦.
(٤) ابن الاثير ٣/ ٤٨٣.
(٥) ابن كثير ٨/ ١٤٥، والطبري ٦/ ١٨٢.

يمنحها لشخص من عبيده يتصرف بها تصرف المالك المطلق، غير المقيد بدين أو قانون.

تصور معاوية لمسألة الخلافة

وقد بدا كأن معاوية كان يعرض تصوره على الامة في مسألة الخلافة، وكأنها امر متاح للجميع، حتى اولئك البعيدين عن الاسلام. . ، وقد اتيحت له هو شخصياً (بمشيئة خاصة من الله) كما رأينا من مضمون النصوص السابقة. . ، وكأنه بذلك كان يسخر من هذه الامة كلها، وكأنه كان يشمت برسول الله ﷺ شخصياً، كما شمت ابو سفيان من حمزة، وكأنه كان يتحدى القرآن والسنن الربانية بخصوص مهمات خلافة الانسان على الارض وفق التصور الذي ارساه الله (جل وعلا شأنه)، واوضحته السنة الشريفة ووضعت لها الاحكام والتشريعات اللازمة، ان أي خروج على المنهج الالهي الخاص بهذا الشأن، لا يعني إلا خروجاً عن الاسلام نفسه واستبعاداً نهائياً له، يعني تجريده من قدرته على قيادة الحياة وتسليم تلك القيادة لاناس يحكمون وفق تصوّرهم وفهمهم وعلى أساس مصالحهم فقط، وإن رفعوا في الظاهر شعاراته وادَّعوا الحرص عليه وعلى وحدة المسلمين ومصالحهم، بعد سلبها من القادة الحقيقيين المعدّين والمؤهّلين لهذه المهمة الخطيرة.

ان الامر عندما يتم بهذه الصورة المتعمدة السافرة، وتحت شعارات اسلامية مزيفة يرفعها فقهاء الدولة المأجورون ووعّاظها ومحدّثوها ومفسروها وقصاصوها، يشكل اكبر نكسة للإسلام، ويجعل المفاهيم الاسلامية في غمرة الخلط والوضع المتعمد والرديء لأحاديث عن لسان الرسول الكريم ﷺ، تضطرب وتتصارع في أذهان المسلمين وتجعلهم يتخبطون في حسم الاشكالات والاحاجي التي يضعها هؤلاء أمامهم. . ، وللخروج من معمعة الوضاعين والمفسرين الدجالين وغيرهم، فليس هناك من حل سوى الرجوع إلى المصدر الحقيقي الأول للاسلام، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ونهج آله وسنتهم عليهم السلام، ففي ذلك الضمانة الوحيدة للخروج والخلاص من كل التيارات المنحرفة التي نشأت نتيجة السعي المحموم للطامعين والعابثين والمخربين والدجالين. . ، والا فأية فائدة حققها المسلمون وجناها الإسلام في ظل القيادات المنحرفة وسلالاتها العابثة الخارجة عن الاسلام خروجاً صريحاً معلناً لا أثر فيه لأي تحرج أو خجل؟

وقد أفسح معاوية مجالًا واسعاً لانتشار هذه الأطروحات والأفكار الغريبة عن الإسلام بين أوساط الأمة لكي يجعلها تتخلى عن مسؤولياتها، وتستسلم للخدر وتتكاسل عن التصدي لأي مظهر من مظاهر الظلم والانحراف، ووضع مع محترفي الحديث الموالين له، أحاديث على لسان الرسول ﷺ تؤكد على (الجبر) الإلهي المزعوم، لاسكات كل معارضة محتملة لحكمه وحكم بنيه من بعده.

(فمعاوية أول من قال بالجبر، ودافع عنه ليظهر أن ما يأتيه بقضاء الله، ليجلعه عذراً فيما يأتيه، ويوهم أنه مصيب فيه، وان الله جعله إماماً وولّاه أمره)[١].

(أما المرجئة فكانوا عوناً وسنداً لحكم معاوية، جاءت آراؤهم ومعتقداتهم تبريراً لخلافته، واقناعاً للمسلمين بوجوب طاعته، ويرى المرجئة في مرتكب الكبيرة التوقف في الحكم وارجاء الامر له سبحانه[٢].

(ريقولون بأن الإيمان تصديق بالقول دون العمل)[٣].

(وكان حسان بن بلال المزنيْ أول من دعا إلى مذهبه بين أهل البصرة)[٤].

(فلقيت دعوته قبولًا إذ وجد البصريون في الأرجاء ضالتهم المنشودة، لأنهم سئموا الحروب وآثروا السلامة)[٥].

فهل أن المسلمين لم يستفيدوا وحسب؟ وهل أنهم لم يتضرروا إلى حد بليغ؟ وهل أن الضرر اقتصر على زمن وقوع تلك الحوادث المدمرة المؤسفة؟ وهل أنها لم تمتد إلينا نحن في عصرنا هذا، ونحن نبعد كل تلك المسافة الزمنية الهائلة عن ذلك الزمن الذي وقعت فيه، وقد تمتد لأجيال عديدة من بعدنا..؟

نظرة معاوية للعد التنازلي لمستوى الحكام

لقد كانت الاطروحة الأموية التي أعلنها معاوية بخصوص العد التنازلي لمستوى الحكام المسلمين، وعدم إمكانية المتأخرين الوصول إلى مستوى الأوائل

(١) اليمين واليسار في الاسلام، أحمد عباس صالح ص ١٥٨.
(٢) مقالات الاسلاميين، الاشعري، ١٤١.
(٣) تهذيب التهذيب، ابن حجر، ٤٦).
(٤) حركات الشيعة المتصوفين في العصر العباسي الاول، محمد جابر عبد العال، ١٧٥-١٧٦.
(٥) الائمة الاثنا عشر، عادل الاديب، ١١٩.

منهم، هي التي جعلت يزيد يجرأ في أول خطبة له، على إعلان منهجه في مسألة الخلافة كلها، والتصريح أمام الأمة دون خوف أو حياء قائلًا:

(... وقد وليت بعده [يقصد معاوية] ولست أعتذر عن جهل ولست أشتغل بطلب العلم)[1]. فكأن خلافته وخلافة أبيه من قبل - إذا نظرنا إلى استطراده وقوله في الهامش - أمراً أراده الله ويسره، وكأن الله (جل وعلا) قد كره خلافة غيرهم، فغير الأمر لصالحهم، فما دام هو الآن امامهم (خليفة شرعياً) قد ورث الخلافة عن أبيه، وقد مهدت له الأمور، ووطئت له الرقاب والرؤوس، يتمتع بمال الله، ويتصرف بمقدرات عباده تصرفاً مطلقاً (بمشيئة الهية خاصة به)، فما عليهم إلا أن يقبلوا ذلك كأمر إلهي مقدر ومدبر، وليس عليهم أن يحتجوا أو يناصروا غيرهم، وإلا كانوا محتجين على الله سبحانه وخارجين عن طاعته.

الجبر والتشبيه أمويان والعدل والتوحيد علويان

أليس ذلك هو ما طلع به علينا فقهاء الدولة الأموية المأجورين ومن تبعهم؟

نعم لقد طلعوا علينا بفكرة (الجبر) التي جاء بها الأشاعرة، والتي ردوا بموجبها كل شيء ومنها أعمال الانسان للقضاء والقدر، وجعلوه بموجبها يفقد أي اختيار. إذ تشل الإنسان وارادته عن أي تأثير، وهي الفكرة التي شدت من عضد الأقوياء الظالمين في نفس الوقت الذي قيدت فيه أيدي الضعفاء والمظلومين. فذلك الانسان الذي سيطر على منصب أو ثروة عامة بطرق غير مشروعة يتحدث عن المواهب الالهية التي اختصه الله بها وغمره بنعمته بعد أن حرم الضعفاء منها، وغمرهم في بحر من الالام والعذاب. فالظالم ترفع عنه مسؤوليته جراء أعماله بحجة القضاء والقدر، وباعتبار أنه أي الظالم يد الله، ويد الله لا تقبل أي طعن فيما تعمل.؟، إن التاريخ يثبت لنا أن بني أمية حولوا قضية (القضاء والقدر) إلى مستمسك متين بعد ان أيدوه بكل قوة، وقارعوا ونكلوا بمؤيدي الحركة الإنسانية على اساس انها عقيدة تخالف عقائد الإسلام حتى عرف بين الناس ان «الجبر والتشبيه امويان والعدل والتوحيد علويان، ان بدءها كان سياسياً وعلى اساس من مقتضيات المصلحة الداخلية للدولة. اذ لما كانت الدولة الاموية دولة الحديد والنار، فإن من الطبيعي ان تسري روح الثورة في النفوس. ولكن

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٨٠.

ما ان ينطلق لسانه بالشكوى حتى تحط الحكومة الامر إلى التقدير ويسكتوه بان ما يحدث مقر مرضي من الله. .)[١].

كان معاوية حريصاً: على ان يبايع ليزيد اولئك النفر الذين لم يبايعوا، فحاول استمالتهم ورشوتهم، وحاول تهديدهم.

وكان يرى في الحسين عليه السلام الخطر الاكبر على يزيد وعلى مملكته الاموية، وقد بذل معه جهوداً كبيرة، لأن (الناس انما ميلهم إلى الحسين لانه السيد الكبير وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فليس على وجه الارض احد يساميه أو يساويه).

لقد تصدى معاوية بعنف (لمنافسه) الإمام علي عليه السلام بحروب مسلحة شرسة على مؤيديه، واتسمت تصرفاته بالغلظة والشدة تجاه كل السائرين تحت لواء الدولة الاسلامية التي قادها عليه السلام، فارسل قواداً اشتهروا بالقسوة والشراسة المتناهية مثل بسر بن ارطأة والضحاك وزياداً وسمرة بن جندب[٢] لقمع كل معارضيه واعدائه، (وقد كان بسر بن ارطأة العامري، قتل بالمدينة وبين المسجدين خلقاً كثيراً من خزاعة وغيرهم وكذلك بالجرف قتل بها خلقاً كثيراً من رجال همدان، وقتل بصنعاء خلقاً كثيراً من الابناء. ولم يبلغه عن احد انه يمالىء علياً أو يهواه إلا قتله)[٣].

(وكان اشد الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من الشيعة فاستعمل عليهم زياد بن سمية). . الذي خاطب الإمام الحسن عليه السلام بقوله: (ان احب الناس الي لحماً ان آكله للحم انت منه. .)[٤].

وضم معاوية. . اليه البصرة فكان يتبع الشيعة، وهو بهم عارف، لانه كان منهم ايام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، واخافهم وشردهم، وقطع الايدي والارجل وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل فلم يبق منهم بها معروف، وكتب معاوية إلى جميع الآفاق إلا يجيزوا لأحد من شيعة علي واهل بيته شهادة. . ، وكتب ايضاً إلى عماله في جميع البلدان: انظروا إلى من قامت عليه البينة انه يحب

(١) الانسان والقدر، الشهيد مطهري، ٤٣- ٤٥.
(٢) مروج الذهب: ٣/ ٢٧.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٧+١٥.
(٤) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ١٥ وص ٧).

علياً واهل بيته، فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه. وكتب نسخة اخرى: ومن اتهمتموه بموالاة القوم فنكلوا به واهدموا داره)[١].

وقد تمادى سمرة بن جندب بالقتل واسرف فيه إلى حد بعيد ورويت قصص عديدة عن جرائمه، وكان قد استخلفه زياد على البصرة عند مسيره إلى الكوفة، واقره معاوية على منصبه بعد وفاة زياد بستة اشهر.

(ثم عزله، فقال سمرة: لعن الله معاوية؛ والله لو اطعت الله كما اطعت معاوية ما عذبني ابداً)[٢].

وسمرة هذا هو الذي طلب منه معاوية ان يضع احاديث مكذوبة بحق أمير المؤمنين.

وعن سياسة العسف والغشم الاموي يقول محمد قطب: (... اما في موقف الامة من حكامها الذين استتب لهم الأمر، فالمفسدة كانت هي السكوت عن نصحهم ومراقبتهم ومحاولة ردهم إلى الحق؛ ولكن السبب الأكبر في هذا القعود، والذي تقع المسؤولية فيه على الامويين انفسهم، هو عنف معاملة الامويين لخصومهم السياسيين، مما ارهب الناس من معارضة أي أمر يهمون يه.

واياً كانت المعاذير التي احتج بها الامويرن لتبربر ذلك العنف الذي سلكوا طريقه، فقد كان هذا من البدايات الخطيرة لخط الانحراف الذي زاد اتساعاً على الزمن)[٣].

وهذه شهادة جديرة بالاستماع إليها..، فكيف ستكون المرارة في نفوس وقلوب المسلمين الآن لو ان الحسين عليه السلام وجمهرة واعية من المسلمين لم تراقب ولم تشجب الممارسات الاموية البعيدة عن الاسلام، وسكتوا كالآخرين، مما انعكست نتائجه على مجمل حوادث التاريخ الاسلامي وأدت إلى ظهور سلالات فرعونية مشابهة للسلالة الاموية المتفرعنة؟

فلا يحسبنَّ أحد قبضة معاوية الارهابية، كانت ستقف عاجزة امام حفنة قليلة

(١) المصدر السابق: ٣/ ١٥-١٥.
(٢) الطبري: ٣/ ٢٤٠.
(٣) واقعنا المعاصر: محمد قطب، ١٢٠.

من المعارضين لتولية يزيد، فمع انه لم يكن يرى في ابن عمر وابن أبي بكر خطراً شديداً إلا انه كان يحذر من الحسين عليه السلام بشكل خاص.

فاما ابن عمر (اذا لم يبق احد غيره بايعك)[(١)].

(واما ابن أبي بكر فرجل ان رأى اصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، ليس له همة إلا في النساء واللهو)، وقد كان يتوقع ان يتصدى الحسين عليه السلام ليزيد اذا ما هلك، وربما كان يتصور ان الرغبة في الحكم والمنافسة هي التي تدعوه لذلك[(٢)].

وفعلًا رأينا الطريقة الفعالة التي لفت بها الإمام الحسين عليه السلام نظر الامة إلى رفضه ليزيد وامتناعه عن مبايعته رغم التهديدات والاغراءات.

ولان معاوية علم ان في العراق اعواناً وانصاراً لآل البيت عليهم السلام وطليعة رباها أمير المؤمنين عليه السلام واعدها لتسير على خطه وتقف ضد الانحراف والخروج المتعمد على الاسلام، فانه توقع ان الحسين عليه السلام سيذهب إلى هناك لاعلان ثورته على يزيد، ربما بدعوة من أهل العراق. . هذا اذا صح عنه قوله: (أما الحسين بن علي فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، وارجو ان يكفيكه الله بمن قتل اباه وخذل اخاه، ولا اظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه)[(٣)].

وانه لما لا شك فيه ان هذه الوصية مكذوبة أو موضوعة لاننا سنرى فيما بعد وفاته انه اوصى خادمه سرجون ان يري يزيداً عهداً كتبه، وفيه يأمره بوضع عبيد الله بن زياد على العراق لغرض قتل الحسين عليه السلام اذا ما خرج، كما ان عبد الرحمن بن أبي بكر لم يكن قد عاش حتى وقت هذه الوصية، وانما توفي قبل معاوية بخمس سنين ـ قتله معاوية بالسم ايضاً ـ فلا داعي لمخاوفه منه اذا ما كان قد توفي قبله.

ولكنه أي معاوية كان يدرك ان أهل العراق قد سكتوا تحت وطأة سيفه وجلاديه، اما اذا غاب، ووجدوا امامهم الحسين عليه السلام ويزيد، فانهم في تلك الحال ربما لن يعدلوا بالحسين عليه السلام احداً، ويزيد مهما بلغت قوته فلن تبلغ بحال قوة معاوية التي لم تقم على السيف المجرد فقط.

---

(١) و(٢) الطبري ٦/ ١٧٩-١٨٠, ومن المعلوم (ان الحسين بن علي عليه السلام كلم معاوية في امر ابنه يزيد ونهى عن ان يعهد اليه، فابى عليه معاوية حتى اغضب كل منهما صاحبه) شرح ابن ابي الحديد، دار احياء التراث العربي م ١/ ١٧٢.

(٣) المصدر السابق ٦/ ١٨٠.

ولا نظن ان الرواية الموضوعة عن معاوية والتي قيل انه اوصى يزيداً فيها بشأن الحسين عليه السلام قائلًا:

(فان قدرت عليه فاصفح عنه، فأني لو أني صاحبه عفوت عنه)[1].

الا موضوعة وغير صحيحة قيلت لتبرئة معاوية من التحريض على قتل الحسين عليه السلام، لو تصدى لخليفته يزيد فيما بعد، وهي كتلك التي رويت بشأن يزيد، وانه لم يكن راضياً عن قتل الحسين عليه السلام، من قبل ابن زياد، وانه قال:

(.. لقد اقنع من طاعتكم بدون قتل الحسين ـ لعن الله بن سمية ـ اما والله لو كنت صاحبه لتركته)[2].

اذ ان من المؤكد ان رد فعل يزيد على مقتل الحسين وأصحابه عليه السلام وحين جلبت اليه رؤوس القتلى، وتقريبه ابن زياد بشكل ملحوظ بعد ذلك كما سنذكر بعون الله تؤكد عكس الذي قيل على لسانه، ولعله من موضوعات الامويين المتفننين بهذا المجال.

ولابأس ان نشير هنا إلى ان ابن زياد، الذي الصقت به وحده شخصياً جريمة مقتل الحسين عليه السلام في محاولة لتبرئة يزيد منها، قال لتبرير فعلته:

(.. اما قتلي الحسين فانه اشار علي يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله)[3].

وفي اغلب الظن ان هذه الروايات تذكر في معرض تبرئة ساحتيهما من هذه الجريمة البشعة التي اضيفت إلى سجل الجرائم الاموية بحق الاسلام والمسلمين[4].

لقد كان معاوية يدرك ان يزيد سيواجه بمقاومة شديدة من قبل المسلمين، وانه واجهها فعلًا حينما رفض الحسين عليه السلام مبايعته ووالده لا يزال على قيد الحياة، وانه لم يكن يتمتع بالقوة والجلد والصلابة التي كان يتمتع بها، وانه لذلك ربما ضعف امام تيار اية ثورة محتملة ضده، (واحتمال قيام الثورة هنا من الحسين عليه السلام في اغلب

---

(١) نفس المصدر ٦/ ١٨٠.

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٢٣.

(٣) ابن الاثير ٣/ ٤٧٤.

(٤) وقد حاول ابن زياد ايضاً الصاق الجريمة بعمر بن سعد.. وحاول هذا الصاقها بشمر... الخ حينما ادركوا النتائج المترتبة عليها ونظرة الامة اليهم بعد ذلك.

الظن)، وقنع بزق من الخمر وجارية حسناء تغنيه وتعاطيه خمرته، وترك كرسي الخلافة الذي بذل معاوية جهوداً ضخمة ليجعله في البيت الاموي، فلا يخرج منه إلى الابد، لذلك فانه عمد إلى تحشيد القادة العسكريين والعمال الذين اتسموا بالقسوة والجرأة على القتل خلف يزيد، الذي اقرهم على مناصبهم عند مجيئه للسلطة.

ومن هنا فان اهم حدثين احتمل معاوية وقوعهما هما ثورة الحسين بن علي عليه السلام على يزيد ابنه، وثورة أهل المدينة عليه كذلك.

استعدادات معاوية لاحتمالات المواجهة

وقد اعد للامر الاول عدته وكتب عهداً اودعه سرجون خادمه الذي قال ليزيد عندما بلغهما خروج الحسين عليه السلام إلى العراق:

(أرأيت معاوية لو نشر لك، أكنت أخذاً برأيه؟ قال: نعم، فاخرج عهد عبيد الله على الكوفة، فقال: هذا رأي معاوية، ومات وقد امر بهذا الكتاب، فأخذ برأيه)[١].

كما اعد للامر الثاني عدته ايضاً، فقد قال ليزيد:

(ان لك من أهل المدينة يوماً فان فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبه، فانه رجل قد عرفت نصيحته لنا)[٢].

فأهل المدينة كانوا من ضحايا معاوية. كما انه نفسه كان المسؤول الاول عن مجزرة الطف.

ومن الطريف ان نذكر هنا ان معاوية اراد نقل منبر الرسول صلى الله عليه وآله من المدينة، ليستكمل بذلك صورة نقل الخلافة امام المسلمين ويجعلها تبدو امامهم كأرث خاص له ولبنيه، واراد بذلك تجريد مدينة الرسول من القدسية التي تمتعت بها امامهم، لقد اشاع معاوية جوا من الارهاب، ربما اراد به ترويض البقية التي احتمل انها ستحمل لواء المعارضة ضده، وقام بقتل مجموعة من اصحاب أمير المؤمنين عليه السلام والموالين له، مثل حجر بن عدي واصحابه وميثم الثمار وعمرو بن الحمق وغيرهم، مع انهم لم يقوموا بعمل مسلح ضد دولته، وما نظن انه كان سيحجم عن تنفيذ تهديده بخصوص

---

(١) الطبري ٦/ ٢٠٠ والعقد الفريد ٥/ ١١٩ وقيل انه قال ليزيد (.. فاما الحسين بن علي فارجو ان يكفيكه الله بمن قتل اباه وخذل اخاه العقد الفريد ٥/ ١٢٣.

(٢) ابن الاثير ٣/ ٤٥٦.

قتل الحسين عليه السلام وبقية الرافضين لبيعة يزيد الذين بايع اغلبهم على اية حال فيما عدا ابن الزبير، وقادة بني هاشم.

وكما انه تهدد الذين لم يبايعوا بالقتل، فانه حاول استمالتهم ايضاً عسى ان يبايعوا يزيداً، وكأنه اراد بذلك اشعار الامة اذا ما اصبح الرأي العام ضده، انه لم يأل معهم جهداً، وانه القى (الحجة) عليهم، واذا ما قتلوا بعد ذلك، فربما كان ذلك بسبب تصرفاتهم واعراضهم عن البيعة التي (أقرها وارتضاها واجمع عليها) المسلمون كافة:

فقد روي انه اتبع سياسة مغايرة تجاه المعارضين، وعندما ورد المدينة ونظر إلى الحسين عليه السلام قال:

(مرحباً بسيد شباب المسلمين[1]، قربوا دابة لأبي عبد الله، وقال لعبد الرحمن ين أبي بكر: مرحباً بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق، وقال لابن عمر: مرحباً بصاحب رسول الله وابن الفاروق، وقال لابن الزبير: مرحباً بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمته، ودعا لهم بدواب فحملهم عليها وخرج حتى اتى مكة)[2].

ولعله اراد ان يمنيهم بحصة يسيرة من ملكه كما فعل مع عمرو بن العاص، الذي اعطاه مصر واستردها بعد هلاكه، على ان يكونوا بطانة ليزيد ومن اعوانه ونصرائه، واراد ايهامهم بان يزيد انما هو خليفة في الظاهر، اما الامر والنهي فهما لهم في الواقع وقد قال لهم:

(قد علمتم نظري لكم وتعطفي عليكم، وصلتي ارحامكم، ويزيد اخوكم وابن عمكم، وانما اردت ان اقدمه باسم الخلافة، وتكونوا انتم تأمرون وتنهون. فسكتوا)[3].

كان معاوية يصر في كل اطوار حياته بعد انتصار الاسلام التأكيد على انتمائها لآل عبد مناف ومركزه في قريش وقرابته من الرسول صلى الله عليه وآله، ووصل الامر إلى اعتباره

---

(١) ولم يقل له مرحباً بسيد شباب اهل الجنة كما اشار الى ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله والفرق بين المعنيين واضح. . لكنه لو قال له كما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل لكان قد اعترف بذلك واصبح لزاماً عليه الاقرار بتفوقه عليه السلام عليه وعلى ذريته ومنهم يزيد الذي يريد اخذ البيعة له.

(٢) العقد الفريد ٥/ ١١٣.

(٣) العقد الفريد ٥/ ١١٣ وراجع العواصم من القواصم للقاضي ابي بكر بن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب ط ١ السلفية ص ٢٢٢/ ٢٢٤.

من اقرب المقربين إلى الرسول ﷺ، بل وانه المقصود (بآل الرسول)، ووضع له رواته وقصاصوه، وربما ابتكرت مخيلته هذه القصة لهم ليرووها، ويجعلوا احد اطرافها الحسين عليه السلام نفسه، وهي قصة طريفة لا تنطلي على المسلمين، غير انها لا بد ان تكون قد انطلت على أهل الشام المخدوعين به والمقتنعين باسلامه، بل وبحرصه على الاسلام! فقد روي ان الحسين عليه السلام وفد على معاوية زائراً في يوم الجمعة وكان قائماً على المنبر خطيباً فقال له رجل من القوم: [ائذن للحسين يصعد المنبر، فقال له معاوية: ويلك دعني افتخر، ثم حمد الله واثنى عليه، ووجه خطابه للحسين قائلًا له:

سألتك يا ابا عبد الله أليس انا ابن بطحاء مكة؟

فقال عليه السلام: أي والذي بعث جدي بشيراً.

سألتك يا ابا عبد الله، اليس انا خال المؤمنين؟

اي والذي بعث جدي نبياً.

سألتك يا ابا عبد الله اليس انا كاتب الوحي؟

اي والذي بعث جدي نذيراً.

ثم نزل معاوية عن المنبر، فصعد الحسين فحمد الله بمحامد لم يحمده الاولون والآخرون بمثلها، ثم قال: حدثني أبي عن جدي عن جبرائيل عن الله تعالى: ان تحت قائمة كرسي العرش ورقة آس خضراء مكتوب عليها «لا اله إلا الله محمد رسول الله، يا شيعة آل محمد لا يأتي احدكم يرم القيامة إلا ادخله الله الجنة، فقال له معاوية: سألتك يا ابا عبد الله من شيعة آل محمد؟

فقال عليه السلام: الذين لا يشتمون الشيخين ابا بكر وعمر، ولا يشتمون عثمان ولا يشتمونك يا معاوية.

وعلق الحافظ ابن عساكر على هذا الحديث بقوله: هذا حديث منكر، ولا أرى سنده متصلًا إلى الحسين)[1].

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤/ ٣١٣ عن (حياة الحسين بن علي) باقر شريف القرشي مكتبة الداوري، قم ايران ٢/ ١٥٨/ ١٥٩.

وقد رويت قصة طريفة مفادها ان معاوية اراد اجبار احد الموالين القدامى لأمير المؤمنين عليه السلام على سبه والبراءة منه وهو رجل من بني تميم، وقد تملص من ذلك بحيلة=

وحاول معاوية ايضاً تحميل الرافضين بيعة يزيد مسؤولية تحريض الآخرين على ذلك، وتزعم الحركة المضادة للحكم، وهو قد لجأ بذلك إلى اسلوب قد يجعلهم يتنصلون من مسؤولية التحريض، وتحمل مسؤوليتهم الشخصية بعدم البيعة لا غير، ومن ثم تغيير الموقف بعد ذلك تحت وطأة التهمة (الثقيلة) بالتحريض خوفاً من العقاب الصارم المتوقع، وهو اسلوب نجح فيه في احتواء معظم هؤلاء الخصوم، وجذب بعضهم إلى صفه أو تحييدهم واخراجهم من ساحة الصراع، وقد نجع مع ابن عمر، كما انه لجأ إلى سم عبد الرحمن بن أبي بكر، وهو الاسلوب الذي طالما لجأ اليه مع خصومه ومنافسيه مثل الإمام الحسن عليه السلام ومالك بن الاشتر، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وسعد ابن أبي وقاص وغيرهم، ويبدو انه لم يكن يجد حرجاً فيه، وكان يتندر على مهارته في استعماله وقد قال في احدى المرات بعد اغتيال احد مناوئيه بالسم: ان لله جنوداً من عسل، وكانت القوة الحقيقية الباقية، متمثلة بالامام الحسين عليه السلام، تقض مضجعه، فالامام الحسين، كان بنظر المسلمين الممثل الحقيقي عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وكان الوريث الشرعي لعلمه وخلافته، وكان واقع حاله يدل على انه مؤهل فعلًا لشغل هذا المنصب بجدارة، ولم يكن هناك أي وجه للمقارنة بينه وبين يزيد، الذي كانت كل مؤهلاته هو تمتعه بدعم واسناد والده والطغمة الحاكمة والمقربة من الحكم، والذي اشرنا إلى طرف من سلوكه الذي لا يتيح له حتى الانتماء للاسلام، بل ان اقوالًا صدرت منه فيما بعد على شكل ابيات شعرية دلت على عدم اعترافه بالاسلام اصلًا، ومن هنا كانت مخاوف معاوية الحقيقية من الحسين عليه السلام، اذا بقي يزيد وحده في الساحة ـ بعد هلاكه هو ـ بمواجهة الإمام الحسين عليه السلام، فمن كان يستطيع التكهن بتصرف عموم المسلمين حينذاك، غير انه على أي حال احكم قبضته على ارجاء مملكته ومهد لحكم يزيد، واعد الامة لتقبله واوجد طبقة كبيرة متحيزة مرتبطة به، وجعل مصيرها مرتبطاً بمصيره، ولا بد انها ستستميت في سبيل الحفاظ على (المكاسب) التي حصلت عليها في ظل الدولة الاموية.

=طريفة وقال لمعاوية ت (نطيع احياءكم، ولا نبرأ من موتاكم) العقد الفريد ٤/ ١١٩ مدركاً ان ذلك يشبع غروره بادعاء القرابة الى آل البيت عليهم السلام والرسول صلى الله عليه وآله ولعل معاوية اراد لهذه القصة ان تنتشر لكي يؤكد على لسان شاهد ثقة على قرابته من الرسول صلى الله عليه وآله. وقد ملاته هلت هذه المقالة زهواً وامر زياداً قائلاً: (هذا رجل فاستوص به خيراً).

الحسين في مواجهة معاوية الناقض لعهد الحسن عليه السلام

ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام بالذي يجهل مركزه أو موقفه من المسلمين، ولم يكن احد اعرف به منه هو عليه السلام، وكان يقوم بمسؤولياته على ضوء الظروف الجديدة التي اخل بها معاوية بتعهداته للامام الحسن عليه السلام، وظهر مكشوفاً امام الامة، واخذت تتساءل بشأنه وتعيد النظر بمواقفه مع انها لم تجرؤ في جو الارهاب الذي اشاعه على اعلان موقفها منه، لقد كانت تستنكر اعماله بقلبها فقط، ولم ترفع بوجهه اصبعاً أو سيفاً، ولقد كان الإمام الحسين عليه السلام املًا مرتقباً وحيداً للامة، لكي يقوم بهذه المهمة، وكان هو عليه السلام يدرك انه يستطيع بفعل ملحوظ وواضح وامام انظار كل ابنائها ان يجعلها تعيد النظر بمواقفها المتراخية والمستسلمة للنظام الاموي المتسلط.

وكانت مسيرات الحج التي بلغت خمساً وعشرين مسيرة، اداها الامام عليه السلام راجلًا ونجائبه تقاد بين يديه، تمثل احدى الفعاليات العديدة التي كان يقوم بها عليه السلام لجعل المسلمين يلتفتون التفاتة حقيقية إلى دينهم الحق، ليمارسوه كفعل حياتي واضح، ولا بد انه يجد هناك في رحاب بيت الله من ينتظره على احر من الجمر ليستفيد من علمه ويستمع اليه ويجتمع به، وهكذا أخبرنا فعلًا انه كان محط انظار الحجيج الذين كانوا ينتهزون فرصة وجوده بينهم للافادة من علمه والتزود بطاقة ايمانية كبيرة من اللقاء به، وقد عمل بدوره على استثمار فرصة الحج لتوضيح احكام الاسلام، وموقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومنزلته ومنزلة ابيه أمير المؤمنين من الاسلام والرسول صلى الله عليه وآله على السواء، وخصوصاً ما جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وآله يوم الغدير، حينما صدع بأمر الله وجعل من اخيه أمير المؤمنين عليه السلام وصياً له.

(ولسيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام، موقف على عهد معاوية حصحص فيه الحق، كموقف أمير المؤمنين في الرحبة اذ جمع الناس ايام الموسم بعرفات فأشاد يذكر جده وأبيه وأمه وأخيه، فلم يسمع سامع بمثله بليغاً حكيماً يستعبد الاسماع، ويملك الابصار والافئدة جمع في خطابه فأوعى، وتتبع فاستقصى، وادى يوم الغدير حقه، ووفاه حسابه، فكان لهذا الموقف العظيم اثره، في اشتهار حديث الغدير وانتشاره)[١].

(١) المراجعات ١٩٧.

وقد روى (سليم بن قيس الهلالي بعض تفاصيل الحدث في كتابه قال: لما كان قبل معاوية بسنتين حج الحسين بن علي عليه السلام وابن عباس وعبد الله بن جعفر فجمع الحسين عليه السلام بني هاشم رجالهم ونساءهم ومواليهم وشيعتهم من حج منهم، ومن الانصار من يعرفه الحسين عليه السلام وأهل بيته، ثم لم يترك احداً حج ذلك العام من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ومن التابعين من الانصار المعروفين بالصلاح والنسك إلا جمعهم، واجتمع عليه بـ (منى) اكثر من سبعمائة رجل، وهو في سرادقة عامتهم من التابعين ونحو من مائتي رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وآله، فقام عليه السلام فيهم خطيباً فحمد الله واثنى عليه، ثم قال: اما بعد، فان هذا الطاغية يعني معاوية قد صنع بنا وبشيعتنا ما قد علمتم ورأيتم وشهدتم، واني اريد ان اسألكم عن شيء، فان صدقت فصدقوني، وان كذبت فكذبوني، اسمعوا مقالتي واكتبوا قولي، ثم ارجعوا إلى امصاركم وقبائلكم، فمن ائتمنتموه من الناس ووثقتم به فادعوه إلى ما تعلمون من حقنا، فاني اتخوف ان يدرس هذا الحق ويغلب ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وما ترك شيئاً مما انزل الله منهم من القرآن إلا تلاه وفسره، ولا شيئاً مما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في أبيه واخيه وامه وفي نفسه واهل بيته إلا رواه، وكل ذلك يقول الصحابة «اللهم نعم قد سمعنا وشهدنا» ويقول التابعون: «اللهم نعم قد حدثنا من نصدقه ونأتمنه من الصحابة» فقال: انشدكم بالله إلا حدثتم به من تثقون يه وبدينه)[1].

ان هذا الموقف الذي يعلن فيه الحسين عليه السلام فضل أهل البيت عليهم السلام على رؤوس الاشهاد وخلال اكبر تجمع يشهده المسلمون في موسم الحج، يشكل تهديداً لمعاوية، لانه يهدم (الشرعية) التي يحاول بناءها واقامة ملكه على اساسها، وينسف كل المقولات والاطروحات الاموية بخصوص امكانية استخلاف المفضول، وعدم الخروج على الفاسق، ووجوب طاعته، إلى غير ذلك من الامور التي شكلت خرقاً واضحا لنظرية الاسلام في الحكم والحياة ولعل معاوية فكر ان هذا الموقف اذا ما تكرر بعد هلاكه، فربما سيكون سبباً لنسف الحكم الاموي برمته، وسيكون يزيد اول (ضحايا) الثورة المحتملة.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام بحر العلوم، ط ٢: ١٠٦/ ١٠٧.

المؤتمر الأموي الأول لمواجهة الحسين عليه السلام

وقد عقد معاوية فيما يبدو مؤتمراً عاجلًا حضره مروان وسعيد بن العاص وجماعة من أهل الشام.

اما موعد هذا المؤتمر فيبدو انه بعد اغتيال الإمام الحسن عليه السلام بالسم لمناقشة المخاطر التي يسببها الحسين عليه السلام ليزيد من بعده، كما ادرك ذلك سعيد بن العاص، ونوه به امام معاوية فقد روي عن العتبي انه قال:

(دعا معاوية مروان بن الحكم فقال له: اشر علي في الحسين.

قال: تخرجه معك إلى الشام، فتقطعه عن أهل العراق وتقطعهم عنه.

قال: اردت والله ان تستريح منه وتبتليني به، فان صبرت عليه صبرت على ما اكره، وان اسأت اليه كنت قد قطعت رحمه؛

فاقامه وبعث إلى سعيد بن العاص، فقال له: يا ابا عثمان أشر علي في الحسين، فقال: والله انك ما تخاف الحسين إلا على من بعدك وانك لتخلف له قرناً ان صارعه ليصرعنه، وان سابقه ليسبقنه، فذر الحسين منبت النخلة، يشرب من الماء، ويصعد في الهواء، ولا يبلغ إلى السماء قال: ما غيبك عني يوم صفين؟ قال: تحملت الحرم، وكفيت الحزم، وكنت قريباً لو دعوتنا لاجبناك، ولو ثلمت لرفعناك؛

قال معاوية: يا أهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم)[1].

ربما لم يشأ معاوية ان يعمد إلى قتل الحسين عليه السلام علانية خشية العواقب التي قد تترتب على ذلك، خصوصا وانه اصبح في نهاية عمره وربما ضعف بمواجهة النتائج المتوقعة، وربما حاول مع الحسين ما حاوله مع اخيه عليه السلام فلم ينجح، غير ان من الثابت، انه كان يريد الخلاص منه بأية طريقة وكانت مشورة مروان الانتهازي باخراج الحسين عليه السلام إلى الشام لقطعه عن أهل العراق على حد تعبيره تؤكد ان أهل العراق لم ينقطعوا عن الحسين عليه السلام، وانهم كانوا يواصلونه رغم وجوده في المدينة.

ولم يفت رأي مروان معاوية الذي يعلم اكثر من غيره من هو مروان، وربما رأى انه كان يسعى للحط من قيمته للصعود مكانه ومنافسة يزيد فيما بعد، باعتباره كبير البيت الاموي بعد معاوية، وقد رد عليه رافضاً اقتراحه.

(١) العقد الفريد ٤/ ١٠٧.

أما الاقتراح الذي راقه فهو اقتراح سعيد بن العاص الذي ادرك ان معاوية كان يتخوف على يزيد من الحسين عليه السلام ولانه يعرف ان يزيد ما كان ليتوقف في امر الحسين عليه السلام، وانه سيلجأ إلى اسلوب العنف وربما القتل معه، فانه حرض معاوية ويزيد على ذلك مسبقاً متوقعاً ان يكمل يزيد المهمة التي لم يكن معاوية يريد انجازها، وقد سعد معاوية باقتراح سعيد، وافتخر به امام جمع أهل الشام الذي دعاهم لحضور المؤتمر، ويؤكد هذا وصيته وعهده الذي اودعه سرجون خادمه، فان نية استئصال الحسين عليه السلام كانت امراً مبيتاً من قبل اركان النظام الاموي، سواء بقي الحسين عليه السلام في المدينة أو سار إلى الكوفة أو مكة أو غيرهما، ما دام مصرا على عدم بيعة يزيد والاستسلام له ووضع يده في يده، وهو امر يدركه الإمام الحسين عليه السلام تمام الادراك، كما انه على ثقة من ثبات موقفه وعدم تغيره بأي حال من الاحوال.

لقد كان لكل من الحسين عليه السلام وابن الزبير، الذي بقي على موقفه الرافض ليزيد أيضاً دوافعه وأهدافه ونواياه.

وقد حاول معاوية ايهام الحسين عليه السلام ربما بقصد تخويفه بانه كان يقود الحملة ضد بيعة يزيد لتحميله مسؤولية الشقاق أو الثورة المحتملة ضده، فلما قدم معاوية المدينة:

(ارسل إلى الحسين بن علي فقال: يا ابن اخي، قد استوثق الناس لهذا الامر غير خمسة نفر من قريش انت تقودهم يا بن اخي، فما ادى بك إلى الخلاف؟)[1]

وقد كتب رسالة اخرى يهدد بها الإمام الحسين قائلًا فيها:

(اما بعد، فقد انتهت الي امور عنك لست بها حرياً لان من اعطى صفقة بيمينه جدير بالوفاء، فاعلم رحمك الله اني متى انكرك تستنكرني ومتى تكدني اكدك، فلا يستفزنك السفهاء الذين يحبون الفتنة. وقد رد عليه الامام عليه السلام قائلًا: (ما اريد حربك ولا الخلاف عليك)[2].

ومن جواب الامام عليه السلام المقتضب نعرف انه لم يعلن موافقته على مبايعة من

---

(١) الطبري ٦/ ١٧٠.

(٢) الاخبار الطوال، الدينوري، المكتبة العربية ٢٠٥/ ٢٠٦.

يأتي به معاوية للخلافة، وانما اشار إلى انه لا ينوي محاربة معاوية شخصياً، وانه غير ملتزم بتعهده هذا اذا ما هلك معاوية وجاء (خليفة) آخر.

ان من الواضح ان الحسين عليه السلام لم يستجب لمناورات معاوية، وظل على عزمه على رفض مبايعة يزيد مهما يناله من ذلك، وكان يدرك كل الاحتمالات وكل ما يمكن ان يناله بسبب ذلك.

كان عليه السلام يعلم انه الامل الاخير للمسلمين، واذا ما استجاب الحسين لبيعة يزيد، فان هذا الامل سيضيع منهم إلى الابد، وسيكون هو مسؤولاً عن السقوط النهائي للامة، وسيعلن النظام الحاكم المنحرف عن وجهه القبيح، ولن يلجأ حتى للتستر بالشعارات الاسلامية الظاهرية، ما دام امام هذه الامة وابن امامها وابن رسولها صلى الله عليه وآله قد اقر انحراف الحاكم، ووضع يده في يده، وسار في ركابه، واصبح ضمن حاشيته واعوانه، اذ ان معاوية كان رغم انحرافه الواضح متستراً بلباس الدين ومدعيا لنفسه افضالاً وامتيازات عديدة، حتى لقد دفع مبالغ طائلة لرجال حسبوا انفسهم على الصحابة لرواية احاديث كاذبة على لسان الرسول صلى الله عليه وآله تشيد به شخصياً مقابل تلك الاحاديث الصحيحة المتواترة لدى المسلمين، والتي قيلت بحق آل البيت عليهم السلام . . ، ثم (أحاديث) اخرى اراد بها الحط من قيمتهم ومنزلتهم عليهم السلام لدى المسلمين.

اما يزيد، فما عسى معاوية ان يقول وما عسى الوضاعون الكاذبون ان يفعلوا بشأنه ايضاً؟ وهنا وصل الدجل مرحلة جديدة وتطورت اساليب الدجالين لوضع احاديث مناسبة تجيز هذه المرة استخلاف رجل كيزيد، وجاء من يقول لنا ان:

(معاوية قد عدل إلى ولاية ابنه وعقد له البيعة، وبايعه الناس، وتخلف عنها من تخلف، فانعقدت البيعة شرعاً، لانها تنعقد بواحد وقيل باثنين، فان قيل ان من شروط الإمامة العدالة والعلم ولم يكن يزيد عادلاً ولا عالماً، فان الحكم في ذلك متعذر، كما ان امامة المفضول موضع جدل وخلاف بين العلماء)[1]. (وكان بنو امية يظنون ان طاعة الإمام واجبة في كل شيء، وان الإمام لا يؤاخذه الله بذنبه)[2].

(١) ابن كثير ط دار الفكر العربي ٨ ص ٢١٩.
(٢) ابن تيميه منهاج الاعتدال ط السلفية بمصرص ١٦٢.

هذا هو الهراء الذي طالعنا به (الفقه الاموي)، والذي لا يزال مع الاسف موضع قناعة لدى جماهير واسعة من المسلمين، مع ان هذا الامر الذي ساهم به رجال لم يعرفوا إلا مصالحهم، هو الذي جعل الاسلام بعيداً عن حياتنا، وجعلنا في حالة افتراق دائمية عنه، كيف غابت حيلة معاوية عن اذهان الاذكياء والواعين والعلماء؟ وهل ان مصالح الاسلام فعلًا لم يكن ليضطلع بها إلا معاوية ويزيد وعبد الملك والوليد واضرابهم؟

وهل يستطيع مدع ان يدعي ان يزيداً كان يمثل الاسلام حقاً؟ وما هي تلك الضرورة التي الجأت الامة إلى قبول خلافة المفضول والجاهل والفاسق؟ ولماذا اخذنا نعتقد ان طاعة (الامام) الجاهل المتخلف الفاسق واجبة وانه غير محاسب امام الله؟ هل هذا هو الاسلام؟ وهل استشهد المسلمون وأوذوا لتثبيت هذا المبدأ المتخلف البعيد عن الاسلام جملة وتفصيلًا؟

ان علينا، عندما نريد مناقشة اية قضية اسلامية، ان نفعل ذلك بتصور اسلامي صحيح، لا تصور جاهلي ملفق وقائم على مصالح من استلموا الحكم، وبعد فما هي مصلحتنا نحن هنا، اذا ما تبنينا موقفاً بعيداً عن الاسلام، واذا ما تحيزنا دون وعي ودون شعور بالمسؤولية إلى اناس كانوا سبب دمارنا نحن ايضاً، ومنا من ينحازون اليهم فعلًا، هل ادركنا اننا نحن الضحية المباشرة لمثل ذلك الدجل الذي طالعتنا به الدولة الاموية بقيادة معاوية؟

هل روي ليزيد فضل واحد، سوى تلك الاقاصيص المضحكة التي طالعنا بها كهنة الدجل والخداع ورواة الاحلام ومرتزقة الشعراء؟

ومع ذلك فقد. .

(بويع ليزيد بن معاوية في النهاية واخذ هذا بدوره البيعة لابنه معاوية بن يزيد على الناس قبل موته. .)[1].

وهكذا. .

(أقعده في قبة حمراء فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد)[2].

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٦٦.

(٢) الكامل للمبرد ١/ ٣٨.

وقد خاطبه لما مرض مرضته التي هلك فيها قائلًا:

(يا بني اني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الاشياء، وذللت لك الاعداء، واخضعت لك اعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد)[1].

واكملت فصول اكبر مهزلة شهدها تاريخ الاسلام، وشهد المسلمون ولا يزالون يشهدون اثارها الرهيبة، ومع ذلك فلا يزال هناك من ينظر اليها كما ينظر إلى مسألة لا تعنيه ولا تعني الاسلام بشيء، وكأنها لم تؤثر على مصير وحياة مليارات البشر على امتداد تاريخ هذه الامة.

فكيف امكن السكوت على سابقة خطيرة كولاية يزيد على الامة وتبريرها من قبل (علماء) مسؤولين امام الله وامام الامة نفسها؟

حكمة الحسين في تقدير الظروف الموضوعية في عهد معاوية

ولا شك ان الحسين عليه السلام قدر الظرف الذي اوجده معاوية لنفسه، وقدر انه أي معاوية يتمتع برصيد لا يستهان به لدى فئات عديدة من ابناء هذه الامة المخدوعة المغلوبة، ولم يشأ ان يتصدى بثورة معلنة على الانحراف المبرر والمغطى من قبل معاوية ورجاله، ولم تكن الظروف الموضوعية للثورة قد تهيأت بعد، ما دام معاوية يعلن ويجد من يصدقه انه الممثل الحقيقي للاسلام، ويجد ايضاً من يستجيب لادعاءاته، بل ويجند نفسه لنشرها، ومع ذلك، ومع انه لم يعط المبرر الكافي لمعاوية للقضاء عليه وقتله فانه..

(لما بايع الناس معاوية ليزيد، كان الحسين ممن لم يبايع له، وكان أهل الكوفة يكتبون اليه يدعونه إلى الخروج اليهم في خلافة معاوية كل ذلك يأبى عليهم)[2].

وربما كان بعضهم يختلف اليه في المدينة كما روى الدينوري:

(اتى نفر من الشيعة حسيناً في المدينة، فاخبروه بما حدث لحجر واصحابه من قتل وسجن وتشريد فشق ذلك عليه ـ واقام ذلك النفر في المدينة يختلفون اليه ـ ونمى الخبر إلى والي المدينة مروان بن الحكم فكتب إلى معاوية: ان رجالًا من أهل العراق

---

(١) الطبري ٣/ ٢٦٠ ط دار الكتب العلمية.

(٢) ابن كثير ٨/ ١٦٣.

قدموا على الحسين بن علي رضي الله عنهما وهم مقيمون عنده يختلفون اليه، فاكتب الي بالذي ترى)[١].

وكان هذا هو الذي دعا معاوية إلى تهديد الامام عليه السلام كما روينا قبل قليل، لقد فوت الامام عليه السلام الفرصة على معاوية مرات عديدة، وكان يتصرف بحذر تجاهه، مع انه لم يبد له أي استعداد للمهادنة بخصوص استخلاف يزيد كما رأينا، وكان يأبى على من ارادوا مبايعته في زمن معاوية، ويرفض ذلك، رغم حرصهم على ذلك ودعوتهم اياه عدة مرات، وفي هذا دليل على انه لم يكن يتصرف بدافع من رد فعل آني، أو بدافع من حماسة طارئة، أو (نزوة اراد اظهارها) كما عبر عن ذلك معاوية، واستعار تعبيره نفر من الكتاب والمؤرخين والكتاب المتحمسين لقضية معاوية، ومنهم كتاب محدثون متلقون، نظروا إلى المسألة برمتها بعين اموية، ولعل بعضهم كانوا مخدوعين ومضللين. . ، اما البعض الآخر فربما كان يعمل في ظل نظام لا يختلف عن ذلك النظام الاموي الاول. . ، ومن شأن شجبه للنظام الاموي ان يولد شجباً للنظام الذي يرتزق في ظله.

موقف الإمام الحسين عليه السلام من رسائل أهل العراق التي تدعوه للثورة على معاوية

وقد روي لنا انه:

(لما توفي الحسن بن علي وبلغ الشيعة في العراق ذلك اجتمعوا في دار سليمان بن صرد في الكوفة، وكتبوا إلى الحسين يعزونه، ومما جاء برسالتهم: ما اعظم ما اصيب به هذه الامة عامة، وانت وهذه الشيعة خاصة بهلاك ابن الوصي وابن بنت النبي، علم الهدى ونور البلاد المرجو لاقامة الدين واعادة سير الصالحين، فاصبر رحمك الله على ما اصابك، ان ذلك لمن عزم الامور، فان فيك خلفاً عمن قبلك، وان الله يؤتي رشده من يهدي بهديك، ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك المسرورة بسرورك السائرة بسيرتك المنتظرة لامرك، شرح الله صدرك، ورفع ذكرك واعظم اجرك وغفر ذنبك ورد عليك حقك)[٢].

وفي هذه الرسالة ايحاءات قوية ودعوة واضحة للقيام ضد معاوية واستعداد واضح للامتثال لامر الامام عليه السلام.

---

(١) الاخبار الطوال ٢٠٥.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢٥٨.

على ان رسائل صريحة وردت اليه بايدي رسل من الكوفة يدعونه إلى القدوم اليها وتزعم الحملة المناوئة لمعاوية.

فقد (قدم المسيب بن عتبة الفزاري في عدة معه إلى الحسين بعد وفاة الحسن، فدعوه إلى خلع معاوية، وقالوا: قد علمنا رأيك ورأي أخيك)[١].

كما (ارسل رؤساء الشيعة إلى الحسين رسائل يعزونه بأخيه وارسل اليه (جعدة بن هبيرة بن أبي وهب) الرسالة التالية:

(اما بعد: فان من قبلنا من شيعتك متطلعة انفسهم اليك، لا يعدلون بك احداً، وقد كانوا عرفوا رأي الحسن اخيك في وضع الحرب، وعرفوك باللين لاوليائك والغلظة على اعدائك والشدة في امر الله، فان كنت تحب ان تطلب هذا الامر فاقدم علينا، فقد وطنا انفسنا على الموت معك)[٢].

وكان رد الحسين عليه السلام منسجماً والمرحلة التي كانت تمر بها الامة في ظل الظروف الاموية الطارئة، ولم يكن منفعلًا أو متسماً برد الفعل السريع الذي حاول معاوية ان يطبع به سلوكه عليه السلام، ويصوره على انه نتيجة اندفاعات أو نزوات لا غير.

فقد اجاب عليه السلام المسيب بن عقبة الفزاري وجماعته قائلًا:

(اني لارجو ان يعطي الله اخي على نيته في حبه الكف، وان يعطيني على نيتي في جهاد الظالمين)[٣].

واجاب أهل الكوفة بقوله:

(اما اخي فارجو ان يكون الله وفقه وسدده فيما يأتي. واما انا فليس رأي اليوم ذاك، فالصقوا رحمكم الله بالارض، واكمنوا في البيوت واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً، فان يحدث الله به حدثاً وانا حي كتبت اليكم برأيي)[٤].

لقد كان عليه السلام يعلم ان مستلزمات الثورة واسبابها لم تكن معدة لكي يقوم بها.

---

(١) ابن كثير ٨/ ١٦٤.
(٢) الدينوري ص ٣٠٣.
(٣) ابن كثير ٨/ ١٦٤.
(٤) الدينوري ص ٢٠٣

قدرات معاوية على تزوير الوقائع

وانه حتى اذا قام بدور بطولي مرموق، وحتى اذا استشهد في سبيل الاسلام لكشف الانحراف الاموي الواضح، فان مؤهلات معاوية وقدراته الشريرة، ستصور المسألة بعد قيامه بابادة الثوار وكأنها مسألة جماعة من الخوارج الذين ارادوا شق عصا الطاعة وتفريق الامة والجماعة، وربما تصوير الحسين عليه السلام واظهاره بمظهر المخدوع بشيعة والده، وهو ما عمدوا اليه فعلًا بعد مجزرة الطف، وكأنه لم يقم بعمل ارادي مدروس تام الابعاد وفي الوقت المناسب للفت نظر الامة إلى حالها المزرية المتخلفة عن الاسلام في ظل النظام الاموي الذي اعلن خروجه عن الاسلام بشكل سافر.

اليس الذي جعل امة كبيرة من الناس تعمد إلى سب أمير المؤمنين عليه السلام ونصب العداوة له بقادر على ان يصور مسألة ثورة الحسين عليه السلام فيما لو قامت في عهده على انها نزوة طمع في ملك، أو خروج على وحدة الامة أو تراجع عن البيعة، ولقام بعد ذلك بحملة تصفيات شاملة لا يدع فيها اياً من آل البيت عليهم السلام أو مواليهم أو اتباعهم، آخذاً على الظنة والشبهة، ولو جد آذاناً صاغية لما يدعيه وشفاهاً مرددة لاباطيله ومزاعمه؟

اما الامر مع يزيد فيختلف عن ذلك اختلافاً بينا، كما المحنا وكما سنوضحه بالتفصيل بعون الله وبهذا نعلم ان أهل الكوفة لم يكاتبوا الحسين بعد هلاك معاوية وحسب، وانما كاتبوه قبل ذلك ودعوه للثورة، وانهم لم (يستخفوه) كما ادعى معاوية، وان الامام عليه السلام لم يستجب بعد ذلك هكذا عبثاً ودون مبررات مقنعة، ودون نظر في العواقب ومعرفة النتائج التي ستترتب على ثورته وخروجه على النظام الجائر، وان موقفه لم يكن رد فعل سريع واستجابة غير مدروسة نشأت نتيجة (نشوة) أو (فرح) عند سماعه بخبر وفاة معاوية وورود كتب أهل العراق عليه، كما سنؤكد ذلك بمزيد من الادلة في هذا الفصل بعون الله، تولد عنه طموح بالزعامة بعد خلو الساحة من معاوية.

فمن يضمن ان معاوية لن يعمد إلى ابتكار عشرات القصص لا على لسان الحسين عليه السلام وحده، كما رأينا قبل قليل بل على السنة آل البيت كلهم عليهم السلام وكما فعل عندما وضع احاديث على لسان الرسول صلى الله عليه وآله يؤكد فيها تفوقه واعترافهم بهذا التفوق، بل وبحقه كخليفة وحيد مقبول بعد الخلفاء الثلاثة الاوائل، وانه لم يكن

الباغي على أمير المؤمنين عليه السلام بل ان العكس هو الصحيح، ويعمد بعد ذلك إلى تزيين يزيد بفضائل مماثلة لا ينكرها احد أو يجرؤ على تكذيبها، هذا اذا لم يعمد بعد خلو الساحة من جميع آل البيت إلى اعلان نواياه بوضوح واعلان حربه السافرة ضد الاسلام دون تحفظ أو مداراة؟

رصيد معاوية لدى الامة المشوشة ـ عامل آخر

وحتى معاوية نفسه ادرك مقدار رصيده في هذا المجتمع الاسلامي الواسع وغير المتجانس أو الموحد من حيث فهم الاسلام والاقتراب منه، ومن حيث تعدد الاصول والجنسيات والعناصر والانتماءات واللغات، وان هذا الرصيد وخصوصاً في مركز القوة المؤثر والمدعوم من قبل الدولة، أي في مركز هذه الدولة، الشام، ولدى الاغلبية ممن جعلهم ينظرون إلى الاسلام بمنظاره الاموي المصلحي البحت، ليس قليلًا على أي حال، ما دام لم يتجاهر بما تجاهر به يزيد، ولم يبد للاغلبية انه قد انحرف كما بدا ذاك، وما دام قد اعلن انتماءه لجيل الصحابة الذين حصلوا على (تزكية) من رسول الله صلى الله عليه وآله بشهادة (صحابة) محدثين كسمرة بن جندب، وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وامثالهم، وحصلوا على (براءة) من الناس، واتيحت لهم (حصانة) خاصة تمنع التعرض لهم والمساس بشخوصهم.

لقد كانت تلك الاحاديث المزورة توصل إلى نتيجة مؤداها (ان الذي يدل على الفضل الكثير هو الصحبة. فانه علق الصحبة في الصحيح على مجرد الرؤية ولو للحظة.. ثم ذكر في الصحيح ثبوت الفضل، لكل صحابي ومعاوية منهم[1].

وهذه بعض نصوص تلك (الاحاديث) المخبرة المنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله :

(آخذين بنظر الاعتبار ان الصحبة بتفسيرهم تعني مجرد الرؤية ولو لحظة..).

فقد زعموا ان النبي محمد صلى الله عليه وآله قد قال:

(احفظوني في اصحابي واصهاري وانصاري، فمن حفظني فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة، ومن لم يحفظني فيهم تخلى الله عنه، ومن تخلى الله عنه يوشك ان يأخذه،

(١) تطهير الجنان، الهيثمي، ص ٩.

احفظوني في اصحابي، ثم الذين يلونهم.

لعن الله من سب اصحابي.

خيرالقرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم.

لو انفق احدكم مثل احد ذهباً ما ادرك من احدهم ولا نصيفة.

خير الناس قرني ثم الذين يلونهم.

ان الله اختار اصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين.

اصحابي كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم.

الله الله في اصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي. من احبهم فقد احبني ومن ابغضهم قد ابغضني، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد أذى الله ومن آذى الله يوشك ان يأخذه.

اذا ذكر اصحابي فامسكوا)[1].

وقد تفهم هذه الحوادث اذا ما ادركنا ان غرض رسول الله ﷺ من بعض هذه الاحاديث أصحابه الحقيقيين الذين رافقوه وصحبوه وتلقوا عنه وحاربوا تحت رايته واستجابوا له استجابة تامة دون تحفظ أو تردد.

لقد كانت الحصيلة النهائية لهذا الكم الهائل من الاحاديث المزورة التي اخترعتها الماكنة الاعلامية الاموية، هي ابراز المنزلة الرفيعة المتفردة (عند الرسول ﷺ) لكل الصحابة، ومعاوية منهم، وذلك في مقابل الاحاديث والآيات القرآنية الواردة بحق أمير المؤمنين عليه السلام . . ، والحق ان معاوية نجح نجاحاً باهراً في اقناع أهل الشام بهذه الاحاديث، كما نجح باسكات المعارضين عن تفنيدها وتكذيبها. . ، حتى اذا ما مضى الجيل الذي رويت فيه، وجاءت اجيال متلقية مخدوعة بذلك الجيل أو بمن نصبوا انفسهم اوصياء عليه، رأينا ان هذه (الاحاديث) تقع منهم موقع التصديق حتى ان بعضهم يسلم بها تسليماً تاماً مقتنعاً بصحتها دون التحقيق بطبيعة الشخص المعني وهو معاوية والأسباب التي دعته إلى ترويجها وافتعالها.

---

(١) الصواعق المحرقة: ٤/ ٥/ ٦/ ٢١٢/ ٢١٤/ ٢١٥/ ٢١٦.

ثم انتقلت حملة تزوير الاحاديث بعد ذلك إلى التركيز على مكانة ومنزلة معاوية بشكل خاص.

من قبيل:

(اللهم اجعله هادياً مهدياً.

معاوية بن أبي سفيان احلم امتي واجودها.

صاحب سري معاوية بن أبي سفيان.

جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال:

يا محمد استوص بمعاوية خيراً فانه امين على كتاب الله ونعم الامين هو.

دخل ﷺ على زوجته ام حبيبة ورأس معاوية في حجرها وهي تقبله، فقال لها:

اتحبيه؟ قالت: ومالي لا احب اخي، فقال ﷺ: فان الله ورسوله يحبانه.

ومنها:

اول هذا الامر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكاً ورحمة، ثم يكون امارة ورحمة..

وقال ﷺ لابي بكر وعمر:

احضروه امركم واشهدوه امركم فانه قوي امين.

ـ اللهم علمه الكتاب والحساب ومكن له في البلاد، وقه سوء العذاب.

ـ اللهم علم معاوية الكتاب والحساب.

ـ قام معاوية خطيباً على منبر النبي ﷺ بالمدينة، فقال:

يا أهل المدينة اين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقوم الساعة إلا وطائفة من امتي ظاهرين على الناس لا يبالون من خذلهم ولا من نصرهم..،

وقال ابو الدرداء:

(في شهادة له امام أهل الشام): ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ اشبه صلاة برسول الله ﷺ من اميركم هذا.

وقيل لعبد الله بن المبارك:

يا ابا عبد الرحمن، ايما افضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: والله ان الغبار الذي دخل في انف فرس معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وآله افضل من عمر بالف مرة، صلى معاوية خلف رسول الله صلى الله عليه وآله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: سمع الله لمن حمده. فقال معاوية رضي الله عنه: ربنا لك الحمد. فما بعد هذا الشرف الاعظم)[1].

وقد روى ابن حجر احاديث اخرى يذم فيها الرسول صلى الله عليه وآله معاوية وآله.. ومع ذلك فان ابن حجر قد أول تلك الاحاديث وجعلها سبباً لمصلحة معاوية في النهاية... وقد ذكر:

(ان النبي طلبه فلم يأت، فدعا عليه). ومع ذلك فانه ذكر ان فقهاء الدولة الاموية (جعلوا ذلك سبيلاً إلى الترحم عليه) ص (٢٨-٢٩). باعتبار ان الرسول صلى الله عليه وآله قد ذكر انه انما كان يدعو على بعض الناس لانه مثلهم يتضايق وينزعج، وان دعاءه انما كان بتصرف شخصي وطلب ان يكون ذلك كفارة لذنوبهم وسبيلاً لعفو الله عنهم، فتأمل كيف ان الاعلام الاموي عندما لم يستطع طمس حقيقة هذا الحديث الاكيد بلعن الرسول صلى الله عليه وآله لمعاوية، اردفه بحديث آخر ازال الاشكال وانهى الامر، والقيت المسؤولية على الرسول صلى الله عليه وآله، وانه وحاشاه من ذلك هو المخطىء وان معاوية كان مظلوماً..، فتأمل ضلالات الدعاية الاموية ومكر الاسلوب الاموي.

معاوية يمهد لقتل الحسين عليه السلام والقضاء على الثورة من خلال وسائل الاعلام الأموي

لقد كانت وصايا معاوية المكررة ليزيد تؤكد عليه لكي يأخذ أهبته لثورات متوقعة من الحسين عليه السلام واهل المدينة الذين يعيش عليه السلام في وسطهم، وارسال قادة عسكريين معروفين ببطشهم وقسوتهم مثل عبيد الله بن زياد ومسلم بن عقبة لقمعها، وكانت تلك الوصايا نابعة من خوف حقيقي من هذه الثورات وامكانية قضائها على الحكم الذي امضى حياته وهو يرسي دعائمه ويشيد بنيانه.

لقد كانت الاسباب التي ادت إلى سكوت الحسن عليه السلام عن معاوية ومصالحته هي نفسها التي ادت إلى ان يصالحه الحسين عليه السلام ايضاً، مع انه اعطى رأيه به صراحة، ثم لم يبايع ليزيد بعد ذلك، بل كان ممن يدعو ويحرض على عدم مبايعته.

---

(١) تطهير الجنان ص ١٠/ ١١/ ١٦/ ٢١.

وقد شعر معاوية ان الحسين عليه السلام كان يشكل مركز الخطر على حكومته، وخصوصاً بعد ان كتب اليه مروان عدو آل البيت التقليدي:

(اني لست آمن ان يكون حسين مرصداً للفتنة، واظن ان يومكم من حسين طويل . .)[١].

فكتب معاوية إلى الحسين عليه السلام محذراً ومخوفاً:

(. . . فانك متى تكدني اكدك. .)[٢].

ومعلوم لدى الجميع ما هو الكيد الاموي الشهير، والى أي مدى يمكن ان يصل معاوية بكيده، ومع ذلك فان هذا التهديد لم يخف الحسين عليه السلام ، ولم يثنه عن مواقفه بشأن يزيد، فكتب اليه:

(اتاني كتابك، وانا بغير الذي بلغني عنك جدير، والحسنات لا يهدي لها إلا الله، وما اردت لك محاربة ولا عليك خلافاً، وما اظن لي عند الله عذراً في ترك جهادك، وما اعلم فتنة اعظم من ولايتك امر هذه الامة)[٣].

فالامام لم ينكر قيامه بالدعوة ضد بيعة يزيد، مع انه كان يرى ان الظروف الموضوعية كانت غير مهيأة للثورة ضد معاوية، الذي اوضح رأيه فيه بصراحة ايضاً، وكان بذلك يدعوه للتنحي عن الحكم ايضاً، وكأن الحسين عليه السلام بذلك كان يقول له: انه اذا ما اتيحت له الفرصة المناسبة التي يستطيع فيها جهاده والثورة عليه وخلعه، فانه لن يتوانى عن ذلك، وكان جوابه اعلاناً نهائياً برفض يزيد، ولنلاحظ هنا ظروف هذا التحدي التي كان فيها معاوية في قمة قوته وجبروته.

واذا صحت الرواية التي اوردها ابن أبي الحديد حول مصادرة الامام عليه السلام مالًا كان مرسلًا من اليمن إلى معاوية، فان ذلك يدل على ان ذلك لم يكن التحدي الاول لمعاوية، وربما استغل معاوية تلك الحادثة ليبرهن) على فورة العواطف لدى الإمام وعدم ترويه واندفاعه وسرعة رد الفعل لديه، أو وجود (نزوة في رأسه) على حد تعبير معاوية، وهو ما كرره باكثر من مناسبة. لقد اراد معاوية تمهيد الجو لقتل الحسين عليه السلام اونفيه فيما بعد بحجة (مشروعة) مقبولة لدى جماهير المسلمين، اذا ما أعلن رفضه لحكم يزيد، فما دام الحسين عليه السلام ينطلق من رد فعل سريع (غير

---

(١) - (٣) ابن كثير ٨/ ١٦٤.

مترو)، فلا بد انه لا يستهدف مصلحة المسلمين ووحدتهم، بل يعمل على فرقتهم، فان من يتصدى له (حفاظاً على وحدة المسلمين ومصالحهم)، لا بد ان يلقى تأبياً ومؤازرة، لا شجباً واعتراضاً.

وقد كتب معاوية إلى الحسين عليه السلام:

(اني لأظن ان في رأسك نزوة ولا بد لك من اظهارها، ووددت لو ادركتها فاغتفرها لك)[1].

ولعله يشير بذلك إلى ان من سيأتي بعده، سيعمد إلى البطش والقتل ما دام لا يتمتع بحلم معاوية الفريد من نوعه. ولعله يريد ان يستفزه ويشجعه على الثورة في عهده ليتخلص منه قبل ان يتولى يزيد الحكم اما القصة التي رواها ابن أبي الحديد ففحواها ان الحسين عليه السلام ارسل بعد استيلائه على المال الذي كان مرسلًا لمعاوية من اليمن الرسالة التالية:

(من الحسين بن علي إلى معاوية بن أبي سفيان: اما بعد فإن عيراً مرت بنا إلى اليمن تحمل مالًا وحللًا وعنبراً وطيباً اليك لتودعها خزائن دمشق، وتعل بها بعد النهل بني ابيك، واني احتحت اليها فأخذتها).

وقد اجابه معاوية بقوله:

(ولم تكن جديراً بأخذها اذ نسبتها الي، لان الوالي احق بالمال ثم عليه المخرج منه، وايم الله، لو تركت ذلك حتى صار الي لم ابخسك حظك منه، لكني قد ظننت يا ابن اخي ان في رأسك نزوة وبودي ان يكون ذلك في زماني فأعرف لك قدرك واتجاوز عن ذلك، ولكني والله اتخوف ان تبتلى بمن لا ينظرك فواق ناقة:
وكتب في اسفل كتابه:

ياحسين بن علي ليس ما	جئت بالسائغ يوماً في العلل
اخذك المال ولم تؤمر به	ان هذا من حسين لعجل
قد اجزناها ولم نغضب لها	واحتملنا من حسين ما فعل
احسين بن علي ذا الامل	لك بعدي وثبة لا تحتمل
وبودي انني شاهدها	فأليها منك بالخلق الاجل

(١) وفيات الاعيان، ابن خلكان: م ٦، ج ٥: ٤٧١/ ٤٧٢.

انــني ارهــب ان تــبــلى بــمــن عنده من سبق السيف العذل)[1]

وواضح ان هذه الرسالة مفتعلة أو متكلفة، وان معاوية حتى لو قام بكتابتها فعلًا، فانه اراد ذيوع القصة وانتشارها وانتشار الابيات الشعرية التي ذكر في الاربعة الاولى منها لفظة (حسين) ليؤكد على انه عليه السلام تجاوز على والي المسلمين وولي امرهم، وانه كان بذلك مندفعاً ومتسرعاً كما كانت بعد ذلك ذريعة للامويين حينما اغتالوا الحسين عليه السلام وصحبه في كربلاء، وكما هي ذريعة المدافعين عن نظام الحكم الاموي الآن، وقد تأثروا بمقولات معاوية وآلاعيبه ودسائسه، فراحوا يرددونها بلفظها أو بتعابير اخرى مشابهة.

ان من يطلع على مجمل سيرة الحسين عليه السلام ويدرس تفصيلاتها يجد ان كل مفردة منها تنطلق من حرص متناه على الاسلام، مدعم بوعي وواقعية ونظرة صحيحة للأمور، وقد تقاطع سلوكه تقاطعاً تاماً مع سلوك الطبقة الجديدة المحسوبة على الاسلام، والتي اصبحت بحكم فرض سياسة الامر الواقع وبحكم العمل الدؤوب لمعاوية طيلة عشرات السنين، الممثلة له، والمسيطرة على مقدرات المسلمين وحياتهم وشؤونهم.

انك تجد انسجاماً في كل تصرفاته مع ما آمن به ودعا اليه، وقد تدعوك الحادثة البسيطة التي تكشف لك تعامله مع الفقراء والمحرومين والمحتاجين والضعفاء، إلى ان ترى فيه نفس تلك القوة التي كشفت عنها منازلته للقوة الاموية الغاشمة في كربلاء، وقد طالعنا المؤرخون ورواة السير بعشرات الحوادث التي دلت على اعتزازه بالاسلام والانحياز التام إلى مبادئه وقيمه، والتي أصبحت مثار اعجاب كل من اطلع على سيرته.

ان بقاءه عليه السلام في الساحة وحيداً بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام، جعل السلطة الاموية تتطلع اليه بحذر وخشية، بعد ان رأت فيه منافساً حقيقياً لها كأخيه الحسن عليه السلام تماماً، وربما آثرت ان تتريث في البت بشأن القضاء عليه واغتياله أو قتله بشكل معلن وامام انظار المسلمين لما قد يسببه قتله من مشكلات لها، خصوصاً وانه كما يبدو لم يتح الفرصة لاعوان النظام وانصاره لدس السم اليه، وانه صالح معاوية كأخيه الحسن عليه السلام ايضاً.

---

(١) شرح ابن ابي الحديد، ٥/ ٤٧١/ ٤٧٢.

ان الحرج الذي واجهته الدولة الاموية من الحسين عليه السلام ، هو انها لم تتفق معه على ان يكون يزيد (خليفة) بعد ابيه معاوية، ومن هنا كانت حجة الحسين عليه السلام في ان يبقى حرا بموقفه تجاه بيعة يزيد مقنعة للامة، وان كانت هذه الامة نفسها قد استجابت طواعية أو كرهاً لهذه البيعة، وتنازلت عن ارثها الرسالي لمعاوية ويزيد، لكنها كانت تريد اعلاناً بشرعية تصرفها، وكان ذلك الاعلان مرهوناً بالحسين عليه السلام ، فاذا ما تنازل وقبل بيزيد، كان ذلك ايذاناً للامة كلها بشرعية تصرفها، وربما القت مسؤولية انحرافها وضعفها وانحدارها عليه وحده، فاذا ما قبل ابن الرسول صلى الله عليه وآله وممثله الحقيقي بوريث معاوية خليفة على الامة، فان هذه الامة ستجد ان من العبث حتى ان تفكر باستنكار فعلات يزيد، وستقبله على علاته ما دام قد قبله ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وستنحني امامه ولن تفكر باستبداله أو الخروج عليه أو شجب تصرفاته أو تصرفات حاشيته واركان حكمه، مع انها اذا ما اقرت صلح الحسين مع يزيد، ورأت فيه (راحة) لها من مشكلات محتملة و (شكرت) له موقفه الاصلاح الامة وجمع شملها)، فانها بالتالي، وبعد ان تفيق من مفاجأة قبول يزيد خليفة عليها، ستدين الإمام الحسين عليه السلام ادانة تامة وكنا سنجد ان من كتبوا عن الحسين (شاجبين) تعريضه (وحدة المسلمين) للخطر والفرقة، سيكونون اول من (سيشجب) استجابته ليزيد اذا ما فعل ذلك، لان المخاطر التي سوف يتعرض لها المسلمون من تلك الاستجابة سيكون من شأنها ان تطيح بالاسلام نهائياً، وتجعل الامة مجرد شبح امة اسلامية غابرة، انتهت بشكل عملي غير ان الذي حصل، واثبته الإمام الحسين عليه السلام ، ان دم عدد محدود من ابناء الامة سيكون عاملًا على ايقاظ الامة وتحفيزها بشكل دائمي ضد الانحراف، كلما عن لها ان تنام وتستجيب للحكام المنحرفين امثال يزيد، لقد ادرك كل واحد من ابنائها ان بمقدوره وحده اذا ما تصرف كالامام الحسين عليه السلام ، ان يكون احد الملتحقين بركبه ليوقظ من اراد ان ينام أو يسكت أو يلين تحت سياط الظالمين أو اغراءاتهم.

الاعلام العلوي الحسيني في مواجهة الانحراف

كان الإمام الحسين عليه السلام يحاول بفعل مقصود ان يلفت نظر الامة إلى رفضه للتغيير المتوقع حدوثه على يد معاوية والذي حاول ان يصل في نهايته إلى اعلان (الانحراف) قاعدة بديلة عن الاسلام، اذا ما توج ذلك الانحراف بوضع يزيد على

العرش، لقد كان ذلك هو التغيير المتوقع الذي حاوله معاوية، وحاول الحسين عليه السلام مقابله ان يلفت نظر الامة إلى خطورته ويبدو ان تأثير الإمام كان من الفاعلية بحيث لم تستطع طمسه الاجهزة الاموية بكل ما امتلكته من قدرات وقوة وامكانات، مع انها حاولت التمويه وتضليل الرأي العام المسلم حول دوافع تنصيب يزيد خليفة ومشروعية ذلك اولاً، ثم تشويه الدوافع الحقيقية لرفض الحسين عليه السلام ذلك.

ورغم محاولات معاوية المتكررة معه وتهديده اياه ومحاولة اغرائه إلى حد انه عرض عليه ان يكون (شريكاً) في السلطة، واستعداده لذلك بالفعل[1]، فان الحسين عليه السلام افشل ذلك المخطط الماكر والمعد بعناية من قبل معاوية ولم يستجب لاغراءاته وتهديداته، وقام بحملات مضادة لكشف عمق المؤامرة التي كان يتعرض لها المسلمون بتنصيب يزيد خليفة عليهم، بل انه ذهب كما رأينا إلى ابعد من ذلك عندما ذكر جماهير الامة المجتمعة في مكة في موسم الحج بمنزلته ومنزلة آل الرسول عليهم السلام كافة، وبحقه الذي اغتصب، ودعوته اياهم لمحادثة من يثقون به وبدينه، وكان اقرار اكثر من مائتي صحابي، والاف التابعين بما طرحه الامام عليه السلام على المسلمين في موسم الحج وفي اوج قوة معاوية وارتفاع العرش الاموي حافزا للحسين عليه السلام للمضي في مهمته إلى النهاية لايقاظ الامة، وتبصيرها بالمصير الاسود الذي اريد جرها اليه، وكانت تلك حلقة مهمة لرص الصفوف حوله وتحشيد الامة لفهم مهمته التي بدا انه كان عازماً على المضي بها والتخطيط لها واعداد الامة لاستقبالها قبل وقت طويل من الوقت الذي نفذت فيه فعلًا في كربلاء، وهذا احد الامور التي تدحض حجة معاوية وافتراءاته عليه، وبأن في رأسه نزوة لا بد ان ينفذها، وانه لا بد ان يذهب إلى العراق (باغراء) ممن قتل اباه وخذل اخاه عليهما السلام.

ولعل معاوية كان من اكبر العارفين بالحسين عليه السلام ونواياه، ولعله ادرك انه سيمضي إلى نهاية الشوط بالتصدي للدولة الاموية الجائرة البعيدة عن الاسلام، وانه

---

(١) اذ انه عليه السلام اذا ما فعل ذلك، فانه سيفقد بنظر المسلمين كل تلك القداسة والمنزلة الرفيعة التي تمتع بها وشهد له بها كتاب الله ورسوله الكريم، وسيكون بامكان معاوية ان يزيله او يطيح به في اية لحظة دون ان يثير ذلك حفيظة احد من المسلمين او يولد اي رد فعل مناوىء للدولة الاموية.

لن يتنازل عن حقه بالتصدي المعلن الشجاع للظلم والانحراف، فحاول منذ البداية تشويه صورة الإمام لدى الامة، كما حاول تشويه صورة أمير المؤمنين عليه السلام والحسن عليه السلام، واختلاق مختلف الاقاصيص والاكاذيب المفتراة بحقهما، وذهب بحق أمير المؤمنين عليه السلام إلى ابعد من ذلك حينما شن اكبر حملة للسباب والشتيمة عرفها التاريخ بحقه عليه السلام، رافقتها حملة مماثلة للحط من قيمته ورواية اخبار كاذبة بحقه نقلها بعض المشاركين بالعرش الاموي امثال عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وسمرة بن جندب وغيرهم.

ان من يستعرض مواقف الإمام الحسين عليه السلام، على اساس الاسلام، حاملاً العقلية الاسلامية الصحيحة التي حملها عليه السلام، يرى ان ما قام به هو ما كان ينبغي ان يقوم به فعلاً، وان لا خيار امامه لانقاذ الامة من ورطتها وانحدارها وسقوطها والا فهل كان ازجاء النصح المجرد ليزيد وهو الذي بذل معاوية جهوداً خارقة لتحسين صورته ومنعه من تصرفاته المعلنة المخزية ستغيره وتجعل منه شخصاً آخر غير الذي عرفته الامة؟ وهل كان السكوت عنه أو حتى مجرد الامتناع عن بيعته والانزواء في مكان بعيد لا تطاله يده كفيلًا بمنع الامة من الانجرار إلى مصيرها المحتوم، وسقوطها النهائي؟

ان قوة الفعل التي تمثلت في الفصل الختامي من ثورة الحسين عليه السلام، برزت في كل مشاهد حياته، ليظل تأثير المشهد الاخير ماثلًا دائماً كما هو حاله عبر مئات السنين التي مرت، ولو انه ساوم أو تنازل أو سكت عن حقه أو هادن دولة الظلم واكتفى بدافع من (نزوة شخصية) كما حاول معاوية الايحاء بذلك، لكانت ثورته قد اندثرت ولذهب دمه ودماء اصحابه هدراً، كما ذهبت دماء العديد من المتنافسين على السلطان والزعامة كابن الزبير وامثاله، من الذين لم يكن الاسلام وامة الاسلام دافعهم للتصدي لمنافسيهم، رغم ما ابدوه من بطولة ظاهرية، وشجاعة في مواجهة الموت.

مغالطات الاعلام الأموي حول مسألة الخلافة

استفادة من انحرافات الصحابة

لقد افاد معاوية من طروحات حاول بعض الصحابة بثها من قبل، مثل عدم استخلاف رسول الله صلى الله عليه وآله احداً قبل وفاته، وهي مغالطة اثبت الواقع زيفها وبطلانها، وممارسات ناشئة عن رأي رآه من سبقه إلى الخلافة مثل الخليفة ابو بكر عندما

استخلف عمر، والخليفة عمر عندما جعل الامر شورى بين ستة من الصحابة، وهي ممارسات تختلف عن بعضها استغلها معاوية لتمرير مخططه وعرض ممارسة جديدة على المسلمين وهي استخلاف ابنه، وحاول ايهام المسلمين ان عمله ذاك لم يكن ليختلف عن عمل من سبقوه، ابتداء من رسول الله ﷺ، إلا بالشكل، وانه كان يستهدف كمن سبقه مصلحة المسلمين لا غير، وهكذا خطب في أهل المدينة، راداً على الحسين عليه السلام رأيه الصريح في يزيد واستخلافه قائلاً:

(قد علمتم ان رسول الله ﷺ قبض ولم يستخلف احداً، فرأى المسلمون ان يستخلفوا ابا بكر، وكانت بيعته بيعة هدى، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى ان يستخلف عمر، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه. فلما حضرته الوفاة رأى ان يجعلها شورى بين ستة نفر، اختارهم من المسلمين، فصنع ابو بكر ما لم يصنعه رسول الله ﷺ وصنع عمر ما لم يصنعه ابو بكر، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين، فلذلك رأيت ان ابايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف، ونظراً لهم بعين الانصاف)[1].

وهي حيلة وحجة وان لم تنطل على المسلمين، إلا انهم لم يملكوا ردها امام سطوة الحاكم المستبد القوى، والا فهل كان يزيد في نظر الكثيرين منهم يتمتع بالمنزلة التي كان يتمتع بها ابو بكر وعمر، وهل كان يمتلك ذلك الرصيد الذي امتلكاه، رغم انهما انتزعا الخلافة من صاحبها الشرعي، وهو أمير المؤمنين عليه السلام، غير انهما انطلقا من فهمهما وتصورهما الخاص، وربما اعتقدا ان ما فعلاه كان صواباً، وربما بذلا جهد امكانهما للسير على بعض خطى الرسول ﷺ، الذي نسب اليه معاوية تقصيراً كبيراً، وهو اهمال استخلاف احد على الامة يكمل مهماته لتربيتها وقيادتها، وهو امر لا يمكن ان يفعله احد يعتقد حقاً بالرسول الكريم ﷺ، ولان بناء الامة لم يستكمل، كان وجود القيادة المؤهلة للعب نفس الدور الذي لعبه ﷺ امراً ضرورياً، ولم يكن الرسول ﷺ بالذي يفوته هذا الامر وينسى ان الامة لم تتأهل كلها بعد لاستيعاب الاسلام، وان قطاعات كبيرة ربما خرجت عليه لمجرد وفاته، وان فئات عديدة ربما تنافست على زعامة الامة الاسلامية، والا فما السبب الذي دعى ابا بكر لاستخلاف عمر، ودعا عمر لتكوين لجنة شورى (تنتخب) من بينها احد اعضائها؟

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٢/ ١٩٩.

الم تكن الذريعة هي الحفاظ على وحدة المسلمين وعدم فسح المجال للخلاف والفرقة؟ هل غاب عن الرسول ﷺ ما لم يغب عن فطنة أبي بكر وعمر؟ وهل ادرك معاوية امراً لم يدركه الرسول ﷺ؟ فحاول جعل الامر وراثياً في اولاده مبتدئاً بيزيد.

هل كان معاوية يفهم المسألة برمتها على الشكل التالي: ان الرسول ﷺ دعا الناس إلى التمسك بآله بعد ان وردت الشهادات الالهية بحقهم ومنزلتهم، وما دام هؤلاء الآل عليهم السلام قد ابعدوا عن منزلتهم واصبحوا (تابعين) لغيرهم، فلماذا لا يكرر معاوية لعبة الابعاد هذه مبرراً اياها بحبه ليزيد، كما بين رسول الله ﷺ حبه للحسن والحسين عليهما السلام وصرح: (انه لم يبق إلا ابني وابناؤهم، فابني احب الي من ابنائهم) وكأن حب الرسول ﷺ للحسن والحسين هو مجرد عاطفة ابوية، وكأنها مثل حب معاوية ليزيد؟

فلو افترضنا ان احد احفاد الرسول ﷺ واستغفر الله من ذلك كان كيزيد، اكان رسول الله ﷺ يكن له نفس الحب الذي كنه معاوية ليزيد وهو يعلم ما هو؟ ان معنى قول معاوية هو ان الرسول ﷺ وحاشاه من ذلك كان ينطلق من غريزة حب ابوية لولديه وحسب، ولم يكن مقيداً بمنهج الهي ثابت ينزهه عن خطأ القول والفعل، وانه كان ينساق وراء هوى شخصي بحت كأي انسان عادي، لا يعرف حتى الاسلام، متناسياً سيرته الفريدة وعصمته وشهادة الله سبحانه بحقه، وانه لا ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى؟

ان اعتقاد معاوية بذلك، هو اعتراف منه بعدم اعتقاده بالاسلام.

كما ان ما زعم انه اراد تداركه وغاب عن بال الرسول ﷺ بزعمه اطروحة باطلة اريد منها نفي وصاية أمير المؤمنين عليه السلام وامامته، وعهد رسول الله ﷺ اليه جملة وتفصيلًا، وكيف ظننا بمن امتلك الطاقات الهائلة من الاموال ورجال الأعلام الموالين، سيكون فعله في النهاية اذا ما سخر كل تلك الطاقات لمصلحته وحرب الاسلام الذي لا تنسجم معه تلك المصلحة باية حال من الاحوال، لقد نجح اعلام معاوية باقناع جماهير واسعة من المسلمين بالاطروحات السابقة التي لم تجد لها سنداً من الواقعية والحقيقية، فحاول نشرها وتعزيزها متهماً الرسول ﷺ بالتقصير في مجال تعيين قائد خلف له، يقوم بمهمة تربية الأمة واعدادها على نهجه لفترة اخرى اضافية، وشرح كل ما استعصى على افهامها، وترسيخ كل قيم الاسلام وتعاليمه.

ان (اي افتراض يتجه إلى القول بان النبي ﷺ كان يخطط لاسناد التجربة والقيمومة على الدعوة بعده مباشرة إلى جيل المهاجرين والانصار يحتوي ضمناً اتهام اكبر وابصر قائد رسالي في تاريخ العمليات التغييربة، بعدم القدرة على التمييز بين الوعي المطلوب على مستوى القاعدة الشعبية للدعوة والوعي المطلوب على مستوى قيادة الدعوة وامامتها الفكرية والسياسية)(١).

فلم يكن جيل الصحابة ومعظمهم لم يعش معه أو يرافقه ﷺ فترة كافية مؤهلا لتحمل المسؤوليات وادارة عملية التغيير دون قائد مؤهل يمتلك صفات خاصة كتلك التي امتلكها أمير المؤمنين عليه السلام على وجه الخصوص واولاده عليهم السلام من بعده.

ان (الامة الاسلامية ككل لم تكن قد عاشت في ظل عملية التغيير هذه إلا عقداً واحداً من الزمن على اكثر تقدير، وهذا الزمن لا يكفي عادة في منطق الرسالات العقائدية والدعوات التغييرية لارتفاع الجيل الذي عاش في كنف الدعوة عشر سنوات فقط إلى درجة من الوعي والموضوعية والتجرد من رواسب الماضي والاستيعاب لمعطيات الدعوة الجديدة، تؤهله للقيمومة على الرسالة وتحمل مسؤوليات الدعوة ومواصلة عملية التغيير بدون قائد.

بل ان منطق الرسالات العقائدية يفرض ان تمر الامة بوصاية عقائدية فترة تطول من الزمن، تهيؤها للارتفاع إلى مستوى تلك القيمومة)(٢).

وهكذا فعندما استبعدت القيادة الحقيقية، وجاءت قيادة غير مؤهلة لتربية الامة واعدادها وتغييرها بدأ العد التنازلي في مستوى اداء تلك القيادة، وبدأت العناصر المتسللة والدخيلة والغريبة عن الاسلام بحجج واطروحات اسلامية مزيفة تهدم هذا الدين وتنحرف وتخرج عليه بشكل سافر، غير متحرجه أو خائفة من الامة بعد فترة لم تتجاوز النصف قرن من رحيل الرسول الاعظم ﷺ والقائد الاول لهذه التجربة الالهية العظيمة والرسالة الاخيرة، التي اريد لها ان تمتلك عناصر القوة والديمومة لا عناصر الضعف والاندثار، اذ ما من رسالة تعقبها ستصحح من الانحراف أو الخطأ أو السقوط.

(١) بحث حول الولاية السيد محمد باقر الصدر ١٩٧٧م، دار التوحيد، الكويت ص ٣٥/ ٣٦.
(٢) نفس المصدر السابق، نفس المكان.

صلح الحسن عليه السلام كشف القناع عن انحراف معاوية

لقد ادرك الإمام الحسين عليه السلام كما ادرك الإمام الحسن عليه السلام من قبل ان معاوية الذي استمال فئات عديدة إلى جانبه ولعب بعواطفهم ومشاعرهم وافكارهم كأهل الشام وجماعات اخرى اغراها بالاموال والمناصب، ولعب ارهابه وقسوته دوراً مهماً باسكات كل من لمس منه استعداداً للمعارضة، كل ذلك مع وجود أمير المؤمنين عليه السلام على الساحة وقيامه بمهمة قيادة الامة بشكل فعلي، جدير بان يكشف عن كل اوراقه ويتخلى حتى عن الشعارات التي رفعها زيفاً وكذباً، ويعلن عداءه الصريح للاسلام بحجة الرأي الذي لا تدعمه حجة بينة، بل انه جدير بان يوجد تلك الحجة أو البينة من حديث مزور أو آية قرآنية مؤولة تأويلًا خاطئاً، كما فعل ذلك في مواطن كثيرة، وسيكون من شأن تماديه في ذلك ان يقضي على البقية الباقية من قيم الاسلام وتعاليمه الصحيحة التي شوه وزور العديد منها، فكأنه طلع علينا بدين مغاير للاسلام، عماده احاديث موضوعة لم يقصد منها إلا التمهيد لحكم ورثته، وحكم كل من سيكون على شاكلتهم.

كان من شأن التصدي المعلن لمعاوية، والطعن (بخلافته) والخروج عليها ان يجعله يشن حرب تصفية شاملة ضد كل خصومه الحقيقيين والمفترضين، ولن يجد عند ذاك من يقف بوجهه أو يحاسبه، وسيقطع حتى الشعرة التي تبجح بأن احداً ما لن يستطيع قطعها في يوم من الايام.

وتكاد دلائل الاحداث ووقائعها تدلنا على ان الإمام الحسين عليه السلام كان متفقاً بالرأي والاسلوب مع الإمام الحسن عليه السلام، ولعل قرار الصلح كان قرارا مجمعاً عليه منهما كليهما، ولو ان الحسين عليه السلام كان رافضا له لراحت ابواق الدعاية الاموية تعمق من هذا الرفض وتصور الخلاف وكأنه خلاف كبير بين الشخصيتين، ولراحت تطعن فيهما كليهما، مستغلة ذلك لو انه قد حصل فعلًا.

خلاف الحسن والحسين عليهما السلام حول مسألة الصلح مع معاوية

أكذوبة اعلامية أموية

غير ان كتب التاريخ بل بعضها لم تحدثنا إلا همساً عن معارضة الإمام الحسين عليه السلام لقرار الصلح، إلا ان اغلبها اكدت لنا ان ما كان يقوم به الإمام الحسن عليه السلام، لم يكن يجري بمعزل عن الحسين عليه السلام ـ ولو كان الامر بالعكس

لرأينا خصومة وقطيعة وخلافاً ـ لأن كلاهما كان يمتلك نفس الوعي ونفس القدرة على فهم الاحداث والسنن الربانية المتحكمة بها ويعلمان عن الرسول صلى الله عليه وآله وابيهما عليه السلام ما لم يعلمه احد آخر.

ولو ان الإمام الحسين عليه السلام سبق الإمام الحسين عليه السلام في الفترة الزمنية، وتحمل مسؤولياته قبله، لقام بنفس ما قام به، ولقام الحسن عليه السلام بما قام به الحسين عليه السلام في واقعة الطف، لو انه قيض له وعاش بعده، وشهد هلاك معاوية ومجيء يزيد إلى السلطة.

وهكذا، فعندما جاءه نفر من أهل الكوفة، منهم سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيب بن نجبة وسعيد بن عبد الله الحنفي يطلبون اليه البقاء في الكوفة بعد ان عزم على الخروج منها مع اخيه عليه السلام، والقيام بتزعمهم لمناوئة حكم معاوية، ادرك قصدهم وبادرهم بالكلام قبل ان يفصحوا عن غرضهم، عندما رأى في وجوههم الكآبة والحزن وقال لهم:

(الحمد لله كما هو اهله ان امر الله كان مفعولاً، وان امر الله كان قدراً مقدوراً وانه كان امراً مقضياً، والله لو اجتمعت الانس والجن على الذي كان ان يكون لما استطاعوا، والله لقد كنت طيب النفس بالموت حتى عزم علي اخي الحسن عليه السلام وناشدني في الله ان لا انفذ امراً ولا احرك ساكناً فاطعته، وكأنما يجدع جادع انفي بالسكاكين أو يشرح لحمي بالمناشير، فأطعته كرهاً والآن كان صلحاً وكانت بيعة ولننظر ما دام هذا الرجل حياً، فاذا مات نظرنا ونظرتم)[1].

لم يقل انه كان مختلفاً مع اخيه عليه السلام، بل قال ان الامر كان شديد الوطأة عليه، حتى لقد كان يتمنى الموت، لولا مناشدة اخيه عليه السلام بالصبر، وقد اطاعه، مع ان ذلك كان يؤلمه إلى ابعد حد، وكانت طاعته اخاه عن وعي بصواب نظرة ذلك الاخ الواعي المتدبر العالم الذي ادرك ما لم يدركه سواه، والذي فوت على معاوية فرصة استئصال آل البيت عليهم السلام واشياع الرسالة الحقيقيين.

لقد كان الامر مؤلماً بالنسبة للحسن ايضاً عليه السلام، وقد صبر على م ووقع وثيقة الصلح وهو يعلم انه يعرض سمعته لأشد مهانة بين قطاعات واسعة من المسلمين،

(١) مقتل الحسين المشتهر بمقتل ابي مخنف، مؤسسة الوفاء/ لبنان ط ٢، ١٩٩٢ ص ٦/٧.

وخصوصاً من اشياعه واتباعه الذين لم يفهموا ما فهمه هو عليه السلام ، وقد اجابهم بدوره قائلًا :

(ولو كنت ممن يعمل الامر للدنيا وسلطانها ما كان معاوية اشد مني بأساً ولا أصعب مني مراساً، ولكني رأيت ما لم ترون، واشهد الله اني لم ارد بذلك إلا حقن دمائكم واصلاح شأنكم، فارضوا بقضاء الله وسلموا اليه الامر والزموا بيوتكم)[1].

لقد كان توجيه الامامين عليهما السلام كليهما لانصارهما واحداً: الزموا بيوتكم قالها الإمام الحسن عليه السلام ولعله امرهم ضمناً بمراقبة الوضع ما دام معاوية حياً فاذا مات كان لهم شأن آخر، ولننظر ما دام هذا الرجل حياً، فاذا مات نظرنا ونظرتم، قالها الإمام الحسين عليه السلام بشكل صريح، لم يدعواهم للتخلي النهائي عن معارضة دولة الظلم، بلا امراهم باستجماع قوتهم والتربص لعدوهم.

وإذ لم تتح الفرصة للحسن عليه السلام ، لعمل عسكري كالذي قام به الإمام الحسين عليه السلام لنجاح معاوية في اغتياله، فانه كان جاهزاً للقيام بدور الحسين عليه السلام لو امتد به العمر وشهد بيعة يزيد، ولكان هو قائد معركة الطف، وكان الحسين عليه السلام اول جندي يقاتل تحت لوائه، غير ان المسؤولية الاولى تحملها بعد وفاته الإمام الحسين عليه السلام ، وكان ما كان في معركته الفريدة تلك.

لقد اثيرت وربما بفعل مقصود مسألة اختلاف الأمامين بمسألة الصلح، وربما ذهب بعض المؤرخين إلى ابعد من ذلك اذ نسبوا إلى الحسن عليه السلام عثمانية الهوى واثاروا مسألة خلاف مزعوم بينه وبين ابيه أمير المؤمنين عليه السلام ، مع انه كان يتصرف بايعاز منه، وكما اوضحنا، فان الاعلام الاموي الماكر اراد ايهام المسلمين ان (اختلاف) مواقف الائمة المزعوم، كان نتيجة (تخبط)، ووجهات نظر ورأي خاصة ذاتية لم تخضع إلا لعواطفهم ورغباتهم، حالهم في ذلك حال معاوية، والا لكانوا قد انسجموا ولم يختلفوا، لقد وردت روايات عن ذلك (الاختلاف) مع ان الواقع قد أرانا بشكل قاطع انهم كانوا مثال الانسجام والوعي، مدرك كل منهم مهماته كامام أو تابع لامام، فكان الحسنان مثال الطاعة والانضباط والوعي في عهد ابيهما عليه السلام ، ولم يشر احد إلى اختلاف أو عصيان امر أو برود بينهم، بل ان الانسمجام بيهم وبين ذلك

(١) المصدر السابق.

الوالد الكبير كان ملفتاً للنظر حقاً، ولا ندري كيف حاول المكر الاموي النفاذ من هذه النقطة الماكرة، لكنها عبقرية معاوية في الشر، تلك التي ارست دعائم منهج قائم في التضليل والتحريف والتزوير وكان رائدا لكل المدارس التي اعقبته في هذا الشأن.

اما انسجام الامامين عليهما السلام مع بعضهما، فهل سجل احد عكسه بموقف واضح، فلم تورد لنا المصادر التأريخية الموثوقة ما يناقضه، غير تلك الاقوال المزعومة المنسوبة اليهما، بل إلى الحسين عليه السلام على وجه الخصوص؟ هل حدثنا احد انهما تقاطعا أو افترقا أو تنازعا؟ كلا، ولو كان لبان، ولكان الاعلام الاموي اول من يطبل ويزمر له، ويستغله ويعرضه على جماهير المسلمين مبتهجاً فرحاً، غير انهم لم يرووا لنا سوى مزاعم قيلت على لسان الحسين عليه السلام مثل قوله للامام الحسن عليه السلام: انشدك الله ان لا تصدق احدوثة معاوية وتكذب احدوثة ابيك، الخ، كما روى لنا ابن كثير وابن الاثير وابن عساكر، وجواب الحسن عليه السلام (الخشن) له رداً على (اندفاعه) و (مخالفته)، كأمره اياه بالسكوت وقوله انه اعلم بالأمر منه، وقوله بانه هم بسجنه في بيت يطينه عليه حتى يقضي بشأنه في أمر الصلح ويخرجه من بعد ذلك، وقوله له بانه لم يرد أمراً إلا وخالفه إلى غيره... الخ.

هل يذكر لنا اولئك المؤرخون وغيرهم ان الحسين عليه السلام سبب مشكلة واحدة لاخيه، وان (معارضته) المزعومة خرجت إلى حيز عملي، وانهما افترقا أو ابتعدا عن بعضهما في أي وقت من الاوقات، سوى تلك الاقوال الملفقة المزورة.